عبد العزيز جمال الدين

ثورات المصريين حتى عصر المقريزي



بحث شامل مزوّد بلوحات تاريخية

ثورات المصريين
حتى عصر
المقريــــزى

عبد العزيز جمال الدين

الطبعة الأولى
٢٠١١



دار الثقافة الجديدة

كانت فكرة هذا الكتاب محصلة لحوار طويل بينى وبين الصديق العزيز فكرى اندراوس، ولذلك أهديه إليه وإلى كل مصرى داخل الوطن أو خارجه لعلى بذلك أكون قد سددت بعض دينى لهم.

عبد العزيز جمال الدين
القاهرة ٢٠١١

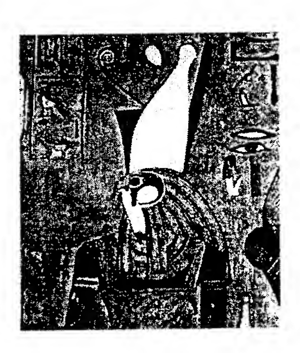


الأمة المصرية فى المواجهة

ذكر سير جاستون ما سبيرو: "ان مصر هى مصدر الحضارة وأم القوانين التى حكمت العالم وان أبناء هذه الأم ما زالوا يعيشون معنا تحت اسم القبط"، وأقباط مصر يهيمون حبا بها بل وتلتهب وطنيتهم عشقا بنيلها وأرضها.



والقبطي على مر العصور ليس فى حاجة لأن يستورد لنفسه أبطالا من أى بلد أجنبى ولو كانت الجزيرة العربية أو فلسطين فتاريخ بلاده ملىء بالأمجاد والأبطال، وهنا تحدثنا الدكتورة نعمات أحمد فؤاد: " لم يزايل مصر الشعور بنفسها بل اعتدادها بما أدت وأعطت حتى ذهب الأقباط إلى القول بأن السيد المسيح له المجد لم يولد فى بيت لحم وأنما ولد فى صعيد مصر وذلك ارضاء لحدة الشعور بمصر وحدة التفاخر بها حتى ليكاد يُجمع الدارسون على أن المسيحية فى مصر كانت تعنى القومية المصرية وكانت الكنيسة المصرية تعنى الدين والدولة معا فى وقت واحد أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الامه وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة."



الصقر حورس حامى مصر والمدافع عنها ضد الأستبداد والأعداء من البدو اتباع ست = شت = شيطان.

وعبر العصور كانت المقاومة المصرية القبطية دائمة لكل ما هو أجنبى أو دخيل، ولم تقتصر على طغيان البطالمة وأباطرة الرومان بل وأيضا إلى مقاومة الغزو العربى والطغيان والتعنت للحكام المسلمين. ولقد رفض أقباط مصر استعمار بيزنطة المسيحية بشدة وكذلك كرهوا استعمار بيزنطة (استنبول) الإسلامية، وكما نكل نابليون الفرنسى وجيشه المحتل بأقباط مصر كذلك أيضا كان دور المستعمر الانجليزى ازاء وطنية الأقباط وحبهم الشديد لبلدهم.

وحين نستعرض معا بعض الصور التاريخية لمدي مقاومة القبط وثوّراتهم المتتالية ضد الاستعمار (سواء أكان استعمارا فارسيا أوبيزنطيا أو عربيا أو تركيا أو أوربيا) لما كان فى وسعنا إلا أن نحنى هاماتنا احتراما لصلابة الشعب القبطى الأبى العريق. يصف"جوميه" مدى تمسك القبط بمصريتهم وشغفهم بوطنهم فيقول فى دهشة لا تخفى: " لقد سعى الاسكندر الاكبر سعيه ليصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية واقتفى البطالمه أثره فى ذلك وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى مسحة يونانية بحته وقد ثابروا فى هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون الوصول إلى غرضهم. وخيل إليهم أنهم نجحوا فى الوصول إلى هدفهم لما رأوا المصرى وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات- ولكن المصرى له قدره عجيبة على تكييف الفنون وفق مزاجه. وهو - بعد هذا كله - مصرى تأصلت



حورس المصرى يصد الأعداء ويقضي عليهم.



حورس فى شكله البطلمى والرومانى، مازال يحارب أعداء مصر. اصبح رمز عالمى للمقاومة ممثلا فى مار جرجس وراما وأبو زيد وطومانباى.



جذوره فى هذه التربة وثقافتها التى ازدهرت فى ظل حضارته العريقة. فالمصرى مع كل ما يهضمه من علوم غريبة فخور بماضيه، مشغوف ببلاده، فهذا الفخر وهذا الشغف تأصل فيه إلى حد بعيد الغور، فهو ثابت فى مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات".

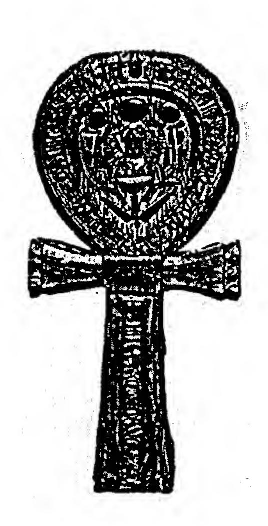


ثورات المصريين قبل وبعد الغزو العربى

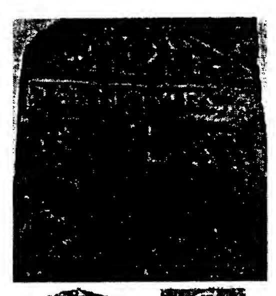
تقديم

ما كادت مصر تسترد استقلالها - الذى انتزعه منها الأشوريين - على يد بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية حتى بدا فى الأفق شبح الخطر الفارسى الذى قضى على استقلال ميديا وليديا وبابل، وامتد حتى شمل سوريا وفلسطين، ثم دارت الدائرة على مصر عندما غزاها قمبيز عام ٥٢٥ ق.م (فى عهد بسماتيك السادس)، وبذلك ذهبت الأسرة السادسة والعشرون، وفقدت مصر استقلالها وخضعت لعهد استعمارى شديد الوطأة، هو العهد الفارسى الذى سلب المصريين حريتهم، واستباح حرمة ديانتهم، وأثقل كاهلهم بشتى التكاليف.

لم يرضخ المصريون لما حاق بهم من عسف وظلم، فهبوا فى وجه الغزاة ثائرين، وتعددت ثوراتهم، ولكنهم لم ينجحوا فى الخلاص من ربقة النير الفارسى نهائيا، إذ كان الملوك الفرس ينتقمون من المصريين فى أعقاب كل ثورة أبشع انتقام وأشنعه، وفى أعز ما يعتز به المصرى



الصليب الفرعونى، علامة الحياة. وتداعياته فيما بعد.





القديم وهو دينه، ولم تنج مصر من الحكم الفارسى البغيض إلا على يد الإسكندر المقدونى. وإذا كانت مصر قد نجحت - طوال تاريخها الفرعونى - فى طرد غزاتها الأجانب، فإنها عجزت هذه المرة عن ذلك، إذ قام على أنقاض الحكم الفارسى حكم أجنبى جديد، هو الحكم البطلمى، الذى أعقبه الحكم الرومانى والبيزنطى. وبعد ما رسفت مصر قرابة قرون عشرة فى أغلال هذين الحكمين، أصبحت فريسة سهلة لإحتلال آسيوى آخر هو الاحتلال العربى.

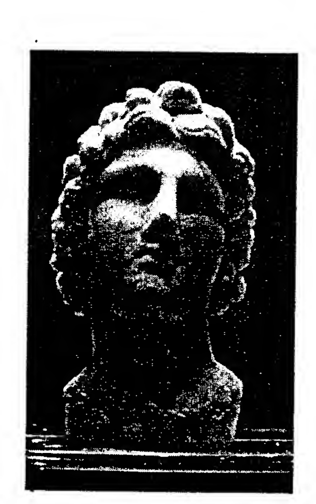

قمبيز يغزو مصر



قمبيز الثانى

البطالمة وثورات المصريين

احتل الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م، ثم غادرها فى ربيع عام ٣٣١ ق.م. متجهاً صوب الشرق مقتفياً أثر عدوه. وفى هذه الفترة الوجيزة التى قضاها فى أرض الفراعنة. وما لبث أن توفى فى الثالث عشر من شهر يونيو عام ٣٢٣ ق.م.


إسكندر المقدونى.

وغداة موت إسكندر، اجتمع قواده فى بابل ليقضوا فى أمر هذه الأمبراطورية الواسعة التى تركها صاحبها دون وريث، فقسموها إلى ولايات وزعت بينهم. وكانت مصر - طبقاً لاتفاقية بابل - من نصيب بطلميوس بن لاجوس، وهكذا تحققت لذلك القائد المقدونى أمنيته التى كان يحلم بها منذ وفد إلى مصر فى صحبة الإسكندر الأكبر. والحق أن بطلميوس كان موفقاً فى اختياره إذ تمكن فى ذلك المكان النائى عن قلب الأمبراطورية من أن يضع أساس دولة قوية غنية حمل أحفاده صولجانها من بعده مدة ثلاثة قرون من الزمان على وجه التقريب، بدأت بوفاة الإسكندر وانتهت عام ٣٠ ق.م.عقب معركة اكتيوم البحرية بقليل.

هكذا بدأ حكم البطالمة فى مصر، أقام فيها بطلميوس ابن لاجوس والياً أول الأمر، ثم استقل بها واتخذ لنفسه لقب " ملك "، ورسم لنفسه سياسة داخلية وخارجية خاصة، استلهم وحيها من المصلحة الخاصة. وإذا كنا نريد أن ندرس هنا ثورات المصريين فى هذه الفترة. فينبغى أن نبدأ أولا بكلمة عن سياسة البطالمة الداخلية، لنلمس فيها دوافع هذه الثورات وأسبابها.

عندما فتح المقدونيون مصر كان لها تاريخ مجيد باهر يمتد إلى عدة آلاف من السنين، وكانت لها حضارة زاهرة وتقاليد عريقة تستند إليها شتى نواحى حياتها الدينية والسياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية. و أدرك البطالمة كل ذلك. فأحسوا بخطر القيام بأية محاولة لإغفال التقاليد المصرية التى امتزجت بنفوس أصحابها امتزاجا شديداً. فآثروا السلامة، وتركوا للمصرى تقاليده وعقائده القديمة، بل إنهم أظهروا من ناحيتهم احتراما كاملا لهذه العقائد وتلك التقاليد، وذهبوا فى هذا السبيل إلى حد اعتناق التقاليد المصرية، فنصبوا أنفسهم فراعنة. وحملوا الألقاب الفرعونية، وشيدوا المعابد للآلهة المصرية وأجزلوا لها العطاء.

وثمة مشكلة أخرى واجهت البطالمة ، وهى سوء الحالة الاقتصادية وضرورة إنعاشها للنهوض بالأعباء الجديدة لملكهم. فقد ساد مصر اضطراب شديد خلال القرن الرابع قبل الميلاد نتيجة للثورات التى قام بها المصريون للتخلص من النير الفارسى، وأفضى ذلك إلى فساد الإدارة وإهمال الشئون الاقتصادية إهمالا شديداً أدى إلى نضوب المال. لهذا كان لزاماً على البطالمة أن يعيدوا تنظيم الشئون الاقتصادية والإدارية تنظيما



الإسكندر الأكبر



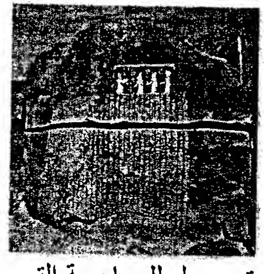
الاسكندر المقدوني



لم يكن بناء الأهرامات معجزة معمارية يحار فيها العلماء حتى اليوم، بل كذلك معجزة إدارية وتنظيمية شملت ضبط وتيرة العمل بدقة متناهية إلى جانب توفير الاحتياجات اليومية للعاملين من مأكل ومسكن وملبس ورعاية صحية.

يكفل لهم استغلال موارد البلاد إلى أقصى حد مستطاع ويضمن لهم القبض على ناصية الشعب. وهكذا نرى أن البطالمة كانوا يهدفون فى الداخل إلى هدفين: أولهما الحصول على المال، وثانيهما إحلال الهدوء والاستقرار. أما المال فلبناء أسطول ضخم وتجنيد جيش عظيم للفوز باستقلال مصر ثم الاحتفاظ بهذا الاستقلال وتدعيمه وللقيام بالدور الأول فى سياسة البحر المتوسط الدولية. وأما الهدوء والاستقرار فقد كانا لازمين لتوفير المال والتفرغ للدفاع عن كيان ملكهم فى مصر.

على هذا النحو أوجد البطالمة الأداة اللازمة لبناء قواتهم الحربية وإنعاش الأحوال الاقتصادية، ولكن الأساليب التى اتبعوها فى حكم البلاد والاحتفاظ بقوتهم العسكرية واستثمار المرافق الاقتصادية أرهقت المصريين إرهاقاً شديداً فنقموا على البطالمة وتألبوا عليهم، ذلك أن البطالمة استندوا فى حكمهم إلى حق الفتح، ومن ثم اعتبروا البلاد ملكا خاصا لهم، يديرونها ويتصرفون فى شئونها كما يتصرف أى فرد فى شئون أى ضيعة يمتلكها. ولهذا سنوا من النظم ما يكفل ضمان استدرار خيرات هذه الضيعة .



تسجيل للمجاعة التى اصابت مصر فى ظل البطالمة على جزيرة سهيل بأسوان.



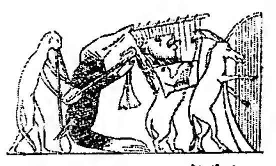
ابدع المصرى الكاريكاتير كوسيلة للمقاومة، وتبدو هنا القوة عندما تصارع أو تفاوض، ولكن الذكاء النابع من الثقافة يتمثل فى حركة اليد اليمنى للغزال الخافية عن الأسد.

وإذا كان البطالمة قد تجنبوا إحداث أى انقلاب ظاهرى فى نظم الإدارة الداخلية للبلاد، إلا أنهم أدخلوا تغييراً حقيقاً فى نظام الحكم أشعر المصريين بأنهم محتلون بقوة عسكرية، فأقاموا إلى جانب الحاكم المدنى لكل إقليم حاكما آخر له صفة عسكرية هو القائد (στρατηγὸς)، وكان هذا إغريقيا يتمتع بالمكانة العليا فى الاقليم، وله الكلمة الأولى فى مختلف الشئون المدنية والعسكرية على السواء. ونحن نجد فى ذلك النظام ما يحملنا على مخالفة الرأى القائل بأن

البطالمة قد اتبعوا فى مصر سياسة التوسع السلمى. ولم يعملوا على إشعار المصريين بأنهم محتلون بقوة عسكرية. ولهذا اتخذ بطلميوس الأول من الفيوم - النائية عن السكان - مقراً لقواته العسكرية الإغريقية .

اندلاع مقاومة المصريين للبطالمة.

ولقد اتبع البطالمة - لاستغلال مرافق البلاد الاقتصادية - سبلا تنطوى على بالغ العسف والارهاق بالنسبة للمصريين، ففرضوا عليهم ضرائب باهظة وتكاليف شتى، وسلبوهم حريتهم الاقتصادية، وعاملوهم معاملة شعب مهزوم، فبسطوا رقابتهم على كل شئ حتى باتت المعابد نفسها خاضعة لهذه الرقابة الثقيلة. فقد كانت مصدرا للمقاومة والتمردات. والحق أن المصريين كانوا فريسة لعدة مظالم فاحشة: فقد استولى الاغريق على موارد بلادهم بشكل لم يسبق له نظير، بل إنهم مدوا أيديهم إلى داخل بيوتهم فشاركوهم سكناها. إذا كان مفروضاً على الأهالى إيواء الجند فى مساكنهم - وذلك فى المدن والقرى القديمة حيث يندر وجود أرض فضاء للبناء - الأمر الذى كن سبباً فى شكايات عديدة نسمع عنها منذ القرن الثالث قبل الميلاد.



جوقة المرحبين بالاستبداد يقودها غناء الحمار.

ولم يكن وضع المصريين فى الجيش وضعاً يحسدون عليه: لقد كانوا يؤلفون منذ البداية جزءاً من قوات البطالمة البرية والبحرية ، ولكنهم كانوا لا يقومون إلا بأعمال النقل والتموين و غيرها من الأعمال الشاقة مثل بناء الاستحكامات والحصون والتى كانت تحتاج إلى الخبرة فى العمارة والإنشاء، كما سلح بعضهم بالأسلحة القديمة استعداداً للضرورة القصوى. وكانوا لا يمنحون إلا إقطاعات صغيرة المساحة بالنسبة لإقطاعات الجند الاغريق. وظل حالهم كذلك حتى

معركـــة رفـــح عـــام ٢١٧ ق.م. عنـــدما اضـــطر بطلميوس الرابع إلى تسليحهم بالأسلحة المقدونية وتجنيـــد القـــادرين مـــنهم علـــى حمـــل الســـلاح، وإدماجهم فى قلب الجيش للقيام بعمليات الهجوم الرئيسية .

نذر المقاومة :

الثـورة الأولـى للمصـريين ضد البطالمة.

الواقع أن غضب المصريين قد بدأ يظهر منذ عهد فيلادلفـوس. وتحـدثنا وثـائق زينـو البرديـة عـن القلاقل الكبيرة التـى كانـت بين المزارعين، وما من شك فى أنها كانت تعبيراً عن ضيقهم بالمظـالم التى تعرضوا لها، وما من شك أيضـاً فـى أن مثل هذه القلاقـل كانـت تحـدث بـين الصـناع والتجـار لنفس السبب. وكانت هذه الحالـة مدعاة لإزعـاج الحكومة ففرضت أشد أنواع العقوبات وأقساها.



بطلميوس الثالث.

ولـم يكـن تبـرم المصـريين واسـتياؤهم راجعـاً إلـى عسف النظام الاقتصادى الذى وضـعه فيلادلفوس فحسـب، وإنمـا إلـى عـدة عوامـل أخـرى. ذلـك أن تطبيق هـذا النظـام وضـع فـى أيـدى الأجانـب من الاغريق والمقدونيين، يفرضـون علـى الـوطنيين بـــذل أقصـــى جهـــودهم لاســـتغلال المرافـــق الاقتصادية. وإذاً فلم يكن المصـريون يعملـون من أجل آلهتهم الوطنية وملوكهم الوطنيين، وإنمـا من أجل فـاتح أجنبى يحيط بـه الأجانب الذين تمتعوا بـــالثراء وتركـــوا أهـــل الـــبلاد يعـــانون الفاقـــة والبـؤس: إذا رغب أحدهم فـى اقتـراض شئ من المـال أو الغـلال، فإنمـا يقترضـه مـن أحـد هـؤلاء الأجانــــب ، وإذا أراد أن يســـتأجر قطعــــة مـــن الأرض، فهى عادة من أراضى الأجانب ...

وهكـذا تـوفر جـيش الثـورة مـن هـؤلاء الـزراع والصـناع والعمـال الحـانقين، وكـان الكهنـة ـ وهـم

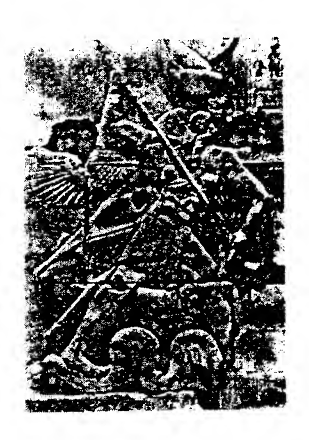
الذين حرمهم البطالمة مكانتهم الممتازة الرفيعة - متبرمين ساخطين، مستعدين لقيادة الثوار وتزعمهم. وأخذت الحال تزداد سوءاً على مر الأيام، فإذا بالأسباب التى نجم عنها الاضطراب تبدو فى صورة أكثر وضوحاً، وإذا بالقلاقل وحركات المقاومة تنمو وتشتد على عهد خلفاء فيلادلفوس.



بطلميوس الرابع

الثورة الأولى :

إن أول حركات التمردات الأولى التى شهدتها مصر البطلمية هى تلك التى يحدثنا عنها كل من جوستينوسو هيرونيموس المعروف باسم سان جيروم، وقد حدثت هذه التمردات على عهد بطلميوس الثالث "إيوارجتيس الأول". وإذا كان المؤرخ بوليبيوس يتجاهل هذه التمردات تجاهلا تاماً، ويعتبر تلك التى اشتعلت أيام بطلميوس الرابع "فيلوباتور" أولى التمردات المصرية، فإن ذلك لا يمكن أن ينفى وقوعها أو يقلل من أهميتها. ولقد شبت هذه التمردات فى مصر عندما كان "إيوارجتيس الأول" غائباً عنها فى حروبه السورية. ويحدثنا جوستينوس بأن ملك مصر كان على وشك أن يحتل كل مملكة السلوكيين، لولا أن استدعته هذه التمردات، فاضطر للعودة إلى مصر.



جدارية تمثل حورس يصارع ست فى هيئة الأفعى العملاقة التى تمثل الخراب والدمار.

تلك إذاً تمردات وطنية شعبية، أدت إلى اشتعالها تلك العوامل السالفة، وساعد على نشوبها غياب الملك وقواته العسكرية فى الأراضى السورية.

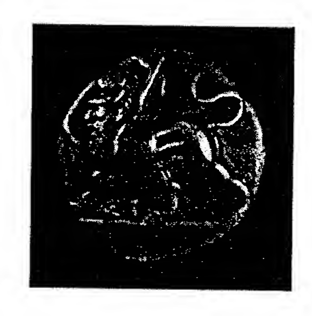
ولقد تعيننا وثيقة بردية ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثالث على تفهم طبيعة هذه التمردات، فهى تحدثنا عن مساوئ رجال الإدارة، كما تحدثنا عن تبرم المصريين وعزوفهم عن العمل، الأمر الذى يحمل على الظن بأن

*كان لاندماج المصريين فى الجيش البطلمى أثره فى انتصار بطلميوس الرابع

التمردات كانت ذات طابع قومى ، دفعت إليها عوامل اقتصادية و اجتماعية.

بطلميوس الرابع والحرب السورية الرابعة :

وانتهى عهد يوارجتيس الأول وتربع على العرش ابنه الصغير بطلميوس الرابع "فيلوباتور".
وقد اضطر هذا الملك فى بداية عهده إلى خوض غمار المشكلة السورية، فاشتبك مع الملك "أنتيوخوس الثالث" فى الحرب السورية الرابعة.
وقد اضطر فيلوباتور هو ووزيره سوسيبيوس ، إلى إدخال بعض التعديلات على النظم المالية والإدارية لمواجهة نفقات هذه الحرب، فزيدت بعض الضرائب وفرضت ضرائب جديدة أخرى، وارتفعت إيجارات بعض الأراضى. ويبدو أن نقص موارد الحكومة نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، قد دفعها إلى التشدد فى جمع الإيجارات وجباية الضرائب، وإلى الإكثار من الأعباء والالتزامات غير العادية، الأمر الذى تمخض عن مصادرة كثير من أملاك صغار الفلاحين المصريين.
ولاحت بوادر الهزيمة التى تنتظر قوات بطلميوس الرابع عندما تمكن أنتيوخوس من الاستيلاء على سليوكيا على نهر العاصى عام ٢١٩ ق.م. وعندما خان ثيودوتوس مولاه البطلمى فانضم إلى عدوه السلوكى، وسلمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية. ولم تكن قوات بطلميوس الرابع فى مصر ذات قيمة، فطلب وزيره سوسيبيوس الهدنة، ومن ثم حدث تطور خطير فى نظام الجيش البطلمى: ذلك أن المصريين* أدمجوا فى صلب الجيش، وسلحوا

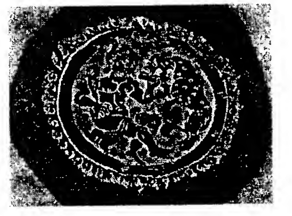

عملة إغريقية


سقراط

بالأسلحة المقدونية التى اتقنوها بمهارة ساعدتهم على انتزاع نصراً مؤزرا فى رفح عام ٢١٧ ق.م.

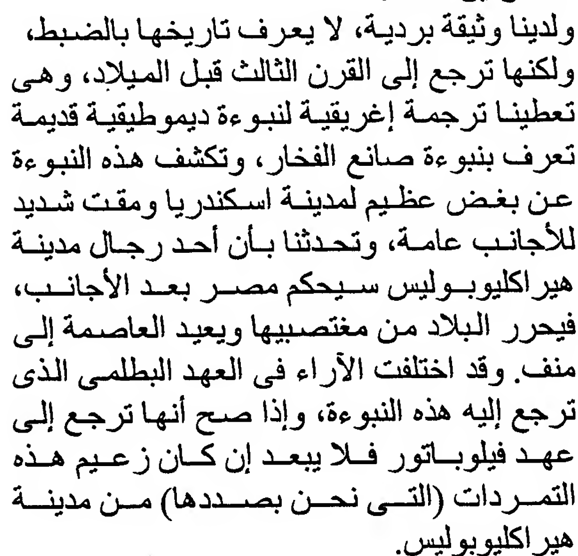
الثورة الثانية :

يحدثنا بوليبيوس بأن نصر المصريين فى رفح قد ملأهم زهواً وفخارا، فأصبحوا لا يطيقون الخضوع لسادتهم، خاصة و أنهم اتقنوا حمل السلاح، وبدأوا يبحثون عن زعيم يقودهم، وسرعان ماعثروا على ضالتهم.



الثورة الثانية ضد البطالمة.

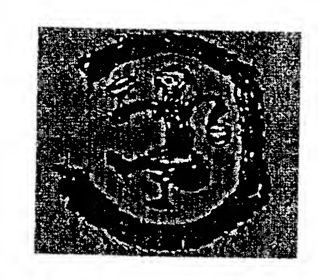
ويحسن لكى نقف على الأسباب الحقيقية لهذه التمردات أن ندرس أحداثها أولا : لقد شبت نيران هذه التمردات فى الدلتا ومصر الوسطى أولا ، كما يرجح، ثم امتد لهيبها إلى مصر العليا عام ٢٠٧ــ٢٠٦ ق.م. الأمر الذى أدى إلى توقف أعمال البناء فى معبد إدفو العظيم لاحتماء المتمردين داخله.



ولدينا وثيقة بردية، لا يعرف تاريخها بالضبط، ولكنها ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهى تعطينا ترجمة إغريقية لنبوءة ديموطيقية قديمة تعرف بنبوءة صانع الفخار، وتكشف هذه النبوءة عن بغض عظيم لمدينة اسكندريا ومقت شديد للأجانب عامة، وتحدثنا بأن أحد رجال مدينة هيراكليوبوليس سيحكم مصر بعد الأجانب، فيحرر البلاد من مغتصبيها ويعيد العاصمة إلى منف. وقد اختلفت الأراء فى العهد البطلمى الذى ترجع إليه هذه النبوءة، وإذا صح أنها ترجع إلى عهد فيلوباتور فلا يبعد إن كان زعيم هذه التمردات (التى نحن بصددها) من مدينة هيراكليوبوليس.

تركزت التمردات فى منطقة طيبة التى عثر فيها على وثائق ديموطيقية مؤرخة باسم ملك يدعى

"أرمـــاخيس"، وأخـــرى باســـم ملـــك يـــدعى "أنخماخيس".
فهل استقلت طيبـة تمامـاً عـن السيادة البطلميـة؟ ومتى تربع هذان الملكان على عرشها؟.



يرى بعض المؤرخين أن اعتبار إقليم طيبـة اقليمـا منفصلا مستقلا عن الحكم البطلمى آنذاك ينطوى على كثير من المبالغة والإسراف. ولكن الوثـائق المؤرخـة بسـنى حكـم الملكـين سـالفى الـذكر تـدل علـى أنهمـا حكمـا منطقـة طيبـة بـين عـامى ٢٠٦،١٨٦ ق.م. هذا إلى أننا لا نعثر فـى الوثـائق على مـا يثبـت أن الحكومـة البطلميـة كانـت تجبـى الضرائب من منطقة طيبة بعد العام السادس عشر من عهد فيلوباتور (عام ٢٠٦ ق.م)، فلماذا نستبعد بعـد ذلـك انفصــال هـذا الاقلـيم واسـتقلاله عـن البطالمة؟.

تلك أهم أحداث التمـردات المصـرية التـى شـبت علـى عهـد فيلوبـاتور كمـا ترويهـا الوثـائق المعاصـرة، فمـا هـى الـدوافع التـى أدت إلـى اشـتعالها؟. ونحـن نـرى أن دوافـع هـذه الثـورات كانـت قوميـة اقتصـادية اجتماعيـة فـى آن واحـد: أحـس المصـريون بقـوميتهم، وبعـث النصـر فـى قلوبهم موات الأمل، وضاقوا فى نفس الوقت بما كانوا يرزحون تحته من أعباء اقتصـادية فادحـة، وبرمـوا بسـيادة الاغريـق والمقـدونيين علـيهم، فتمـردوا فـى وجـه غاصـبيهم، و لـيس فـى عدم اشـتراك بعـض المصـريين فـى هـذه التمـردات، واعتـداء المتمـردون علـى بنـى وطـنهم، وعلـى المعابـد الوطنيـة، مـا يبـرر وجهـة نظـر "بريـو"، فلعل هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه التمردات فلاقوا

جزاءهم الحق على أيدى المتحمسين من أبناء وطنهم.

ويضيف **Bevan** سبباً مقبولا إلى الأسباب التى يحتمل أنها دفعت المصريين إلى التمرد . ذلك هو بقاء التقاليد الفرعونية القديمة فى وادى النيل جنوبى مصر، حيث لم يمتد سلطان البطالمة، وكان المصريون يرون تقاليدهم هذه سائدة فيما وراء حدودهم الجنوبية، خاصة فى بلاد النوبة، فتشتعل نيران الوطنية فى صدورهم ويدفعهم ذلك إلى البذل أملا فى استرجاع ماضيهم المجيد وحريتهم المسلوبة. اما نتائج هذه التمردات فلا شك فى خطورتها: فلقد تطلب القضاء عليها مجهوداً عسكرياً عظيماً، ولا ريب فى أن هذا المجهود كان بعيد الأثر فى سياسة البطالمة الخارجية، إذ شغلهم عن متابعة برنامجهم فى عالم البحر المتوسط الدولى.

بطلميوس الخامس ومساوئ الوصاية :



بطلميوس الخامس.

توفى بطلميوس الرابع تاركاً على العرش ابنه بطلميوس الخامس " ابيفانس " وكان طفلا صغير السن، فتولى الوصاية عليه أجاثوكليس، فازداد الحال سوءاً، وظل أوار التمردات والقلاقل مشتعلاً فى جميع أنحاء البلاد، ففى اسكندريا قتل أجاثوكليس وأتباعه، وأما فى مصر السفلى فقد ضاق الناس ذرعاً بألوان العسف والاضطهاد التى تعرضوا لها حتى لقد أخذوا يقومون بهجماتهم على كل ما يمثل الثروة والقوة، وأما فى مصر العليا قد كان انخماخيس لا يزال مسيطراً على طيبة، يعضده كهنة الإله آمون ضد الملك البطلمى.

وانتهز انتيوخوس الثالث هذه الفرصة فأنزل بالقوات البطلمية هزيمة "بانيون" الساحقة التى

أفقدت البطالمة أملاكهم فى سوريا وآسيا الصغرى وتراقيا، وأضاعت من أيديهم تجارة القوافل السورية، وأسواقهم فى بحر إيجة، ومن ثم نقصت موارد البطالمة من التجارة الدولية ومن أملاكها الخارجية نقصاً عظيماً.

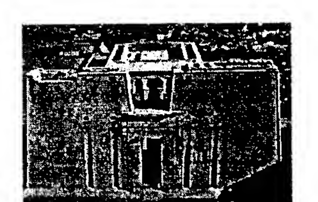
ويبدو أنّ خطورة حال البلاد آنذاك قد اقتضت إصدار قرار عفو من جانب الملك لسائر سكان البلاد أملا فى وضع حد للاضطرابات، فعفا عن كل المتمردين بوجه عام، وعن الجنود المصريين بوجه خاص، وأعطى المعابد والسكان عامة عدداً من المنح والهبات، فألغى بعض الضرائب إلغاءً كاملا، وخفف البعض الآخر، وتنازلت الدولة عما لها من ديون متأخرة قبل الأهالى، وفكت أسر المسجونين، وسمح الملك لمن خرج عن طاعته أثناء الاضطرابات بالعودة إلى ممتلكاته، أما المعابد ورجال الدين فقد غمرهم بفيض من عطفه وكرمه.

الثورة الثالثة :

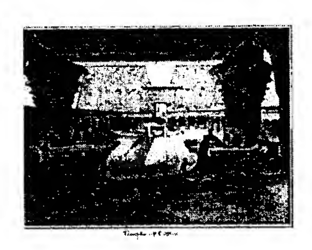
الثورة الثالثة فى عهد بطلميوس الخامس.

غير أن هذه المحاولة الملكية لم تجد فتيلا: ويعتقد بعض المؤرخين أن القوات الحكومية قد حاصرت أبيدوس - التى احتدمت بها التمردات - فى العام السادس من حكم إبيفانس، وذلك استناداً على عبارة خطها أحد الجنود على حائط معبد "مفنون" جاء فيها: (أنا فيلوكليس بن هيروكليس، من ترويزين، أتيت لأتعبد للإله سرابيس أثناء حصار أبيدوس فى العام السادس، اليوم الثامن والعشرين من شهر بئونه). هذا وقد عثر فى نفس المعبد على اسم ملك نوبى جديد يدعى "هيرجونافور Hyrgonaphor" كان يحكم أبيدوس، وقد هزم الجيش البطلمى الذى بعث إليه لإخضاعه. ونحن لا نعرف على وجه التحديد

ما إذا كان هذا الملك قد خلف زميليه النوبيين، وأنه قد حكم طيبة على عهد إبيفانس أم لا .
وعلى أية حال فنحن نخرج من ذلك كله بأن التمردات كانت مشتعلة فى مصر العليا فى أوائل عهد إبيفانس. أما فى مصر السفلى فإننا نجد الأدلة على احتدام التمردات هناك فى مصدرين: أولهما ما ذكره بوليبيوس، عن حصار مدينة ليكوبوليس فى العام الثامن من عهد إبيفانس، وثنيهما ما جاء فى حجر رشيد، عن حصار هذه المدينة نفسها. وقد تضمنت هذه الوثيقة وصفاً للحصار وتسليم المتمردين، ومما يلاحظ أن الوثيقة قد وصفت المتمردين بأنهم كفار خارجون على الدين، فالكهنة كانوا موالين للملك.
ولم يكن للعقاب الصارم الذى أنزله إبيفانس بالثوار، ولا للمنح والهبات التى جاد بها على المصريين بعد الثورة، أثر فى إخماد جذوتها، فقد استمرت الثورة فى مصر العليا - على الأقل - حتى العام التاسع عشر من عهد هذا الملك (١٨٦ ق.م.) أى بعد صدور القرار الكهنوتى المسجل على حجر رشيد بعشرة أعوام كاملة. ونحن نستدل على ذلك من قرار عفو ديموطيقى عثر عليه منقوشاً على نصب تذكارى فى فيله. ويحدثنا هذا القرار بأن أحد قواد الملك إبيفانس قد استطاع فى السنة التاسعة عشرة من حكمه أن يقبض على انخماخيس - ذلك الملك الشرير الذى أوقف دفع الضرائب فى منطقة طيبة - وأن يأسر قواته النوبية، وذلك فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس عام ١٨٦ ق.م. وفى نقوش معبد ادفو ما يشهد أيضاً بهذا النصر البطلمى، فقد جاء فيها أن أعمال التشييد بهذا المعبد استؤنفت من جديد بعد أن تعطلت ما يقرب من عشرين عاماً. واعتبر



معبد ادفو



معبد ادفو رسم لروبرتوس



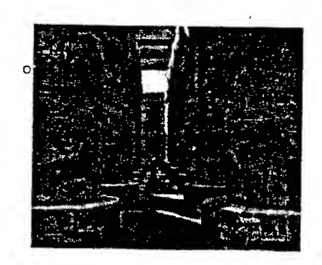
حجر رشيد



إبيفانس نصره على انخماخيس نصراً على جنوب مصر والنوبة كلها، فأزال من آثار فيله أسماء الملوك النوبيين جميعاً. غير أن ذلك لم يقض على الثورة فى الجنوب حيث ظلت مشتعلة النيران حتى عام ١٨٤-١٨٣ ق.م. وفى ذلك العام أمكن إخماد الحركات الثورية فى مصر السفلى على يد بوليكراتيس الذى استولى على سايس وأخضع زعماء الثورة هناك. وما كاد هؤلاء الزعماء يقعون فى يد الملك حتى نكل بهم أبشع تنكيل فشدهم إلى عجلته الحربية وانطلق يعدو بها، ثم أعدمهم جميعاً.



معبد فيله



أعمدة فيله

وحاول الملك بعد ذلك أن ينزل السكينة فى قلوب المصريين، فأخذ يصدر أوامره إلى رجاله وموظفيه يذكرهم بوجوب التزام جانب العدالة مع الوطنين ويأمر بأحضار جميع الموظفين المتهمين بالعسف أمامه مباشرة.

مهما يكن من أمر ، فقد هدأت الأحوال نسبياً فى أواخر عهد بطلميوس الخامس، فترك البلاد أكثر استقراراً عما كانت عليه عند اعتلائه العرش.

غير أن عوامل الثورة كانت باقية على حالها، ولم يتم تفاديها إذ لم يقم الملوك من جانبهم بأية محاولة جدية للقضاء عليها. بل زاد سوء الأحوال النزاع على السلط داخل البيت البطلمى ومحاولة تفادى ذلك بالحكم المشترك بين المتنازعين الذى سمح بتدخلات الرومان وبفرض وصايتهم فى النهاية على مصر.

الثورة الرابعة / ديونيسيوس ببتوسرابيس :

الثورة الرابعة بقيادة ديونيسيوس بيتوسارابيس.

وبدأت فى مصر فترة الحكم المشترك ، وهو حكم لم يكن يبشر بالاستقرار ، وكان فرصة ذهبية رأى المصريون أن ينتهزوها للتخلص من الحكم

البطلمى كلية، لشدة ما أنزله بهتم من صنوف العسف والإرهاق، ولهذا سرعان ما لبوا نداء الثورة الذى هتف به رجل منهم كان يحتل فى نفوسهم منزلة رفيعة، ويشغل فى القصر الملكى منصباً ممتازاً، ذلك هو ديونيسيوس بيتوسرابيس "Dionisius Petosarapis".



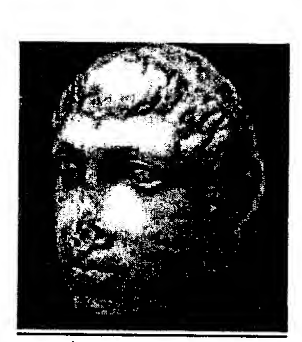
من أقنعة الفيوم

والواقع أن الظروف قد عاونت هذا الزعيم الوطنى على القيام بحركته الثورية معاونة طيبة، فإن الثورة القومية التى اندلع لهيبها على عهد إبيفانس واضطراب شئون البلاد أثناء اضطلاع إيولاوس ولينـاوس بالوصاية، وما ترتب على غزوتى أنتيوخوس الرابع من تخريب وتدمير، هذا كله مجتمعاً أنزل بالأراضى الزراعية أبلغ الأضرار، وزاد من فقر وحرمان شعب كان يرهقه نظام مالى غاشم، فاستفحل عداء المصريين للبطالمة، واستعدوا لتجديد ثوراتهم.

ولما كان ديونيسيوس من رجال القصر الملكى الذين أظهروا كفاءة نادرة فى الحرب السورية السادسة، وكان القصر الملكى يعج آنذاك بأنواع الدسائس والوشايات بين أفراد حاشيتى الملكين، فليس لنا أن نعجب إذاً من أن الحركة الثورية قد بدأت فى إسكندريا، عاصمة البلاد، التى اكتوت بنار الحصار من قوات أنتيوخوس فترة طويلة، والتى تكشف فيها ضعف السلطة المركزية بأجلى مظاهره.

تجمهر الناس فى ميدان السباق العام بالمدينة، وقرروا وهم فى أشد حالات الغضب والسخط أن يقتلوا فيلوميتور لينفرد الصغير بالحكم، وكان طبيعياً أن تترامى أنباء هذه الفتنة إلى القصر الملكى، فاستدعى فيلوميتور أخوه الأصغر

بطلميــوس، وأفهمــه أن ديونيســيوس المصــرى الوطنى إنما يبغى التخلص منهما معاً ليصل هو إلى العرش، وكانتِ هذه النغمة كفيلة بتهدئة روع بطلميوس، فاستمع إلى النصيحة وخرجا معاً إلى شـرفة القصــر الملكــى، وأطـلا علــى الجمـاهير المحتشدة تعلوهما شارات الملك ليثبتا للناس أنهما على أتم وفـاق. وهكذا انهارت آمال ديونيسيوس وفـر إلـى إليوسـس (ضـاحية بإسكندريا) ومضـى فيلوميتــور فــى أثــر الثــوار وأوقــع بــالزعيم ديونيسيوس هزيمة منكرة، أكرهتـه علـى الفرار، وانتهت بقتل عدد كبير من الثوار.



بطلميوس السابع

التمردات فى الصعيد

وينتهى المؤرخ ديودوروس من حديثه عن هذه الثـورة بـأن ديونيسيوس قد فـر إلـى مصـر العليـا حيث استطاع أن يستغل مركزه بين الـوطنيين لإشعال نار ثـورة أخرى. علـى أننـا لم نعد نسمع عنـه بعـد ذلـك، ولا نعـرف كيـف انتهـت حياتـه. وكانـت ثـورة الصـعيد جامحــة عنيفـة، فاضـطر فيلوميتـور إلــى الزحـف بقـوات كبيـرة للقضــاء عليها. ويحدثنا ديودوروس عن المجهودات التـى بذلها الملك للقضـاء علـى الثورة والثـائرين قـائلا: (حمل الملك فيلوميتور على الثائرين بقوات كبيرة واستطاع أن يبسط سلطانه فى منطقة طيبة، ولكن مدينــة بـانوبوليس "اخمـيم"* وقفـت فــى سـبيله بفضـل اتخـذها الثـوار معقلا لهـم تحصـنوا فيهـا، غيــر أن فيلوميتــور حاصــرها حصــاراً محكمــا طويلا، واستطاع آخر الأمر أن يسقطها بعد كثير من المشاق، ثم عاد بعد ذلك إلى إسكندريا).

ولقد كانـت هـذه الثـورة ذيـلا لحركـة ديونيسيوس، ولعلها ـ كما يرجح جوجيه، وجرنفل وهنت ـ هى

* "بـانوبوليس" أو أخميم كمــا تنطــق الأن مدينــة بصعيد مصر علـى الشاطئ الشــرقي للنيــل، تجــاه ســوهاج وهــى مركــز بمحافظــة جرجــا. اســمها منحوت من اللفظين: (خم

المقصودة بالاشارة التى وردت فى إحدى الوثائق البردية عن حدوث حرب فى البلاد. ويختلف المؤرخون اختلافا ظاهراً فى تأريخ هذه الثورة، فيرى "ماهافى"، و"لكلرك" أنها وقعت فى عام ١٦٧ـ ١٦٦ ق.م. بينما يرى "روستفتزف" و"أوتو" كما ترى "بربو" أنها وقعت فى عام ١٦٥ـ ١٦٤ ق.م. ونحن، أمام ما نعرفه من أن الأخ الأكبر قد شعر عقب عودته منتصراً من الصعيد باستحالة بقائه فى اسكندريا مشتركا مع أخيه الأصغر فى حكم البلاد فغادرها إلى روما فى النصف الثانى من عام ١٦٤ ق.م. نرجح صحة التاريخ الأخير.

وكان فيلوميتور يتوقع أن تستقبله اسكندريا هاتفة باسمه بعد أن سحق الثورة فى الصعيد وأن يبسط له أخوه الأصغر ذراعيه وقد أنقذ العرش من تدبير وطنى محكم كاد يودى بحكم الأسرة كلها. ولكن بطلميوس الصغير كان تواقا للانفراد بالحكم فاستغل حب الاسكندريين له وهيأهم للثورة ضد أخيه الأكبر عند عودته. فالتجأ فيلوميتور إلى روما يشكو لشيوخها وشعبها أخاه الأصغر. ولما كانت آخر وثيقة بردية وصلت إلينا من فترة الحكم المشترك مؤرخة فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٦٤ ق.م. فلابد إذاً من أن خروج فيلوميتور من مصر قد حدث فى أواخر هذا العام.

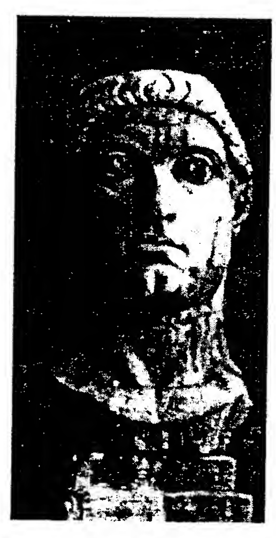
أما الآثار التى تمخضت عنها هذه التمردات فكانت عنيفة جد خطيرة: اشترك فيها عدد كبير جداً من الأهالى، مات بعضهم فى المعارك وأعدم بعضهم عقب إخمادها، واختفى البعض الآخر فى الأحراش حيث عاشوا عيشة اللصوص وقطاع

- مين) (معبد مين)، وأسماها الإغريق بانوبوليس. كانت عاصمة للإقليم التاسع من أقاليم الصعيد. لم يبق من معبدها - الذي يعد من أكبر معابد مصر - غير أطلال بالية. اشتهرت في العصر المسيحي بأديرتها الكثيرة. وفي جبانتها الجبل الشرقي مدافن من مختلف العصور. من أيام الأسرة السادسة، وأيام الدولة الوسطى، وموقعها جميعاً بمكان في الجبل يدعى الحواويس. وفي المكان المعروف باسم جبل السلاموني معبد من عهد الملك (آي). وفي سفح الجبل الشرقي قبور منحوتة في الصخر من العصرين البطلمي والروماني. وقد عثر في المدافن المسيحية على الكثير من الآثار، وبخاصة أكفان الموتى. كانت في فترة الغزو العربي عاصمة كورة منفصلة، وكانت من عهد الفاطميين إلى زمن المماليك عاصمة إقليم الإخميمية. وتشتهر الآن بمزارع القصب، وبنوع خاص بصناعة المنسوجات الصوفية. ينسب إليها ذو النون المصري المتصوف.

الطرق خاصة فى برارى الدلتا. وترتب على ذلك - كما حدث فى التمردات السابقة - أن تركت الأرض الزراعية مهجورة لاتجد من يفلحها وقلت الأيدى العاملة، ونفق كثير من المواشى، فلا عجب إذاً أن تهددت البلاد فى السنة الثالثة للثورة مجاعة هائلة، وأن وصفت وثيقة بردية من عام ١٦٤ ق.م. أى آخر أعوام الحكم المشترك، هذه التمردات بأنها كانت طامة كبرى.



ونعود إلى موقف روما من شكوى فيلوميتور فنقول إنها نصحت له بالذهاب إلى قبرص ريثما تتصرف من جانبها فى المشكلة، ولكن عسف بطلميوس الصغير فى اسكندريا وهو منفرد بالحكم، بغضه إلى قلوب محبيه، فأرسل السكندريون إلى فيلوميتور يستدعونه من قبرص. وفى عام ١٦٣ ق.م. تم الاتفاق بين الأخوين - على يد روما- على أن يستقل بطلميوس الصغير ببرقة، وتبقى مصر وقبرص لفيلوميتور.



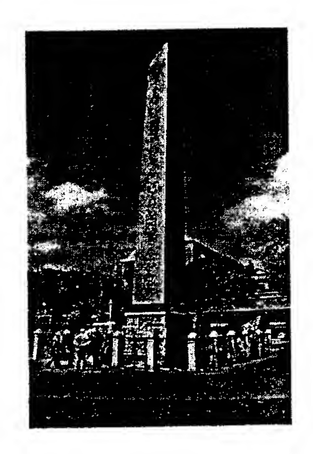
قسطنطين الأول

وأراد فيلوميتور أن يعيد السلام والهدوء إلى البلاد، فأصدر فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مسرى خلال السنة الثامنة عشرة من حكمه، قراراً نص فيه على العفو عن كل التمردات التى حدثت منذ ارتقائه العرش تحت وصاية أمه، إلى السابع عشر من أغسطس عام ١٦٣ ق.م. غير أن ذلك الإجراء لم يؤد إلى الغرض المنشود منه، فاستمرت التمردات فى الأنحاء المجاورة لمعبد سرابيوم منف فى عام ١٥٧ ق.م. وعام ١٥٢ ق.م. كما حوكم كثير من الفلاحين حوالى عام ١٥٧ ق.م. بجرائم مختلفة.

بطلميوس ايوارجتيس الثانى

تـوفى فيلوميتـور فجـأة خـلال الحـرب السـورية السـابعة، فعـاد أخـوه الأصـغر للعـرش باسـم بطلميـوس ايـوارجتيس الثـانى، واسـتهل حكمـه بسلسلة من الجرائم المنكرة محـاولا تطهير الجو من أعدائه وإبعاد كل خطر قد يطيح بـه من فوق ذلك العرش الذى تربع عليه من قبل ثم حرم منه فتـرة غيـر قصيرة، وجاهد من أجلـه جهاداً شـاقاً عنيفـاً. ولـيس مـن العجيـب بعـد ذلـك، أن نـرى كراهيـة يـوارجتيس الثـانى تتأصـل فـى نفـوس الشعب، وأن نرى السكندريين يطلقون عليـه لقب "الطـالح" بـدلا مـن اللقـب الإلهـى الـذى أراده هـو لنفسه ، وهو "الصالح".

وحاول بطلميوس يوارجتيس بعد كل هذه الفظـائع أن يهدئ خـواطر الشـعب، فـاتبع سنة أسلافه بأن أصدر قرار عفـو عن الثـوار (١٤٤ ق.م.) وكـان متوقعاً بعـد ذلك أن يسـود السـلام فـى الـبلاد، وأن يزدهر عهد يوارجتيس الثانى، فقد صفا الجو بينـه وبين أختـه كليـوبترة الثانيـة، كمـا استمال رعيتـه بقرار العفـو سـالف الـذكر، ولكـن لـم يكـد ينصـرم عـام وبعض عـام حتـى اقتـرف يـوارجتيس الثـانى عمـلا مـن أعمالـه الغريبـة، فعـاود الجـو اكفـراره واضـطرب حبـل الأمـور مـن جديـد، وبـدت نـذر الثـورة فـى الـبلاد: ذلك أنـه تـزوج مـن كليـوبترة الثالثـة (ابنـة زوجتـه)، وذلـك بعـد اعتدائـه علـى عفافها.



مسلة مصرية في بيزنطة

وبات متوقعاً أن ينفجر مرجل الثورة فى اسكندريا الغاضبة، وأحس يـوارجتيس الثـانى بـالخطر يـدنو منه ويكاد يعصف بعرشه، فحـاول أن يتقرب إلـى الشـعب بشـتى الطـرق، فـإذا بـه يخفـف مـن عبء

الضرائب التى أثقلت كاهل الرعية، ويبدى حماساً فياضاً فى إصلاح المعابد وتشييدها، ويغدق على رجال الدين كثيراً من الامتيازات التى أعادت إليهم بعض نفوذهم القديم. على أن هذه الأعمال لم تؤت أكلها إلا خارج العاصمة حيث كان الناس يعيشون بعيدين عن الملك لم يمسهم من شروره إلا القليل، أما فى اسكندريا، حيث تجرى الأمور تحت أبصار أهلها وسمعهم، فإن الحال مضت من سئ إلى أسوأ، إذ أسرف الملك فى عسفه واشتط فى معاملة المناوئين له، وكانت هناك فئات من الناس تعمل على إبعاده والخلاص منه، وعلى رأس هؤلاء أخته كليوبترة الثانية*.

الثورة الخامسة والنزاع الأسرى

وأخيراً التهبت نيران الثورة، وعمل الملك على أن يقضى على حركة الثوار فى مهدها، فأوعز بقتل عدد كبير من الشبان كانوا مجتمعين فى جمنازيوم إسكندريا، واختار لذلك وسيلة تدل على الاسراف فى الوحشية، إذ أمر بمحاصرتهم داخل الجمنازيوم واضرام النار فيهم، وعندما أفلح عدد منهم فى الفرار، قبض عليهم و أعدمهم. ويقول شتراك إننا لا نعرف تاريخ هذا الحادث على وجه الدقة، ولكن أغلب المؤرخين يرجحون وقوعه حوالى عام ١٣٢ـ ١٣١ ق.م. ويتفق هذا الرأى مع ما ذكره المؤرخ الرومانى جوستينوس من أن هذه الحوادث وقعت بعد أن زارت مصر السفارة الرومانية التى كان يرأسها "سكيبوأيميليانوس". ولا يتنافى ذلك مع ماذكره المؤرخ اليونانى ديودورس من أن يوارجتيس الثانى قد استطاع - برغم قسوته - أن

* حول اسم كليوباترا:

عندما نشبت الحرب بين انطيوخوس ملك سوريا وبطلميوس ابيفانوس الخامس ملك مصر عرض على بطلميوس الخامس أن يزوجه ابنته كليوبترا، فأصبحت كليوبترا ابنه انطيوخوس الثالث زوجة لملك مصر بطلميوس الخامس وكان ذلك عام ١٩٣ ق.م، ومات الملك فى عام ١٨١ق.م، وهو فى التاسعة والعشرين من العمر. فحكمت الملكة «كليوبترا» الأولى باسم ولدها القاصر بطلميوس السادس، وقادت حرباً ضد أبيها الذى سولت له نفسه بأن يهاجم مصر.
وماتت هذه الملكة فى عام ١٧٤ ق.م، تاركة الملك لابنها الشاب بطلميوس السادس.
وكانت لها ابنة اسمها كليوبترا أيضا، التى سميت كليوبترا الثانية. وتولت الحكم بعد وفاة زوجها..

يحكم البلاد خمسة عشر عاماً قبل أن يبدأ النزاع بينه و بين أخته. و يحسب ديودورس هذه الأعوام ابتداء من سنة ١٤٥ ق.م. التى اعتلى فيها يوراجتيس الثانى عرش مصر عقب وفاة فيلوميتور، و معنى هذا أن الحادث الذى أعتبر بمثابة بداية للثورة يرجع إلى عام ١٣١ ق.م. وهو رأى نميل إلى قبوله. وكانت نتيجة هذا الجرم الشنيع أن تجمع السكندريون حول قصر الملك يحاولون إحراقه هو و زوجته الصغيرة كليو بترا الثالثة. ولكن يوراجتيس الثانى فرّ هارباً إلى قبرص مصطحباً هذه الزوجة و ابنه (ممفيتس) الذى أنجبه من زوجته الأولى كليوبترا الثانية، وذلك لكى يحول دون استفادة أمه منه فى هذه الظروف. واعتلت كليوبترا الثانية عرش مصر منفردة، واتخذت لنفسها لقب "المحبة لأمها المنقذة ".

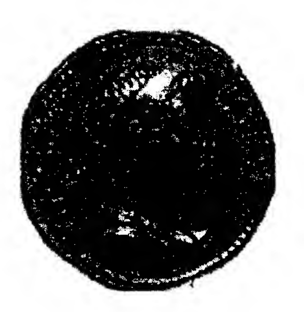
ومن قبرص بدأ يوراجتيس الثانى صراعه العنيف ضد زوجته كليوبترا الثانية، ويرى روستفتزف أن البلاد قد انقسمت قسمين آنذاك: قسم يؤيد كليوبترا الثانية ويتألف من أهل اسكندريا خاصة الأغريق وكذلك اليهود وجانب من الجيش، وقسم يؤيد يوراجتيس الثانى و يتألف من باقى الجيش و كثير من المصريين بزعامة الكهنة، ونشبت فى البلاد حرب أهلية بين الفريقين، كانت عبارة عن مزيج من الصراع الأسرى والثورة القومية، تقطعت فيها أوصال البلاد.

وتعترضنا هنا مسألة على جانب كبير من الأهمية: فكيف انحاز المصريون بزعامة الكهنة إلى الفريق الذى كان يناصر إيوارجيتيس الثانى كما يقول روستفتزف؟ وكيف توصف حال البلاد

وبعد وفاتها حملت ابنتها اسم كليوبترا الثالثة، ثم ابنتها كليوبترا الرابعة واختها الخامسة التى قتلت فى إحدى القلاع بيد جنود الرومان،



برينيس الأولى



برينيس السادسة

أما السادسة فهى التى عرفت فى التاريخ باسم «برينيس الرابعة» وقد تزوجت ابن عمها بطلميوس الثانى عشر الذى قتلها.
وأما السابعة فهى ابنة

بطلميوس الثالث عشر وزوجة بطلميوس الرابع عشر الذي خلفته بعد أن خلعه الشعب فانتقم منها وقتلها.
وأشهر كليوبترا هي «الأخيرة». فلقد أنجب بطلميوس الثالث عشر ولدين وأربع بنات وأصغر البنات هي التي فاقت شهرتها شهرة البطالسة أجمعين رجالاً ونساءً وهي التي تتجه إليها الأذهان عندما يذكر اسمها.

الملكة كليوباترا في نقشها الفرعوني.

ـ برغم ذلك ـ بأنها كانت مزيجاً من الحرب الأهلية والثورة القومية، كما يقول روستفتزف أيضاً؟. إننا نرى فى ذلك شيئاً من التناقض، لأن قيام المصريين بثورة قومية لا يمكن أن يتفق بحال مع انحيازهم إلى معسكر الملك إيوارجيتيس الثانى. وواقع الأمر كما يقول د. نصحى، أن كليوبترة الثانية كان لها حزب يضم الناقمين على إيوارجتيس الثانى ويشمل الجانب الأكبر من إغريق مصر والمتأغرقين وسائر خصوم كهنة آمون، ولذلك أصبح الموقف الطبيعى لغالبية المصريين القوميين هو مناهضة هذا الحزب، فبدوا كأنهم يناصرون الملك الهارب، والحق أنهم كانوا يناهضون الحكم البطلمى عامة.وإذا كانت الثورة فى مصر السفلى والوسطى قد اتخذت صوراً من التوقف عن العمل والاعتصام فى المعابد وهجرة المزارع والمصانع، فإنها كانت قتالا سافراً بين مدن مصر العليا وقراها المنتمية إلى المعسكرين المتخاصمين حيث تجلت روح المقاومة العنيفة ضد الملكية المركزية. وتدلنا الوثائق على أن الكتاب فى "ديوسبوليس" و"باثيريس" كانوا يؤرخون وثائقهم بالنسبة إلى حكم إيوارجتيس الثانى، بينما تجد العكس فى مدينة "هرمونثيس".

وكانت نتيجة ذلك أن أرسلت حملة عسكرية من "ديوسبوليس" ـ طيبة ـ إلى هرمونثيس لإخضاعها وإدخالها فى طاعة الملك. وكان غياب الحامية الملكية عن طيبة سبباً فى إشعال نيران الثورة بها. وإن ذلك ليدل على صحة ما نذهب إليه من أن عامة المصريين لم يكونوا مخلصين فى انضمامهم إلى معسكر إيوارجتيس الثانى كما

يدعى روستفتزف، وإلا لبقيت طيبة على ولائها لذلك، ولما حملت ضده لواء الثورة بمجرد أن غادرتها الحامية العسكرية الملكية.

وظل إيوارجتيس الثانى مقيما فى قبرص طيلة عامين، ثم استطاع أن يعود إلى مصر فى ربيع عام ١٢٩ ق.م. ويحدثنا ديودوروس، بأن ذلك قد حدث على أثر النصر العسكرى الذى فاز به "هيجولوخوس" قائد إيوارجتيس الثانى على "مارسياس" قائد كليوبترا الثانية. ولم يؤد انتصار بطلميوس على أخته إلى إحلال الهدوء فى البلاد. واضطرت كليوبترا - برغم الميول الطيبة التى أبداها أخوها - إلى مغادرة مصر والإلتجاء إلى زوج ابنتها ديمتريوس الثانى ملك سوريا. قد أعد هذا جيشاً ومضى به نحو مصر ليعيد والدة زوجته إلى عرشها فى اسكندريا، ولكنه هزم هزيمة منكرة. عند ذلك يئست كليوبترا الثانية من الاستمرار فى النضال وبدأت تفكر فى الصلح مع أخيها الذى كان على استعداد - من ناحيته - لقبول هذا الصلح بعد ما تبينت له مكانة أخته فى كثير من أنحاء البلاد. وهكذا عادت كليوبترا الثانية إلى مصر شريكة لأخيها وابنتها فى الحكم، وكان ذلك عام ١٢٤ ق.م.



كليوباترا آخر ملكات مصر.

ولقد كان منتظراً - ولو صح رأى روستفتزف المشار إليه - أن تهدأ البلاد بعد مصالحة يوارجتيس الثانى لأخته كليوبترا الثانية، ولكن المصريين كانوا ساخطين ناقمين، لا من أجل الملك بطلميوس، وإنما من أجل قوميتهم التى سعى البطالمة للقضاء عليها، ولهذا ظلت ثورتهم مشتعلة عنيفة ولا سيما فى الجنوب، وزادت من

حدتها تلك الفوضى التى شاعت فى شئون البلاد بسبب حالة الذعر التى تمخض عنها العداء المسلح بين حزبى الملك والملكة.



وإن الوثائق البردية - برغم ندرتها - لتنهض دليلا ناطقاً على الثورات فى مصر العليا عقب صلح عام ١٢٤ ق.م.، ففى سنة ١٢٣ ق.م. نجد وثيقة بردية لا تحمل اسم كليوبترا الثانية فى ديباجتها، كما نجد مدينة "هرمونثيس" تشن حربا منظمة ضد جارتها "كروكوديلبوليس"، وجدير بالذكر أن جند المدنية المعتدية كانوا (λαοί) أو من يسمون أحياناً (πληθη)، وهو الاسم الذى كان يطلق على طبقة العامة من المصريين الوطنيين. وفى عام ١٢٢-١٢١ ق.م. عمت الفوضى أنحاء مدينة طيبة. ولدينا وثيقة تحدثنا عن هجوم قام به سكان هذه المدينة على إحدى التحصينات الحكومية التى أقيمت بها قمعاً للثورات. وامتد لهيب الثورة من طيبة إلى بانوبوليس، ويبدو أنها كانت من الخطورة بمكان عظيم، وأن الآثار التى ترتبت عليها كانت من الفداحة بحيث حرم إيوارجتيس الثانى أهل هذه المدينة من قرار العفو الكبير الذى أصدره عام ١١٨ ق.م.

لقد كانت أحوال البلاد إذاً بالغة السوء، دب الفساد فى كل مكان، وشاعت الفوضى فى كل شئ، وأحس إيوارجتيس أن صلحه مع أخته لم يؤد لاستقرار ملكه، وأن القوة وحدها لن تجدى، وأدرك أنه لابد من إصلاح شامل يضع حداً لهذه الاضطرابات والقلاقل، فأصدر باسمه واسم زوجتيه وثيقة عفو كبرى فى عام ١١٨ ق.م. ولم يصدر إيوارجتيس الثانى هذا القرار، والقرارات السابقة التى أشرنا إليها فحسب، إذ أننا نجد فى برديات تبتونيس وثيقة تتضمن

بعض قرارات العفو المشابهة لما جاء فى وثيقة عام ١١٨ ق.م. والمرجح أنها ظهرت فى نفس ذلك العام، وهى تتضمن أساساً بعض امتيازات خاصة منحها الملك لطبقة الجند المقطعين.

النزاع الأسرى بعد إيوارجتيس الثانى :

وقبل أن يتوفى إيوارجتيس الثانى عام ١١٦ ق.م. مهد السبيل لإثارة القلاقل والاضطرابات من جديد، إذ أوصى بمملكته لزوجته الصغيرة كليوبترا تاركا لها مطلق الحرية فى اختيار من تصطفى من ولديها شريكا لها فى الملك، وهما بطلميوس فيلوميتور سوتر الثانى "الابن الأكبر" وبطلميوس اسكندر "الابن الأصغر"، وكانت كليوبترا تفضل ابنها الأصغر ولكن أهل اسكندريا كانوا يبغضونه فأرغموها على اختيار ابنها الأكبر سوتر الثانى، فقبلت مكرهة، حتى أفلحت فى طرده عام ١٠٧ق.م. وأشركت معها ابنها المحبوب بطلميوس اسكندر، ولكنها سرعان ما انقلبت عليه، وحاولت التخلص منه، فأسرع هو بقتلها عام ١٠١ ق.م. وانفرد بالحكم حتى طرده السكندريون عام ٨٩ ق.م. وعند ذلك استرد سوتر الثانى عرش مصر وظل يحكم البلاد حتى توفى عام ٨٠ ق.م. ثم تربع على العرش - وذلك بعد مأساة برينيكى الثالثة وبطلميوس العاشر- أحد أبناء سوتر الثانى غير الشرعيين، وهو بطلميوس الزمار الذى حكم مصر حتى عام ٥١ ق.م. وقد كان هذا الملك أداة طيعة فى أيدى الساسة الرومانيين، فحنق عليه الشعب واضطر للفرار من البلاد عام ٥٨ ق.م. ولم يستطع العودة إلا فى عام ٥٥ ق.م. بمساعدة جابينيوس حاكم سوريا الرومانى. ثم اعتلى العرش - طبقاً لوصية بطلميوس الزمار - بطلميوس الثانى عشر وأخته

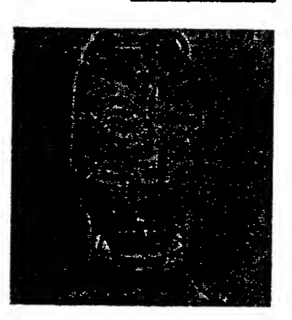


عملات قديمة

كليوبترا السابعة، ثم ضمت روما مصر إلى امبراطوريتها عام ٣٠ ق.م.
لم تنته المساوئ التى طغت على كل شئ فى البلاد خلال عهد إيوارجتيس الثانى بانتهاء هذا العهد، وإنما استمرت على أيام خلفائه. وما انقضى عامان على وفاة هذا الملك واعتلاء زوجته وابنه العرش، حتى ثارت إحدى قرى الفيوم ضد موظفى الملك عندما اشتد بطشهم بالأهالى، ولم يلقوا بالا إلى الأوامر التى تضمنتها وثيقة عام ١١٨ ق.م.

الثورة السادسة وتخريب طيبة

الثورة السادسة



من روائع الفن الشعبى المصري زير ماء مزخرف بأسماك

وقد حدثنا باوزانياس عن الثورة التى قضى عليها سوتر الثانى فى الفترة الثانية من حكمه فقال إن هذا الملك - بعد أن استرد عرشه ثانية - حارب أهل طيبة الثائرين، وأخضعهم بعد ثلاث سنوات من بدء الثورة، وكان انتصاره باهراً بحيث قضى على كل ما تبقى لأهل طيبة من مجد ورفاهية.
ونحن لا نعرف - على وجه الدقة - متى بدأت هذه الثورة ومتى انتهت بتخريب طيبة معقلها الأكبر: فلدينا وثيقة ديموطيقية من عام ٩٠ ق.م. (وهو العام السابق لخروج بطلميوس اسكندر من اسكندريا) تحدثنا عن هجوم الثوار على الأراضى الملكية فى مدينتى "لاتوبوليس" و"باثيريس": ولدينا أيضاً عدة رسائل كتبها شخص يدعى أفلاطون كان يشغل منصب الحاكم العام فى منطقة طيبة، وترجع هذه الرسائل جميعاً إلى عام ٨٨ ق.م. (وهو العام الثانى لاسترداد سوتر الثانى عرش مصر).
وتدل الوثيقة الديموطيقية على أن الثورة كانت

مشتعلة قبل أن يسترد سوتر الثانى عرش مصر بعام واحد. كما تدل مجموعة الرسائل على أن الطيبيين كانوا منقسمين على أنفسهم فانضم بعضهم إلى معسكر الملك و الكهنة بينما ثار البعض الآخر عليهم. وقد عرفنا ذلك من أن الرسالة الأولى التى حررها أفلاطون فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ٨٨ ق.م. كانت موجهة إلى أهالى مدينة "باثيريس" الموالين للملك والمهددين بأخطار الثورة، يبلغهم فيها بأنه قادم من "الاتوبوليس" للقبض على ناصية الأمور، ويدعوهم للتذرع بالهدوء ومساعدة قائدهم "نختيريس" حتى يصل هو إليهم. أما الثانية فقد حررها إلى القائد المذكور فى نفس اليوم، وكانت تتضمن خلاصة الرسالة الأولى الموجهة إلى أهالى "باثيريس". وكانت الرسالة الثالثة محررة فى اليوم الثلاثين من شهر مارس عام ٨٨ ق.م. وموجهة أيضاً إلى نفس القائد تدعوه إلى توفير المئونة اللازمة من القمح والخبز والشعير لأهالى "باثيريس" وأما الرسالة الرابعة فكانت محررة فى اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ٨٨ ق.م. وموجهة من إفلاطون إلى كهنة "باثيريس" وغيرهم يشجعهم فيها على الصمود لحصار الثوار، ويبلغهم أن سوتر الثانى قد وصل إلى منف وعهد إلى القائد "هيراكس" بإخضاع منطقة طيبة.

إن هذا الخطاب الأخير ليدل دلالة واضحة على أن كهنة باثيريس كانوا موالين للملك، وأنهم كانوا يتزعمون حركة المقاومة ضد ثوار طيبة الوطنيين. ومهما يكن من أمر ، فقد كان كهنة آمون يضمرون أشد العداء للبطالمة ، وترى "كليربريو" أن سبب عدائهم هذا لم يكن كرهم



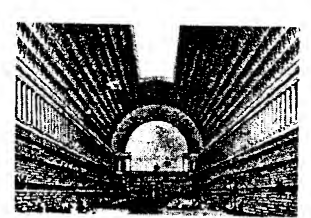
أقنعة الفيوم، من أهم الانجازات الفنية المصرية التى برزت فى الفترة البطلمية ثم الرومانية تأثرا بالنحت الجنائزى المصرى القديم.



قناع مصرى قديم.

للأجانب ، وإنما رغبتهم فى استعادة استقلالهم القديم ، وهى الرغبة التى كانت تدفعهم إلى مناهضة كل ملكية أجنبية منذ العهد الفرعونى.

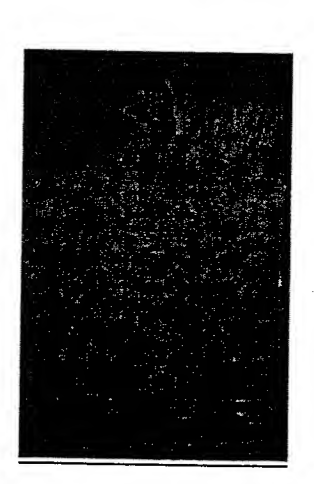
ونحن لا نشك فى أن كهنة آمون كانوا يتوقون لاستعادة استقلالهم القديم، ولكننا لا نشك أيضاً فى أنهم كانوا يضمرون للأجانب أشد الكره والبغض لكثرة مالاقوه على أيديهم من عسف وامتهان. ولم يكن ثوار طيبة مدفوعين إلى ثورتهم بتحريض من كهنة آمون فحسب، أى أنهم لم يكونوا أدوات استغلها هؤلاء الكهنة لتحقيق مآربهم، وإلا لما استمرت الثورات مشتعلة بعد كسر شوكة هؤلاء الكهنة وتخريب طيبة. على أن ضعف هذه الثورات الأخيرة يدل - دون ريب - على الدور الهام الذى قام به كهنة آمون فى حركات المقاومة الوطنية السابقة.



مكتبة إسكندريا. اعظم مكتبات التاريخ، جمع فيها بطلميوس الأول كل المؤلفات المصرية السابقة فى مكتبات طيبة وعين شمس وغيرهما من مكتبات مصر، ثم زيد عليهابرديات أخرى من كل جهات العلم المعروف وقتها. وهكذا ظلت مصر مصدر المعرفة للعالم بالرغم من احتلالها.

استمرار القلاقل والاضطرابات :

ولدينا نقش من هرموبوليس يرجع إلى عام ٧٩ - ٧٨ ق.م. وكذلك عدة أوراق بردية من إقليم هيراكليوبوليس ترجع إلى عام ٦٤ ـــ ٦٣ ق.م.وكلها تحدثنا عن التجاء الحكومة إلى توزيع فرق من الجند فى شتى أنحاء البلاد، لوضع الأمور فى نصابها، وعن تكليف وحدات من الأسطول بتأمين سلامة المواصلات النهرية بسبب استمرار أعمال التمردات.

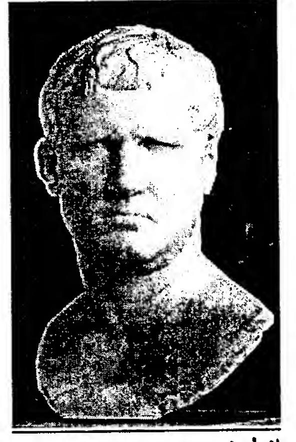


منارة إسكندريا.

ومضت البلاد من فساد إلى فساد، وعاود العمال والزراع والصناع فرارهم من أعمالهم وأراضيهم والتجاءهم إلى المعابد، فازداد إقفار الأراضى الزراعية وتعطلت الصناعات، ونقصت تبعاً لذلك موارد الخزانة الملكية، حتى لقد أصدرت كليوبترة السابعة وأخوها بطلميوس الثانى عشر قراراً يحظران فيه القبض على الفلاحين

والحرفيين و العمال، ويأمران باحترام ما أصدراه من خطابات الأمان طوال موسم الزراعة على الأقل.

الرومان وثورات المصريين


انطونيوس.

وإذا كان المصريون قد فشلوا فى انجاز ثوراتهم و طرد الحكام البطالمة، إلا أن هذا الفشل لم يدخل على قلوبهم اليأس، فظلوا يقاومون الحكم البطلمى حتى نهايته. وكانت هذه المقاومة ذات الطابع القومى الاقتصادى الاجتماعى ذات أثر كبير فى إضعاف البطالمة، حتى وقعت آخر الأمر فريسة سهلة هينة فى أيدى الرومان. (انظر: **حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية د. محمد عواد حسين**).

وهكذا انتهت الفترة البطلمية التى عانى خلالها المصريون من التمايز الطبقى والمظالم المادية، وفساد الإدارة، حتى تفككت الدولة، وضَعُفَ الجيش والأسطول، وبدأ الحكم الرومانى لمصر عام (٣٠ ق.م) واستمر قرابة سبعة قرون.

لقد أبقى الرومان فى مصر حامية رومانية من ثلاثين ألفًا، عبارة عن ثلاث فرق، وقوات مساعدة، أخضعت البلاد وأخمدت ثوراتها، وأحالتها إلى مزرعة تمد الإمبراطورية الرومانية بالمال والغلال، لاسيما القمح.


أجريبا الذى هزم انطونيوس فى موقعة الكتيوم البحرية.

وأصبحت مصر مستعمرة بمعنى الكلمة، وعاملت روما شعب مصر على أنه شعب مغلوب مقهور، ومنحت اليونانيين واليهود امتيازات خاصة فى مصر، وحظر على المصريين حمل السلاح وصارت حيازته عقوبتها الإعدام، واتسم الحكم الرومانى بفداحة الضرايب والعسف فى الجباية، وعاش المصريون قرونا ضنكا، حتى خربت


موقعة اكتيوم البحرية.


يوليوس قيصر.

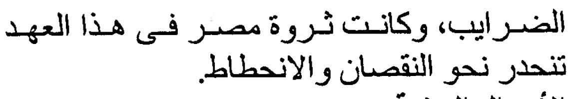

اغسطس.

البلاد اقتصاديا واجتماعيا. وهذه كانت صورتها لمدة سبعة قرون منذ انتحار كليوباترا عام (٣٠ ق.م) حتى عندما غزاها عمرو بن العاص مصر ٦٤٢ م.

وقد كان من الطبيعي أن تحدث ثورات على هذا الوضع، فقد نشبت ثورة فى طيبة بعد بضعة شهور من الغزو الرومانى، ونكّل الثوار بجباة الضرايب الرومان، وزحف إليهم الحاكم الرومانى جالوس من إسكندريا حتى أسوان وما وراء الشلال الأول، فأخمد الثورة ونكّل بالثائرين، وتكررت الثورات فى الصعيد، وفى شمال الدلتا (بلاد البشمور) وكان الرومان يخمدونها بالقوة و العنف.

ويبدو أن الأمر كان صعبًا على الرومان فى بعض الأحيان، خاصة فى الجنوب، وفى بلاد البشمور فى الشمال، فعقدوا صلحًا مع النوبيين، أعفوهم فيه من دفع ضريبة الرأس، وأقام الرومان حصونًا فى النوبة: فى الدكة وكلابشة وقرطاسة وأبريم؛ لتعينهم على أمرهم، كما جَدَّدَ الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) بناء حصن بابليون ليكون المقر الرئيسى للحامية الرومانية فى داخل البلاد.

وقد اتخذ الرومان مصر شاةً حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها ويمتصوا دمها، يقول ألفرد بتلر: "إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرايب أخرى كثيرة العدد... مما لا شك فيه أن ضرايب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل"، وكانت طبقات الفلاحة المصرية - مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ - مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية، كَكِرَاء الأرض فضلا عن

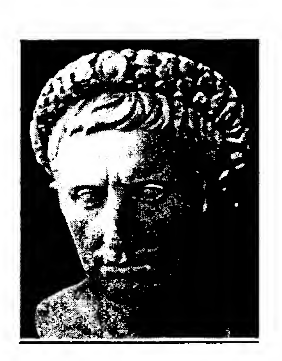

الضرايب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد تنحدر نحو النقصان والانحطاط.


اوكتافيوس.

الأحوال الدينية

لا شك أن الأهمية المتزايدة لإقليم مصر هى التى دفعت الإمبراطورية للوقوف فى وجه المسيحية، باعتبارها مخالفة سياسية لنفوذ الأمبراطورية الرومانية قد تدفع الناس لمقاومة الظلم، فما كان من الحكام بها إلا أن زادوا من حجم الاضطهادات فى القرن الثالث الميلادى، وبالتحديد فى منتصفه، حين قام ديكيوس الرومانى بمحاولة إبادة المسيحيين على مستوى الإمبراطورية كلها بما فيها مصر.

وقد بلغت المظالم وحركة الاضطهاد ذروتها فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م.) الذى تَأَبَّى المسيحيون عليه، ورفضوا تقديم القرابين لآلهته، فما كان منه إلا أن مَثَّل بهم، وارتكب فى حقهم أفظع الجرايم حتى لقد أطلق على عصره "عصر الشهداء"؛ بسبب آلاف الأرواح التي أزهقت من قبط مصر بسبب اعتناقهم المسيحية، ومازالت الكنيسة القبطية حتى الآن تستخدم تقويمها القبطى بدءًا بسنة (٢٨٤م.) التى اعتلى فيها عرش الإمبراطورية، رغم أن اضطهاده الفعلى بدأ قرب أواخر حكمه سنة (٢٩٩م.).


تيبيريوس.

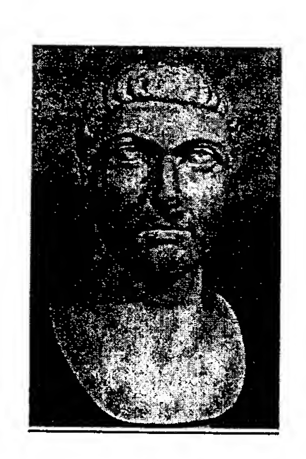
وبالرغم من ذلك يقول هـ آيدرس بل: إنه لمن الخطأ أن نعتقد أن الاضطهاد كان حملة متصلة، وأن الحكومة الرومانية اضطهدت المسيحيين بسبب عقائدهم الدينية بالذات، فقد كانت وقتها متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أى عبادة جديدة إلا بحجة منافاتها للمبادئ الأخلاقية، أو تعارضها مع السياسة العامة، كان المسيحيون فى نظر

السلطات مواطنين أشراراً، وعنصرا خطراً فى المجتمع؛ لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية، ولا يقدسون صور الأباطرة.. غير أنه كان هناك دائما بين المواطنيين من كان مستعدًا للتستر على أصدقائهم المسيحيين، كما كان حكام الولايات يحجمون أشد الإحجام فى معظم الأحيان عن تطبيق قانون العقوبات عليهم، ولم يكن الاضطهاد عاما إلا عند حدوث كارثة قومية أو هياج واسع، وكما قال ترتوليانوس: فإذا فاض نهر التيبر على الجسور، أو غاض ماء النيل فلم يبلغ الحقول، أو أمسكت السماء عن المطر، أو زلزلت الأرض، أو حدثت مجاعة أو انتشر وباء تعالت الصيحات على الفور: "اقذفوا بالمسيحيين إلى الأسود.



دقلديانوس.

بعد ذلك بعشر سنوات اتخذ الإمبراطور قسطنطين بيزنطة عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وسميت القسطنطينية، وأعلن اعتناقه المسيحية عام ٣٢٤م. ، يقول هـ أيدرس بل: "فى وسعنا أن نشعر أن اعتناق الإمبراطور المسيحية لم يكن خيرًا كله، فلم يعد اعتناق هذا الدين يعنى مجرد الأمان، وإنما أصبح بدعة العصر، وأسرع كثير من منتهزى الفرص إلى اعتناق الدين الجديد.



قسطنطين.

ولقد كانت مصر حتى عام (٣٠٠م.) بلدًا متعدد المعتقدات فى جوهره، رغم وجود عدد كبير من المسيحيين، ولكنه فى عام (٣٣٠م.) صار بلدًا يدين بالمسيحية، وفى هذا يقول هـ .آيدرس بل: "... ولاشكَّ أن بعض هذا الانقلاب كان يرجع إلى توقف الاضطهاد لا إلى استمراره، فقد حدث فى ٣٠ ابريل (٣١١م.) أن أصدر جاليريوس - وكان يعانى مرضا كريها - قرارًا بوقف الاضطهاد،

ملتمسا من المسيحيين أن يصلوا من أجله، ولقد استجابوا له ولكن دون جدوى، إذ قضى نحبه بعد ذلك بأيام قلايل."

اضطهاد المصريين المسيحيين قبل الانحسار الرومانى والبيزنطى:

تطفح المصادر التاريخية التى تتعرض لهذه الفترة (ما بين ظهور المسيحية حتى انحسار الوجود الرومانى والبيزنطى عن منطقة الشرق الأوسط) تطفح فى مرارة بالأخبار الكثيرة عن هذا الاضطهاد.

فقد اشتد الأمر على المصريين الأقباط فى أيام الملك أيدريانوس وقتل منهم خلايق لا يُحصَى عددهم، وقدم مصر فأفنى من بها من القبط. كما لقى المصريون القبط من الملك مكسيموس قيصر شدة عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا.

واشتد الأمر على القبط فى أيام الملك طيباريوس قيصر، وقتل منهم خلقا كثيرا، فلما كانت أيام دقلديانوس قيصر خالف عليه أهل مصر وإسكندريا فقتل منهم خلقا كثيرا، وكتب بغلق كنايسهم فارتد خلايق كثيرة جداعن المسيحية.

ولم تلبث المسيحية أن لقيت قبولا فى عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣/٣٣٧م.) لاسيما بعد أن اعترف بها دينا مسموحا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية بموجب مرسوم ميلان الشهير فى عام ٣١٣م، ثم أصبحت الدين الرسمى الوحيد للدولة فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩/٣٩٥م.) الذى أصدر مرسوما بذلك عام ٣٨٠م. كما أصدر مرسومين فى عامى ٣٩٢ و ٣٩٤م. حرم بموجبها العبادات الأخرى.



تعد الرهبنة والديرية ابتداع مصرى خالص تمتد بجذورها إلى النساك الأوزيريين الذين أقاموا معابدهم فى صحارى مصر كمواقع متقدمة لمحاربة الشيطان "ست". تحولت هذه الرهبنة فى الفترة الرومانية المسيحية إلى حركة تشبه العصيان المدنى ضد سلطة الأحتلال الرومانى والبيزنطى. وعندما شن البدو هجماتهم على هذه الأديرة تحولت إلى العمارة الدفاعية فى تصميم ابنيتها فنرى هنا كوبرى خشبى يصل مابين بقية الدير والجزء المحصن منه الذى يلجاء إليه رهبانه عند هجمات البدو بعد أن يسحبوا هذا الكوبرى.

النزاع والصراع بين المسيحيين حول طبيعة المسيح:

لم تنعم مصر المسيحية طويلا بهذا النصر الذي أحرزه الدين المسيحى إذ ثار الجدل والنزاع منذ أيام قسطنطين الأول بين المسيحيين حول صفات المسيح، وقد تدخل قسطنطين الأول فى هذه النزاعات الدينية البحتة، وعقد مجمع نيقية فى عام ٣٢٥م. من أجل ذلك، وناقش هذا المجمع مذهب أريوس السكندرى الذى أنكر صفة الشبه بين الأب والابن، وعَدَّ أن ابن الله ليس إلا مخلوقا فأنكر بذلك ألوهية المسيح، وتقرر بطلان مذهبه، والإعلان عن أن الابن من جوهر الأب نفسه، واتخذ معظم الأباطرة الذين جاءوا بعد قسطنطين الأول موقفا عدائيا من معتقدات القبط فى مصر؛ مما أدى إلى احتدام الجدل والنزاع الدينى بين كنيستى إسكندريا والقسطنطينية.



كانت المجامع المسكونية مدخلا للعديد من الخلافات بين المسيحيين مما دفع المصريين إلى التمسك بعقيدتهم المسيحية الأرتدكسية كموقف قومى ضد الكنيسة الرومانية التى اعتبرت أحد أشكال دعم الأحتلال الرومانى والبيزنطى لمصر.

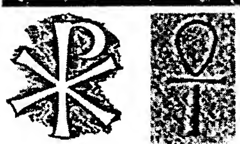
وقد بلغ هذا النزاع أقصاه فى منتصف القرن الخامس الميلادى، حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح، فاعتقدت الكنيسة المصرية بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة – مونوفيزيت - وتبنَّت كنيسة القسطنطينية القول بثنائية الطبيعة المحددة فى مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م. و الذى أنكر فيه المجتمعون نحلة المونوفيزيتيين المصريين، وكفَّروا من قال بأن للمسيح طبيعة واحدة، وعَدُّوهم خارجين على الدين الصحيح، كما تقرر حرمان ديسقوروس بطريرك إسكندريا من الكنيسة.

والواضح أن ما أحرزته كنيسة القسطنطينية من انتصار على كنيسة إسكندريا إنما يدل على أن دعوى الكنيسة الأولى بأن لها الصدارة بين الكنايس الشرقية ومساواتها بالكنيسة الغربية فى

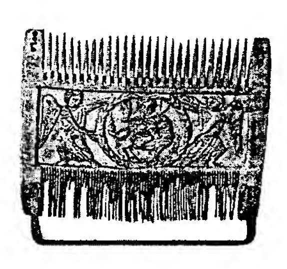
روما قد أضحى واقعا، واتخذت القضية فى مصر شكلا قوميًّا؛ إذ لم يقبل ديسقوروس ولا قبط مصر ما أقره مجمع خلقيدونية، وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرتودكس أى أتباع الديانة الصحيحة.



أضحى هذا النزاع بين الكنيستين مشكلة أقلقت المسئولين البيزنطيين، إذ أن المونوفيزيتية ليست إلا تعبيرا عما بمصر وبلاد الشام من ميول انفصالية، فألغت كنيسة إسكندريا استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها وشعائرها، واستخدمت بدلاً منها اللغة المصرية القبطية.



وما حدث من القلاقل الدينية فى إسكندريا وبيت المقدس وأنطاكية، وتَعَرُّض السكان فى مصر لأشد أنواع الاضطهاد، وحرمان ديسقوروس وطرده من الكنيسة بسبب ما جرى من محاولة تنفيذ قرارات مجمع خلقيدونية بالقوة، إنما اتخذ صفة الثورات الوطنية العنيفة، ولم تقمعها السلطات إلا بعد أن أراقت دماء كثيرة.



عودة الفرس لاحتلال مصر

وفى أيام فوقا (فوكاس) (٦٠٢ - ٦١٠م.) ملك الروم، بعث كسرى أبرويز ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنايس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وأتوا إلى مصر.



وفي أيام "فوكاس" أُقِيمَ يوحنا الرحوم بطرك إسكندريا فدبر أرض مصر كلها عشر سنين، ومات بقبرص وهو فَارٌّ من الفرس، فخلا كرسى إسكندريا من البطركية سبع سنين لخلو أرض مصر والشام من الروم، وكان غزو الفرس لإسكندريا عام ٦١٧م.، وتم لهم إخضاع مصر عام ٦١٨م، وبلغوا أقاصى الصعيد حتى أسوان، وبقى سلطانهم فى مصر حوالى عشر سنوات.

وعندما ملك هرقل (٦١٠ - ٦٤١م.) الروم بالقسطنطينية تغلب على الفرس وغزا عاصمتهم المداين، وأجبرهم على الانسحاب من جميع الأراضى التى استولوا عليها من آسيا الصغرى وبلاد الشام، وخرجوا من مصر عام ٦٢٧م، وهكذا عاد الروم إلى مصر فى عهد هرقل.



عملة ذهبية للأمبراطور هرقل.

الروم مرة أخرى

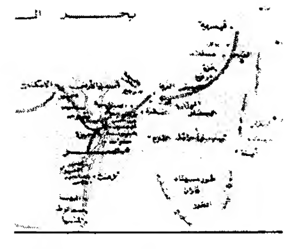
خرج الفرس من مصر عام ٦٢٧م.، وعاد إليها الروم البيزنطيون، وفى عام ٦٣١م أرسل هرقل الأسقف سيروس (المقوقس) بطركا لإسكندريا، وهو الذى ذكره المقريزى باسم "فيرس" وذكره غيره باسم "قيرس" وكان ملكانى المذهب، وإلى جوار أنه كان أسقفا فقد كان نايبا عن هرقل فى حكم مصر، وكانت إسكندريا مازالت هى عاصمة البلاد.

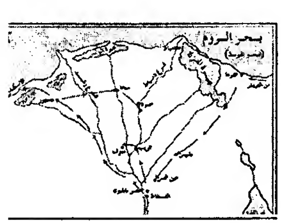
كان هدف هرقل من ارسال المقوقس إلى مصر أن ينقذ البلاد من الخلاف الدينى، وأمَّلَ المصريون بانتهاء عهود الاضطهادات وإراقة الدماء، ومن خلال البطرك سرجيوس، الذى أدرك خطورة الموقف، لم يَألُ جهدا فى أن يعيد للكنيسة الهدوء والسكينة؛ ذلك أنه اعتقد بقدرته على التوفيق بين المذهبين الخلقيدونى والمونوفيزتى، فتبنى مذهب الفعل الواحد فى المسيح، وهى وحدة تعرب عن وحدة الأقنوم (الشخص) لا عن وحدة الطبيعة، وأسند الرياسة الدينية والسياسية فى مصر للمقوقس أسقف فاسيس فى بلاد القوقاز (ولعل اسم المقوقس أو قيرس أتى من كلمة قوقاز أو القفقاس التى أتى منها)، وطلب منه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الموحد، غير أنه لم يدرك أن مذهبه هذا قد ترفضه كنيسة مصر،

وهذا ما حصل.

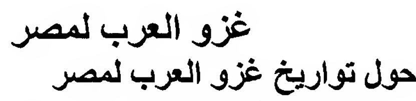
وصل المقوقس "قيرس" إلى إسكندريا، وبدأ اضطهاده للقبط ليحملهم على اتباع المذهب الملكانى الجديد (مذهب الفعل الواحد فى المسيح)، فاضْطرَّ للضغط على المصريين وخَيَّرَهم بين أمرين: إما الدخول فى مذهب هرقل الجديد، وإما الاضطهاد. و كان قبل أن يصل الحاكم الجديد (المقوقس) إلى إسكندريا فى عام ٦٣١ م. هرب البطريرك القبطى بنيامين، توقعا لما سيحل به وبطايفته من الاضطهاد من جراء فرض المذهب الجديد.

كان هذا القرار نذيرًا أزعج المصريين الأقباط، وأفزع أهل الدين منهم وبخاصة أنه كان لهذا البطرك مكانة محبة بين الأقباط فى مصر، ولجأ المقوقس إلى البطش والتعذيب، وقاسى الأقباط جميع أنواع الشدايد فيما سُمِّيَ (بالاضطهاد الأعظم) الذى استمر عشر سنوات، مما كان له أثر فى سهولة غزو العرب لمصر.





خط سير غزوة العرب لمصر.



غزو العرب لمصر

حول تواريخ غزو العرب لمصر

و سوف نعالج هنا بعضا من الصعاب، و ما اكثرها، التى تعترض الإنسان إذا عالج مسألة دقة تواريخ غزو العرب لمصر فى ذلك العصر، حتى ليخيل إلينا أن الوصول إلى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلا، فليس على الكاتب فيها أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للإنسان أنه إذا حلّ عقدة منها فى ناحية دعا ذلك إلى تعقيد جديد فى ناحية أخرى، و لكن الأستاذ بروكس قد عمل الكثير من أجل



الغزو يدمر كل ما في طريقه.

تسهيل الأمور علينا، فإن مقاله بمجلة Byzantinische Leitschrift (١٨٩٥ ص ٤٣٦ ـ ٤٤٥) يمكن أن يقال أنه أخرج تواريخ ذلك العصر من حيز الظن و جعله قائما على أساس علمى. ذلك أن المراجع اليونانية لهذه الفترة لا قيمة لها كما دلّ على ذلك الأستاذ بروكس، فلا تيوفانز و لا نيقفوروس يذكران غزو العرب لاسكندريا، و لو أن الأخير يذكر أن هرقل أعاد المقوقس إلى بطركية اسكندريا بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين فى مايو سنة ٦٤١ م، و هذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد احتلها العرب بعد. وتاريخ نيقفوروس ينتهى إلى سنة ٦٤١ م. و لا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨ م. و لكنه لا يوثق بأى منهما ما يتعلق بأول جزء من تاريخ الغزو، فتاريخهما ملئ بالمتناقضات و كلاهما يخلط فى ترتيب الحوادث خلطا لابد أن يؤدى إلى تضليل المؤرخين الذين يعتمدون عليهما.

و أما مؤرخو السوريين و الأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين، فمثلا إليشع النصيبى (نسخة المتحف البريطانى البردية ١٩٧/٧ صفحة ٢٩ ، و قد نقل عنها الأستاذ بروكس) يجعل غزو اسكندريا فى سنة ٢٠ للهجرة (ما بين ديسمبر ٦٤٠ حتى ديسمبر ٦٤١ م.) و أما أبو الفرج فانه لا يذكر شيئاً إلا ما ذكره عن القصة المعروفة لإحراق مكتبة اسكندريا، و كذلك سيبيوس لا يذكر شيئاً. أما المؤرخون العرب المسلمين فانهم مثل اليونان فى إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض، و لكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة، ومن هؤلاء:

ابن عبد الحكم: نقل عنه Weil فى كتاب Geschichte der Chalifeu فيقول إن

عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى، أى عاشر ذى الحجة سنة ١٨ هـ = ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م. ويذكر أن حصار اسكندريا بقى تسعة أشهر بعد موت هرقل. ونقل السيوطى عن نفس المؤرخ أنه قال إنه بعد غزو مصر أرسل عمرو جنده إلى القرى والمداين التى فى جوار مصر، وبقيت الفيوم لا يعرف العرب عنها شيئا مدة سنة.

البلاذرى: يذكر أن غزوة مصر كانت فى سنة ١٩ هـ. وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠، ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد احتلال حصن بابليون، ويقول أن عمرا سار إلى الشمال، أى إلى اسكندريا فى سنة ٢١ هـ = من ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ إلى ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢ م. بعد أن مكث مدة فى حصن بابليون، وإنه فى الساعة عينها، عام الرمادة، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يأمره بارسال الجزية والغلال بالبحر (الأحمر). كما يذكر أن مصر احتلت فى سنة ٢٠ هـ. و قد جرت العادة أن تفهم معنى مصر على أنها القطر المصرى كله، فى حين أن المقصود بها كان هنا بغير شك مدينة مصر (ممفيس) التى سبقت الفسطاط.



نقود إسلامية

الطبرى: يذكر أن الأمر بغزو مصر بلغ عمرا فى اوايل سنة ٢٠ هـ= أواخر ديسمبر سنة ٦٤٠ م. ويذكر أن احتلال بابليون على وجه التعيين كان فى ربيع الثانى من السنة ذاتها (أى من ٢٠ مارس حتى ١٧ ابريل سنة ٦٤١ م)، و إن بين هاتين العبارتين تناقضا، فانه من المحال أن يكون حصن بابليون قد احتل بعد أكثر من ثلاثة أشهر من ورود الأمر إلى عمرو و هو فى فلسطين.

ياقوت الحموى: هذا كاتب دقيق يذكر أن عمرا طلب من عمر أن يأذن له فى غزو مصر سنة

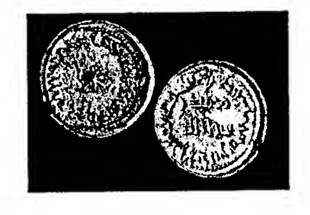


١٨ هـ = من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ حتى ٢ يناير ٦٤٠ م. وأن الروم لقوا عمرا أول مرة فى مصر عند الفرما، واستمر القتال شهرين، وبعد ذلك لم يلق العرب أى مقاومة حتى بلغوا بلبيس، ثم قاتلوا الروم هناك مدة شهر قتالاً متصلاً. ثم ساروا سيراً سهلاً إلى أم دنين (المقس) وبقوا هناك يقاتلون نحو شهرين. ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أول الغزوة مع حساب المدة اللازمة للسير، وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر إلى ٦ يونيه.

وقال ياقوت إن عمرا عند ذلك أرسل يطلب المدد من الخليفة، وأن احتلال حصن بابليون كان مدة فيضان النيل، أى فى سبتمبر أو بعد ذلك بقليل، على أنه يقول بعد ذلك بقليل إن احتلال بابليون كان فى يوم الجمعة أول المحرم من سنة ٢٠ هـ = ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ م. وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن اسكندريا قد احتلت فيه، وفى هذا ما فيه من التضليل. فقد قال ياقوت بعد هذا إن عمرا سار إلى اسكندريا فى ربيع الأول من سنة ٢٠هـ = ٢٠ فبراير إلى ٢٠ مارس ٦٤١ م. و لعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثانى ـ ثم قال إن عمرا لما بلغ اسكندريا حاصرها مدة ستة أشهر وقال فى موضع آخر إن احتلال اسكندريا كان فى سنة ٢٠ (وآخرها ٩ ديسمبر سنة ٦٤١) وإن عمرا صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢).

وأما **المقريزى**: فقد أفاض فى القول، فقد كرر أن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى وأنه قضى شهرا فى الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن فى مدة فيضان النيل، وأن مدة الفيضان كانت لم تنقض عندما هاجم العرب الحصن. ولكنه

روى عن الكندى أنه قال إن عمرا سار إلى اسكندريا بعد احتلال حصن بابليون وأن ذلك كان فى ربيع الأول سنة ٢٠ للهجرة، والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى). وقال إن موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح، ويقول المقريزى إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار على الحصن، ولكنه روى عن الليث تاريخا أخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح، وقال إن احتلال اسكندريا كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام وإنه كان في يوم الجمعة أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين). ويذكر الليث أن الغزو الأول كان فى سنة ٢٢ للهجرة (وأولها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزى أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالغزو وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هى الصحيحة وهى التى يقبلها أكثر المؤرخين.



نقود إسلامية

أبو المحاسن - ينقل عن الذهبى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو يأمره بغزو مصر فى سنة ٢٠ للهجرة (أولها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠). وينقل عن ابن الحكم أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر. أما هو فيذكر أن غزو مصر (ولعله يقصد بها مدينة مصر) كان فى أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة. وينقل عن ابن كثير والواقدى وأبى معشر أن غزو مصر كان فى ذلك العام نفسه، ويذكر الواقدى أن غزو اسكندريا كان فى السنة نفسها. أما أبو معشر فيذكر أنه كان فى سنة ٢٥ للهجرة.

السيوطى - بعد أن ذكر نقلا عن الليث أن موت هرقل كان فى سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار اسكندريا استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ

قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر، ولكنه قال مع ذلك إن غزو اسكندريا كان فى أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة وهذا سهو لأن السيوطى يذكر بعد صفحات من هذا أن غزو اسكندريا الأول كان فى سنة ٢١ للهجرة، وأن الغزو الثانى كان فى سنة ٢٥ للهجرة، وينقل عن القضاعى نقلا عن ابن قتيبة أن عمرا عاد من اسكندريا (إلى بابليون) فى ذى القعدة سنة ٢٠ للهجرة (أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٦٤١).



بين الوادي والصحراء نهب وعطاء.

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى. وإن ما بينهم من الخلاف عظيم، ومن الواضح أنه لا يمكن التوفيق بينهم فيه، ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب هذا الخلط الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعا وهو الذى ضلل المؤرخين المحدثين وحيرهم، فلم يتم تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الغزو، الذى كان يقصد به أحيانا مدينة مصر (وهى منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحيانا يقصد به القطر المصرى.

وعلى ذلك فذكر (غزو منفيس) فى كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين (غزو بلاد مصر) ثم إن غزو حصن بابليون كان حادثا مخالفا لغزو مدينة مصر فى حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما، ثم إن اسكندريا لم يتم غزوها مرة واحدة بل مرتين. وقد وجد المؤرخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الغزو بمائتى عام أن أخبار الغزو غير جلية وقد نُسى ترتيب الحوادث فيها، وعلى ذلك فنحن أميل

إلى أن نعد أخطاءهم وتناقضهم أمرا يؤسف له وأنه ليس عجيبا ولا غير متوقع.

المؤرخون المصريون و من غير العرب



نسيج قباطي

أوتيكيوس (أوتيخا): ويذكر فى كتابه ما يلى : "أحتلت الفرما بعد حصار شهر وأحتل حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر، وخرج المقوقس من الحصن فى وقت الفيضان. وحدثت ثلاث معارك بين بابليون واسكندريا، وفتحت (المدينة العظمى أى اسكندريا) فى يوم الجمعة مستهل شهر المحرم من سنة ٢٠ هـ. وهى السنة العشرون لحكم هرقل الثامنة من خلافة عمر. ثم تلا ذلك احتلال برقه وطرابلس سنة ٢٢ هـ، فإذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرم أول يوم فى ذلك الشهر من سنة ٢٠ فان ذلك يوافق يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ م. ولكن أول يوم فى المحرم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ م. ولم يقع أى هذين اليومين فى يوم الجمعة.والتاريخ الأول لا يقع إلا فى السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل، وكان هرقل قد توفى قبل ذلك التاريخ.

ساويرس ابن المقفع: يذكر أن "أنفذ ملك المسلمين سرية مع أمير من أصحابه يسمى عمرو ابن العاص فى سنة ٣٥٧ لدقلديانوس قاتل الشهداء. فنزل عسكر الاسلام إلى مصر فى قوة عظيمة فى ١٢ بؤنه الذى يوافق ٦ يونيه. ويذكر المقريزى على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ احتلال الحصن هو ١٢ بؤنه.

ويذكر ساويرس أيضا أن المسلمين احتلوا اسكندريا فى سنة ٣٦٠ للشهداء وهدموا أسوارها وهذه الإضافة تدل على أنه يقصد الغزو الثانى بعد ثورة مانويل.

أبو صلح: لا يزيد على ما نعرفه إلا قليلا فإنه يذكر أن عمرا احتل مصر فى ١٩ للهجرة = ٢ يناير حتى ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلاديه. وأنه عسكر خارج موضع اسمه "جنان الريحان" ويقول أيضا أن عمرا احتل مصر فى غرة المحرم من عام ٢٠ للهجرة، وينقل، أو يسىء نقل، التاريخ الذى ذكره ساويرس.

حول تواريخ غزو العرب لباقى البلدان المصرية

كان تأخير عمرو بن العاص فى فتح خطاب عمر بن الخطاب، ليس إلا لأن عمرو بن العاص عرف محتوياته بطريقة أو أخرى فأخر فتحه لحين دخوله مصر تحت ترغيب القوات البيزنطية التى انضمت إليه وكذلك قبائل الغساسنة والأنباط التى صاحبته من الشام سعيا للسلب والنهب، ثم قرأ على الناس كتاب الخليفة وقال: إذاً نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين، وكان الخليفة يأمره بالرجوع إذا كان بعد فى فلسطين. (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٢٨– ٢٣٠).

يناير ٦٤٠ م - الاستيلاء على بلوز (الفرما)

وصل العرب إلى مدينة بلوز، وأسمها بالقبطية (برمون) وأطلق عليها العرب اسم الفرما، وذلك فى نهاية سنة ٦٣٩ م , وكانت المدينة قوية بها حصن وبها كثير من الآثار المصرية والكنايس والأديرة، وكان لها مرفأ متصلاً بالمدينة بخليج يجرى من البحر، وكان متصلاً بفرع من النيل أسمه الفرع البلوزى يصل إلى البحر قربها، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح التجارة بين مصر والشرق، استمرت حرب متقطعة بين العرب وبين

* تقع الفرما على بعد ٣٥ كم شرق مدينة القنطرة وكان فى الفرما أسقفية ذات شهرة، ومن أشهر أساقفتها - الأنبا يوساب اسقف الفرما الذى حضر مجمع أفسس سنة ٤٣١م - وعاش فى أديرتها مئات الرهبان ويقال أن القديس ساويرس الأنطاكى عاش فيها عدة سنوات. وكما كانت الفرما مفتاح مصر للشرق كانت إسكندريا مفتاح مصر للتجارة للشمال والغرب –





قرية على النيل .

حامية المدينة مدة شهر أو شهرين , استولى عليها العـرب بعـد قتـال عنيـف , فهـدموا الحصـون وأحرقوا السفن وخربوا الكنايس الباقية بها (كتاب فتح مصر للمؤرخ / الفريد بتلر ص ص ٢٣٤ & وراجع أيضاً - كامل صالح نخلة ص ٦٥).
ومـدة مقاومـة حاميـة مدينـة الفرمـا الصـغيرة بالمقارنة بأربعة آلاف عربي يؤكد تماماً أنه كان يمكن دحر الغزاة العرب لولا خيانة «المقوقس».
وقال المؤرخين المسلمين: "وأقبل عمرو حتى إذا كان بالعريش فكان أول موضع قوتل فيه الفرما، قاتلته الروم قتالاً شديدًا نحوًا من شهر ثم فتح الله على يديه وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ خروجه إلى أن فرغ من حربه". ثم تقدم عمرو أيضا لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتل نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه (راجع : كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي).
قال المقريزى فى (المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار) الجزء الثانى (٥٨ من ١٦٧) :
"حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوًا من الشهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى (أم دنين) فقاتلوه قتالاً شديدًا وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف وقيل: بل أمده باثنى عشر ألفًا. "
وعندما تقدم جيش عمرو وحاصر بلبييس وقع قتالا ضاريا وأستمر القتال كما هو عليه شهرا ولما يئس عمرو من تأخر سقوط بلبيس دفع بكل قواته مرة واحدة ، فتم له النصر، وقتل العرب كل من فى المدينة من الأهالى ودمروا الكنايس وحرقوا الأديرة.

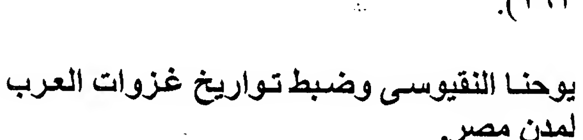
« فى منتصف يوليو ٦٤٠ م - عين شمس وموقعة أم دينين »



شاهد قبر لطفل

تجمعت جيوش العرب عند هليوبوليس , وكانوا يسمونها عين شمس (أون) وكانت معروفة بعظمة آثارها, ومركزها العلمي, ومما يذكر أن أفلاطون كان يتلقى فيها العلم (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٥٨)

وأعد العرب كمينين لجيش الروم, وأمرهما عمرو أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته إذا ما سنحت لهما الفرصة, وحدثت المعركة فى الموضع الذي يسمى اليوم (العباسية) استولى العرب بعد انتصارهم هذا على حصن أم دينين (بين عابدين والأزبكية الآن) وهرب من كان فيه من الروم إلى حصن بابليون أو إلى حصن نقيوس (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٦٣).



يوحنا النقيوسى وضبط تواريخ غزوات العرب لمدن مصر.

ولقد أشرق على تاريخ احتلال العرب لمصر وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به وذلك من خلال مخطوط ليوحنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس. فقد كان حاضرا تولية البطرك أسحق فى سنة ٦٩٠ م. ولعله قد ولد قريبا من وقت الغزو، ولكن لابد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الغزو ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى. فقد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعى النظر بدقتها العظيمة، وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمى فى ترتيب تواريخ غزو العرب لمصر.

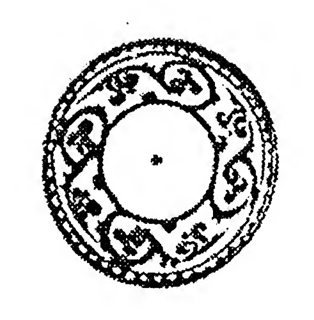
فقد ذكر أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون وقد عوّلت على أن تلقى العرب قبل أوان فيضان النيل، فالنيل يبدأ فيضانه فى أواسط الصيف ويبلغ ذروته فى الاعتدال الخريفى، وعلى ذلك يمكن أن نقول أن وقعة هليوبولس كانت فى يوليه أو فى أغسطس، فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذرى أو الطبرى فى أن غزو العرب كان فى سنة ٦٤٠، وكان أول إمداد جيش العرب أبصرها الروم من حصن بابليون فى ٦ يونيه، وهو اليوم الذى قام الدليل عليه من قول ساويرس وغيره، على انه كان من أثبت الأيام ذكرا عند القبط، والمستر بروكس محق بغير شك فى أنه اعتبر المطلبين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعد المائة من تاريخ يوحنا فى غير موضعهما، فالعنوان الذى يمكن فهمه من المطلب الخامس عشر بعد المائة هكذا "كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشر من الدورة القمرية واستولى على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشر" فى حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذى يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب.



زخرفة ملونة
على حجر جيري

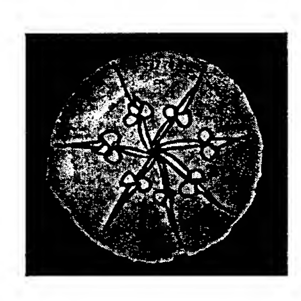
وقد ورد فى المطلب الثالث عشر بعد المائة أن موت هرقل كان فى السنة الحادية و الثلاثين من حكمه فى الشهر المصرى بكاتيت، و هو يوافق الشهر الرومانى فبراير فى السنة الرابعة عشر من الدورة، و هى سنة ٣٥٧ للشهداء. و قد جاء فى المطلب الخامس عشر بعد المائة أن غزو نقيوس كان فى يوم الأحد الذى بعده (١٨ جنبوت) فى السنة الخامسة عشر من الدورة. و قد قال بروكس، متبعا فى ذلك رأى زوتنبرج، أن تاريخ

موت هرقل هو التاريخ الوحيد الذى يمكن أن نفحصه، و هو مذكور فى ذلك الكتاب فى منتهى الدقة، فأننا نعلم أن هرقل قد مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ م. و قال أن هذه الحقيقة دليل قوى على أننا يمكن أن نعتبر التواريخ الأخرى صحيحة دقيقة. و لكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسه مضطرا بعد هذا القول إلى أن يذكر التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة، فقد قال بروكس فى معرض ذكره سنى الدورة التى ورد ذكرها فى عنوان المطلب الثالث عشر بعد المائة: " و لا تظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى فى هذه التواريخ". ثم اظهر بعد ذلك أن يوم ١٨ جنبوت الواقع يوم الأحد لم يكن فى السنة الخامسة عشر من سنى الدورة كما قال يوحنا النقيوسى. و قصارى قوله هو أن الواجب أن نغير التاريخ الذى ذكره يوحنا، وهو يوم ١٣ مايو سنة ٦٤٢ م. فنجعله ١٣ مايو سنة ٦٤١ م. و معنى هذا أن نبرهن على خطأ جزء من قول يوحنا. (انظر «يوحنا النقيوسي، تحرير وتدقيق: عبد العزيز جمال الدين).



وبعد هذا فإنا نجرؤ أن نقول إن هذا الرأى لا حاجة لنا به و لا ضرورة تدعو إليه، فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ فى فهم ما قصده يوحنا بقوله "سنى الدورة" فان ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سنى الدورة التى ابتدعها قسطنطين، وكل منها خمسة عشر عام، ولكن يوحنا نفسه يسميها بوضوح "الدورة القمرية" وليس يقصد دورة قسطنطين. حقا إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان فى عصر يوحنا غير مهمل بل كان لا يزال مستعملا فى مصر و لكن المقصود

هو أن الدورة لم تكن مستعملة فى التأريخ المدنى، ولكن ما دام التأريخ بدورة قسطنطين كان غير شائع فى مصر فقد كان يوحنا معذورا كل العذر فى أن يعمد إلى التأريخ بالتقويم الدينى الخاص بالكنيسة المصرية، وقد كان على تمام الإلمام به، إذ كان رجلا من علماء الأساقفة.



وتسير عبارة النقيوسى بعد ذلك سيرا طبيعيا فإنه بعد يوم عيد الصليب بقليل ذهب المقوقس إلى بابليون يطلب لقاء عمرو، وقد أثبت ابن قتيبه أن عودته من غزوته فى الدلتا كانت فى ذى القعدة من سنة (١٢ أكتوبر/ ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١ م.) وهى الغزوة التى لم ينجز فيها شيئا من غزواته. وهذا معناه أن ذهاب المقوقس إلى بابليون كان نحو آخر أكتوبر وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح فى ١٧ أكتوبر كما يزعم بروكس، فإن عمرا إذا كان قد عاد إلى بابليون فى أول ذى القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لابد من مضى أيام عدة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ولهذا لا نرى أن الصلح قد تم قبل آخر ذى القعدة.

ونرى فى الحقيقة أن الصلح الذى اتفق المقوقس مع عمرو عليه قد وقع فى ٨ نوفمبر على وجه التحديد، وقد كان من شروط هذا الصلح أن تباح مدة هدنة قدرها أحد عشر شهرا وكان على جنود الروم أن تجلو عن اسكندريا فى أثنائها. وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م. بأحد عشر شهرا إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء اسكندريا للعرب. ولكن ليس ثمة من سبب يحدو بنا إلى أن نقول إن جيش

الروم قد بقى فى اسكندريا إلى آخر يوم من أيام الهدنة، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر. وإذا حسبنا مدة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر. وأما بروكس فإنه يؤكد أن تاريخه، أى ١٧ أكتوبر، يتفق كل الأتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار إستمر تسعة أشهر بعد موت هرقل. وكانت وفاة هرقل فى يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١ م. فإذا نحن عددنا المدة بالحساب العربى وقع آخر أجل الهدنة فى شهر نوفمبر، ولكن المقريزى قد ذكر أن غزو اسكندريا كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام، واليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ م. يوافق يوم ٢٣ صفر، فإذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا الحساب يوم ٢٨ ذى القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر.



بردية ملونة من العهد القديم قصة النبى موسى ويلاحظ أن الكتابة بالقبطية وكتبت صوتياتها بحروف عربية

هذا ما نراه التاريخ الصحيح وقد لاحظ بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن المقوقس عند عودته من بابليون إلى اسكندريا طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح إلى الإمبراطور هرقلوناس، وقد كانت وفاته فى إنتهاء هذا الشهر (نوفمبر)، ولكن من الأمور التى تستحق البحث أن نرى هل مؤرخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأول وتسليم اسكندريا يجعلون وفاته فى يوم ١١ فبراير أو فى ١١ مارس، فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت فى ١١ مارس، ولعل هذا قد ضلل مؤرخى العرب، فإنه من العجيب أننا إذا حسبنا مدة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثانى) بلغ الحساب

بنا يوم ٢٧ من ذى الحجة (أى ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أول محرم (١٠ ديسمبر) الذى ثبت فى أخبار العرب أنه كان يوم احتلال اسكندريا.

وبعد فقد برهن بروكس برهانا قويا على أن التواريخ الباقيه إلى الآن من التواريخ التى ذكرها يوحنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطرك بطرس خلف المقوقس على الملكانيين كانت فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ م. وعلى أن الروم أخلوا اسكندريا فى السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة البابا بنيامين من منفاه فى الصعيد كانت فى سنة ٦٤٤ م. ولعلها كانت أقرب إلى نهاية العام منها إلى أوله.



بردية من الكتاب المقدس كتبت بالقبطية وذكرت صوتياتها بالحروف العربية

ولكننا مضطرون إلى أن نخالف بروكس فى أمر أو أمرين من رأيه ذاك فإنه ينقل عن ابن بطريق وابن عبد الحكم والمكين أنهم اتفقوا على أن مدة حصار اسكندريا كانت ١٤ شهرا، وعلى ذلك جعل بدء ذلك الحصار فى أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠ م. وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر، ولما كان احتلال بابليون قد وقع فى ٩ إبريل سنة ٦٤١ م. كان أول الحصار فى أوايل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ م. وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين (بابليون واسكندريا) فى وقت واحد تقريبا وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة فلا يوجد مؤرخ يدعم حجة بروكس فيما ذهب إليه بل إن المراجع كلها تنقض رأيه، فإن يوحنا نفسه يقول أن عمرا غادر حصن بابليون بعد احتلاله فى ٩ إبريل سنة ٦٤١ م. وإنه احتل نقيوس بعد

ذلك بشهر، وإذا نحن أرخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأول الذى ذكره الكندى وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذى ذكره المؤرخ الذى نقل عنه المقريزى، كان ذلك موافقا كل الموافقة لما جاء فى مخطوط يوحنا. وسار جيش عمرو بعد احتلال نقيوس إلى الشمال. وإنه لمن الغريب أن يكون قد حاصر اسكندريا فى آخر يونيه أو فى أوايل يوليه من عام ٦٤١ م. ومن هذا الوقت تبدأ مدة الحصار الأربعة عشر شهرا وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ م. ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء فى تواريخ ابن بطريق (أوتيخا) وابن عبد الحكم والمكين. أى أن مدة الأربعة عشر شهرا يجب أن تحسب من تاريخ الصلح الذى كان فى سنة ٦٤١ م.



مخطوط موسيقا من القرن السادس الميلادي

هذه النتيجة تفضى بنا إلى اتفاق يكاد يكون تاما مع ما جاء فى الطبرى إذ يقول إن مدة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم) وإذا حسبنا ما بين أول يوليه و ٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخذناهما وهو فى نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك الاختلاف الكبير بين المؤرخين فى تقدير مدة الحصار. فمن الواضح أن بعضهم بدأ حسابه من أول وقوف العرب دون اسكندريا إلى معاهدة التسليم، وبعضهم حسب المدة إلى وقت إخلاء الروم للمدينة فعلا. والظاهر أن عبارة السيوطى فى هذا الصدد فيها خلط بين ما جاء فى الطبرى وما جاء فى ابن بطريق وهى خطأ واضح.

وأما اليعقوبى والبلاذورى وابن خلدون وسواهم

من المؤرخين فإنهم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر، وظاهر أنهم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معاهدة الصلح. فإذا أضفنا إلى تلك المدة مدة الهدنة وهى أحد عشر شهرا رجعنا إلى أن المدة بين أول مجيء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهرا ومن ذلك يتضح أن هذه الأخبار وإن ظهر عليها شيء من الاختلاف يمكن التوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريبا يسترعى الأنظار.

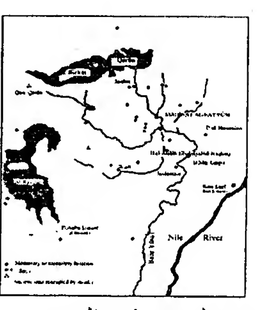
وكذلك نخالف ما ذهب إليه بروكس من أن فترة الأشهر الأحد عشر قضاها عمرو فى غزو بنتابولس (يقصد مدة الهدنة) فإنا نسلم بأن نص عبارة مخطوط يوحنا تساعد على الأخذ بهذا الرأى، وذلك لأن الفقرة القصيرة التى ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت المقوقس مباشرة، ولكن قد جاء ذكر موت المقوقس فى موضع آخر بعد ذلك فى مطلب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره. وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمرا من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك اسكندريا فهى القاعدة الوحيدة التى كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة لبرقة (غزوة بنتابولس).

وأما ابن الأثير فإنه يورد قولا قاطعا فى ذلك التاريخ فيجعل تلك الغزوة فى سنة ٢٢ هـ. وأما سواه من مؤرخى العرب فإنهم مهما اختلفوا فى ذلك التاريخ متفقون على أن احتلال برقه (بنتابولس) أنما كان بعد سنة من تملك اسكندريا. وعلى هذا فإنا جعلنا تاريخ غزوة بنتابولس فى الشتاء الذى أعقب إخلاء اسكندريا.



خريطة لمصر من العصور القديمة توضح النيل ومنابعه والبحر الأحمر

وقد بدأت السنة ٢٢ هـ. فى ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ م. فإذا كانت الغزوة قد وقعت بعد أول السنة بقليل كان ذلك إيضاحا سهلا لما وقع فيه مؤرخو العرب من الاختلاف بين سنة ٢١ وسنة ٢٢هـ.
ولسنا نشك فى أن عمرا كان كثير الأعمال فيما حول بابليون، فقد هاله حجم الغنائم والأسلاب التى كان عليه جمعها، ولعله كان كذلك يتجهز لإتمام غزو الصعيد وقد كان بغير شك يستعد لحفر قناة تراجان، فقد جاء فى البلاذورى أن القحط فى بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (أولها ١٠ ديسمبر ٦٤١ م) وجاء فى تاريخ ابن الأثير أن عمرا أرسل فى ذلك العام القمح إلى المدينة فى الخليج الذى حفره ولعل ذلك كان فى أغسطس أو سبتمبر عام ٦٤٢ م..



مدن الفيوم وقت الغزو.

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا فى الشتاء فى وقت إنخفاض النيل كما أنه ما كان يمكن سير السفن فيه فى غير فصل الصيف عند فيضان النيل وكان عمرو فى شتاء سنة ٦٤٠/ ٦٤١ م. مقبلا على حصار حصن بابليون مشتغلا به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا فى شتاء سنة ٦٤١/ ٦٤٢ م كما يفهم من تاريخ ابن الأثير.

« أواخر يوليو ٦٤٠ م - الاستيلاء على الفيوم »

لما بلغت أنباء نصر العرب إلى الفيوم غادرها من بها، فخرج (دومنتيانوس) من المدينة, فى الليل وسار إلى (أبويط) ثم هرب إلى نقيوس, ولما بلغ نبأ هروبه إلى عمرو بن العاص, بعث بكتيبة من جنده عبروا النهر، وفتحوا مدينتي الفيوم وأبويط وأحدثوا فى أهلها مقتلة عظيمة (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٦٤).

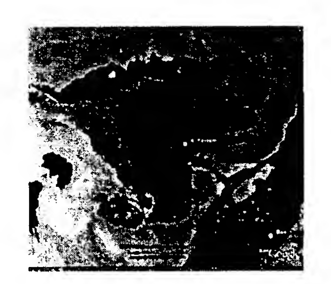
أوائل سبتمبر ٦٤٠ م - بدء حصار بابليون* (مدة الحصار كانت ٧ أشهر)

كان حصنا عظيماً , أسواره كانت بارتفاع نحو ٦٠ قدماً وسمكها ١٨ قدماً وبه أربعة أبراج بارزة بينها مسافات غير متساوية, وكان ماء النيل يجرى تحت أسواره والسفن ترسوا تحتها, وكان به صرحان عظيمان, وكل صرح من هذين الصرحين: دائرياً يبلغ قطره نحو مائة قدم, وكان الصاعد لأعلى الصروح يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه: المقطم من الشرق وإلى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا من الغرب وإلى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب , وكان الناظر من هناك لا يقف شئ دون بصرة حتى يبلغ مدينة عين شمس (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٧٠).

وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون مانعة فى ذلك الوقت , وكانت تزيد من قوة حصن بابليون وخطره الحربى لأنها فى وسط النهر تملك زمامه , ويظهر من قول بن دقماق: أن العرب غزوا تلك الجزيرة فى أثناء حصارهم لحصن بابليون فلما خرج الروم من هناك هدم عمروا بعض أسوارها وحصونها (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٧٢).

منتصف نوفمبر ٦٤٠ م - هرقل يستدعى «المقوقس» إلى القسطنطينية.

وصل «المقوقس» إلى القسطنطينية , بعد استدعاء الإمبراطور هرقل, وحاول أن يدافع عن نفسه أمام الإمبراطور بكلام لم يقتنع به هرقل, وغضب عليه واتهمه بأنه خان الدولة وتخلى عنها للعرب, ونعته بالجبن والكفر وأسلمه إلى حاكم المدينة، فشهر به



الفيوم من الجو.

* يقع حصن بابليون الآن عند محطة مار جرجس لمترو الأنفاق وكان الأمبراطور تراجان قد أمر ببنائه في القرن الثاني الميلادى في عهد الاحتلال الرومانى لمصر وقام بترميمه وتوسيعه وتقويته الإمبراطور الرومانى أركاديوس في القرن الرابع حسب رأى العلامة القبطى مرقص سميكة باشا. وقلعة تراجان هذه غير القلعة القديمة التي ذكرها إسترابو المؤرخ وكان موقعها إلى الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابليون الحالى.

ويلاحظ أنه استعمل فى بناءه أحجار أخذت من معابد فرعونية وأكملت بالطوب الأحمر مقاسه ١٥/٢٠/٣٠ سم ولم يبق من مبانى الحصن سوى الباب القبلى يكتنفه برجان

وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريداً، (فتح مصر، ألفريد بتلر ص ٢٨٦).

قرب نهاية عام ٦٤٠ م عودة القتال بين العرب والروم على أرض مصر.

بعد رفض هرقل لمعاهدة «المقوقس»، عاد القتال بين العرب والروم حول حصن بابليون، إلى أن وصلت الأخبار بموت هرقل.

١١ فبراير ٦٤١ م - صراع على العرش البيزنطي.

توفى هرقل بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة، وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين تقريباً، وبعد وفاته تولى الأمر بعده بعهد منه ولده قسطنطين أبن زوجته الشرعية أدوقية، ولكن كان له أبن غير شرعى من زوجة أخرى أسمها «مرتينة» (ابنة أخته) سممت الإمبراطور قسطنطين ابن هرقل الشرعى بمؤامرة مع الجيش ونصبت هرقلوناس ابنها الغير شرعى مما أضعف روح القتال فى الجيش البيزنطى.

إبريل ٦٤١ م - تسليم حصن بابليون للعرب.

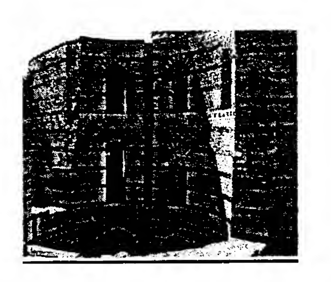
كان لموت هرقل أثراً سيئاً على جنود حصن بابليون , ومن ناحية أخرى أخذ «المقوقس» فى تثبيط همة وشجاعة جنود الروم , فعرض قائده (جورج) أن يسلم الحصن للعرب على أن يأمن كل من كان هناك من الجنود على أنفسهم , فقبل عمرو الصلح , وكتب عهد الصلح (بين جورج وعمرو) على أن يخرج جند الروم من الحصن فى ثلاثة أيام , فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام , وأما الحصن وما فيه من ذخائر وآلات حرب فيأخذها العرب , ويدفع أهل

كبيران - وقد بنى فوق أحد البرجين الجزء القبلي منه الكنيسة المعلقة - كما بنى فوق البرج الذي عند مدخل المتحف القبلي كنيسة مار جرجس الروماني للروم الأرتودكس (الملكيين) أما باقي الحصن وعلى باقي السور في بعض أجزاءه من الجهه الشرقية والقبلية والغربية بنيت الكنايس - المعلقة - وأبو سرجة - ومار جرجس - والعذراء قصرية الريحان - ودير مار جرجس للراهبات - والست بربارة - ومعبد لليهود.

٦٤١ م سقط حصن بابليون في يد عمرو بن العاص بعد حصار دام نحو سبعة أشهر.

ويعرف الحصن الروماني بقصر الشمع أو قلعة بابليون وتبلغ مساحته حوالي نصف كيلومتر مربع ويقع بداخله المتحف القبطي وست كنائس قبطية ودير. أطلاق اسم قصر الشمع على هذا الحصن أيضاً يرجع إلى أنه في أول كل شهر كان يوقد الشمع على أحد أبراج الحصن الذى تظهر عليه الشمس ويعلم الناس بوقود الشمع بانتقال الشمس من برج إلى أخر.

المدينـة للمسـلمين الجزيـة , وكانـت مـدة الحصـار سبعة أشـهر (كتـاب فتح مصـر للمـؤرخ / ألفريـد بتلر ص ٢٩٩).



حصن بابليون بعد تجديده.

يوم ٩ إبريل سنة ٦٤١م انتهى الحصـار الذى تم ضـربه علـى (حصـن بـابليون) لمـدة سـبعة أشـهر وبعدها ركـب عمـرو بخيلـه عبـر الصـحراء يريـد إسكندريا.

فى ١٣مايو ٦٤١ م. الاستيلاء على نقيوس

ثــم مــر العــرب بمدينــة قديمــة معروفــة باســم (طرنــوتى)، أو كمــا تســمى الآن (الطرانــة)، وحدثت هناك موقعة وانهزم فيها الروم وواصل (عمرو) سيره إلى نقيوس.

مضــارب البــدو حــول بابليون.



"خربة وردان"

وفى اثناء مواصلة العرب طريقهم إلـى "نقيـوس"، مـروا بقريـة صـغيرة علـى الجانـب الغربـى للنيل تعــرف اليــوم بـــ (خربـــة وردان)، ويـــذكر (المقريزى) قصة هذه القرية فيقول: كان (عمـرو) حين توجه إلى إسكندريا خرب القرية التـى تعـرف اليوم (بخربـة وردان) فقتـل أهلها وخربهـا ، فهـى خراب إلى هذا اليوم.

تم استيلاء العـرب علـى «نقيـوس» ومـا حولها (تقـع مدينـة نقيـوس علـى فـرع رشـيد فـى الشـمال الغربـى مـن « منـوف»)، قريـة أبشـادى وزاويـة رزين الآن) وكانت مدينـة عظيمـة حصـينة حافلـة بالآثـار المصـرية، وكانـت مركـز لأسـقفية كبيـرة، وأشـهر أسـاقفتها "يوحنا النقيوسـى ".

استطاع العرب أن يقتحموا الحصن والمدينة، بعد

هروب قائد حاميتها الرومانى (دومنتياس) الذى لاذ بالفرار إلى إسكندريا، ودخلوا المدينة وأوقعوا بأهلها وقعة عظيمة، وقال يوحنا النقيوسى: "انهم قد قتلوا كل من كان فى الطريق من أهلها، ولم ينج حتى من دخل الكنايس محتمياً، ولم يدعوا رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً إلا و قتلوه، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا (مدينة صوونا)، وجدوا بها (أسكوتاوس) وعائلته، وكان يمت بالقرابة إلى القائد (تيودور) وكان مختبئاً فى حايط كرم مع أهله ، فوضعوا السيف فيهم فلم يبقوا منهم أحد.

يقول بتلر (ص ٢٤٨) وقد أثبتنا هنا نص قول (يوحنا النقيوسى) لأنه يدل على ما كان عليه (القبط) من قلة حب للعرب الفاتحين، وما كان لهم أن يحبوهم وقد كان منهم ما كان، وقد كانت "نقيوس" معقلاً من معاقل الدين القبطى، وكان العرب فى عراكهم لم يفرقوا بين قبطى وروميى، " فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٤٧ ".





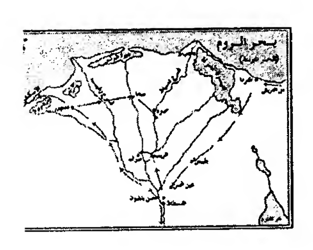
عملات بيزنطية

"معركة كوم شريك"

أرسل عمرو بن العاص أحد قواده ويدعى (شريك بن سمى بن عبد يغوث) ليقضى على فلول الجيش الرومانى المهزوم فأدركه الروم عند قرية تقع فى شمال (الطيرية) فقاتلهم فاعتصم بمنطقة تسمى (الكوم) حتى أدركته الإمدادات التى أرسلها له عمرو مع أحد قواده ويدعى (مالك بن ناعمة الصدفى) فهزمت الروم، وسميت تلك المنطقة باسم (كوم شريك) نسبة الى (شريك). ثم سار (عمر بن العاص) بعد ذلك بمحاذاة الترعة التى تلى الصحراء فى اتجاه الشمال الغربى حتى

وصل إلى (الدلنجات) ومضى فى طريقه حتى اعترضته حامية الروم عند (سنطيس) وهى فى جنوب دمنهور بسبعة كيلو مترات وهناك دارت المعركة وانتصر العرب ولاذ الروم بالفرار.

معركة كريون





وبعد مذبحة «نقيوس» والاستيلاء عليها ، اتجه العرب إلى إسكندريا وقطع مسافة عشرين ميلا حتى بلغ حصن " كريون"، والكريون مدينة بالقرب من قرية معمل الزجاج (كفرالدوار)، وكانت آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) وإسكندريا، وكان لها شأن عظيم فى تجارة القمح ... و كانت مركز تجميع محصول القمح من سائر بلاد مصر وبها كانت صوامع ضخمة لتخزينه (كان بها الكثير من الأديرة الغنية) استعدادا لنقله إلى إسكندريا فى طريقهه إلى القسطنطينية أو العالم الغربى للتجارة (عن طريق البحر المتوسط)... ما كان لها «اى كريون» من خطر عظيم فى الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التى عليها كل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن من المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون (مصر القديمة حاليا) ولا حصن «نقيوس»، وحدث هناك قتال عنيف، ولم يكن القتال فى تلك الواقعة مثلما حدث فى "نقيوس"، بل كان قتالاً شديداً أستمر (بضعة عشر يوما) .

ويظهر لنا أن تلك الواقعة لم تكن نصراً لإحدى الطائفتين بل تساوت الكفتان تقريبا، ولكن مؤرخى العرب يقولون أنها كانت نصراً عظيماً لهم.

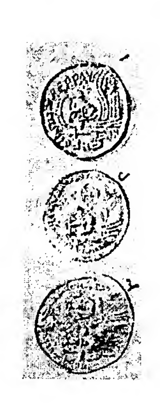
وباحتلال العرب لكريون، خلا أمامهم الطريق

إلى إسكندريا، وكان عند جيش عمرو ٢٠ ألفاً غير الحاميات التى تركها فى «بابليون» و«نقيوس» وغيرها... (كتاب فتح مصر للمؤرخ /ألفريد بتلر ص ٢٥٠ و ٢٥١).



٢٥ مايو ٦٤١ م. - موت الإمبراطور قسطنطين ابن هرقل.

بعد موت هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م. كان قد تولى الملك بعده ولداه وهما: قسطنطين (ابنه من زوجته أدوقية)، و (هرقلوناس) ابنه من زوجته الغير شرعية (مرتينة) ... كان قسطنطين قد قام بإعداد العدة لجيش و تم تجهيزه لإرجاع ما فقدته الإمبراطورية من أراضى، وأعد سفن لإرسالها إلى مصر، وما كاد يعد كل ذلك، حتى مرض ومات فى ٢٥ مايو ٦٤١ م. بعد أن حكم مائة يوم فقط) وردد المؤرخين أنه كانت هناك مؤامرة بين (مرتينة) وقواد الجيش حتى يجلس ابنها (هرقلوناس) على كرسى العرش البيزنطى، فقد خافت أن ينتصر البيزنطيين على العرب فيقوى قسطنطين ويصبح إمبراطورا قوياً مثل أبيه خاصة أن هرقل كان يدربه على إمساك زمام الحكم بعد وفاته، وعندما جلس (هرقلوناس) على كرسى العرش البيزنطى سار على خطة مخالفة لخطة (قسطنطين فأطلق سراح الخائن (المقوقس) وأرجعه إلى مصر على أن يصالح العرب فى إسكندريا.



العملة الثانية والثالثة.. للإمبراطور هرقل وأبنه قسطنطين
العملة الثانية ذهبية سكت عام ٦١٣- ٦٢٩م
العملة الثالثة ذهبية سكت بين ٦٢٩-٦٣١ م –

آخر يونيو ٦٤١ م. محاولات هجوم العرب على إسكندريا

سار (عمرو بن العاص) بجيشه متجهاً إلى إسكندريا من ناحية الجنوب الشرقى للمدينة،



مكتبة إسكندريا، أعظم مكتبات العالم القديم.

وكانت إسكندريا (كما وصفها بتلر ص ٣١٩) ذات عظمة بارعة نادرة تتجلى لمن يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأراضيها، وكان يرى من بعد مسلاتها و منارتها الشهيرة، فقد كانت اسكندريا حتى القرن السابع من أجمل مداين العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدلها، إلا روما.

وكانت الأسوار منيعة تحميها (أى إسكندريا) من ضربات المنجنيق القوية، ولم تكن للعرب خبرة فى فنون الحصار وحربه، وعندما هاجم (عمرو بن العاص) بجيشه فى أول هجومه على أسوار المدينة، كانت هجمته طائشة غير موفقة، فرمت منجنيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلاً من الحجارة العظيمة، فارتدوا ولم يجرؤ بعد ذلك على أن يتعرض لقذائفها، واقتنع العرب أن يجعلوا عساكرهم بعيداً عن منالها، و انتظروا أن يتجرأ عدوهم ويحمله التهور على الخروج إليهم.



استخدام النار الأغريقية فى المعارك البحرية.

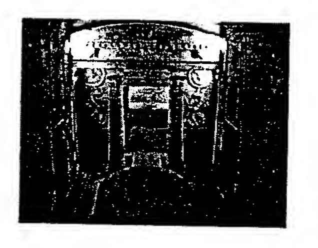
ولم يكن حصار إسكندريا كاملا، فقد كان البحر مفتوح لهم يحمى المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة (مريوط) تحميانها من الجنوب، وكان إلى الغرب ترعة (الثعبان) فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقى، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من ذلك الفرج، وقد تأكد (عمرو) انه لن يستطيع غزوها بالهجوم عليها.



عمود بومبى باسكندريا.

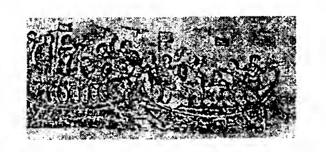
وكان الأهالى قد هاجروا من المناطق حول إسكندريا، فصارت بيوتهم و قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء الأسوار فيئاً للعرب (أى غنيمة)، فغنموا منها غنيمة عظيمة، وهدموا كثيراً منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك فى سفن بالنيل إلى حصن بابليون.

مضى على ذلك إلى ما بعد شهر يونيو، ولم يكن (عمرو) بالرجل الذى يخادع نفسه أو يعلل لنفسه بأنه باستطاعته فتحها (أى إسكندريا) عنوة، فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وعلى ذلك عول على أن يخلف فى معسكره جيشاً كافياً (للرباط)، وأن يسير هو مع من بقى من الجنود، فيضرب بهم فى بلاد مصر السفلى (مدن الدلتا / الوجه البحرى).
سار (عمرو بن العاص) بمجموعة من جنوده إلى (كريون) ومن ثم إلى دمنهور ثم سار إلى البحيرة والشرق خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم (الغربية).
كما كتب المقريزى فى (المواعظ و الاعتبار فى ذكر الخطط و الآثار – الجزء الأول) الذى يصف الهجوم العربى فى الوجه البحرى و يصف المذابح التى تمت و سبى نساء الأقباط (تم إرسالهم إلي المدينة للتسرى و الاستمتاع بهم) وحتى احتلال إسكندريا و الاستيلاء عليها.
وفى اثناء القدوم على غزو إسكندريا كانت هناك المعارك التى خاضتها (القرى) ضد الغزاة العرب و منها معركة ترنوط - معركة بسلطيس، وقد قامت قرى خيس، بلهيب، سلطيس، مصيل، قرطسا، سخا » بقتال العرب بعد سبى الأقباط من النساء و الأطفال.
فى هذه الظروف أعاد الإمبراطور الجديد (هرقلوناس) المقوقس من منفاه (كان هرقل الكبير قد نفاه لخيانته) إلى إسكندريا وأباح له أن يصالح العرب فأبرم (عمرو) «عقد الصلح» مع "المقوقس"، ثم سار على ضفاف النيل، حتى بلغ " سخا " وكان ذلك الموضع إلى الشمال من مدينة تندا (طنطا) على نحو أثنى عشر ميلاً منها



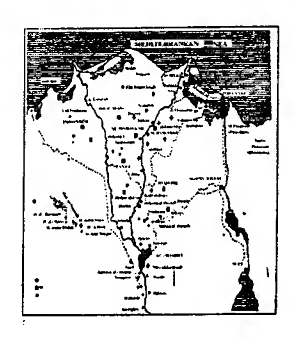
"كتاكومب" مقبرة كوم الشقافة بإسكندريا.

وهو قصبة الإقليم وكان موضعاً حصيناً، ولم يفلح (عمرو) فى تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه، فساروا نحو الجنوب حتى بلغوا (طوخ)... ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس) وقد ارتدوا بعد ذلك عن هاتين المدينتين القريبتين، ولم يستطيعوا فتحهما، ولم يجد أهاليهما مشقة فى صد العرب.



هجمات حربية على صفحات النيل.

ويرد أيضا مع هذه الأخبار ذكر غزو (عمرو) للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل أن العرب قد بلغوا فيها (مدينة دمياط)، ولعل تلك الغزوة كانت على يد سرية (عمرو) فى هذا الوقت نفسه، ولم يكن من أمرها غير (إحراق المزارع)، والتى قد أوشكت أن ينضج ثمرها فلم تفتح شيئاً من المدائن فى مصر السفلى.



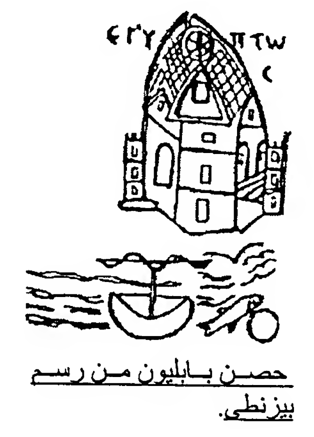
مدن الدلتا وقت الغزو.

ولنذكر أن العرب قد قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم ١٢ شهراً إلى ذلك الوقت، وبعد تلك الغزوات التى أوقع فيها (عمرو) بالبلاد وغنم منها، عاد بعدها إلى "حصن بابليون" ومن معه دون أن يجنى فائدة كبيرة ... وإن لنا لدلالة فى غزواته تلك فى مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال فى مواضع كثيرة، وعجزه فى كل ما حوله من الفتح فى بلاد الشمال القصوى، فإن ذلك يزيدنا برهاناً و تحت أيدينا من البراهين على فساد الرأيين اللذان يذهب إليهما الناس أولا: من أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل. ثانيا:أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه.

٨ نوفمبر ٦٤١ م.- كتابة المقوقس عقد تسليم إسكندريا للعرب دون علم أهلها.

وأما ما كان يجول فى قرارة و فكر (المقوقس) من مختلف النزعات فأمر لا يصل إليه الحدث، ولا يبلغه التصور، فقد طمع فى أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية فى مصر، ويكون عند ذلك فى سلطانه الدينى بإسكندريا، كما كان حاكم اليمن الفارسى الذى سلمها للعرب مقابل بقاء ولايته عليها تحت جباياتهم، ولسنا نجد رأياً آخر أكثر ملائمة لما بدا منه، فهو خير رأى نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين (عمرو) من صلات خفية، وما اقترفه من خيانة دولته الرومانية، فيوصف بأنه خائناً للدولة فى ما توهمه صلاحاً للكنيسة.

وكان (عمرو) قد عاد إلى (بابليون) بعد حروبه فى بلاد مصر الوسطى، كى ما يستريح بأصحابه فى أوان (فيضان النيل)، وفيما كان هناك فى الحصن وافاه (المقوقس)، وقد جاءه يحمل (عقد الإذعان والتسليم)، فرحب به (عمرو) وأكرم وفادته.



حصن بابليون من رسم بيزنطى.

وكتب « عقد الصلح » وتسليم الإسكندرية يوم ٨ نوفمبر ٦٤١ م وأهم شروطه:

١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢) تعقد هدنة لنحو ١١شهراً (وهذه تمام أحد عشر شهرا من الشهور القمرية، و هى أقل إذا حسبت بشهور الروم). تنتهى فى أول شهر بابه القبطى، الموافق ٢٨ من شهر سبتمبرمن سنة ٦٤٢ م.

٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه

الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال اسكندريا. وأن يكف الروم عن القتال.

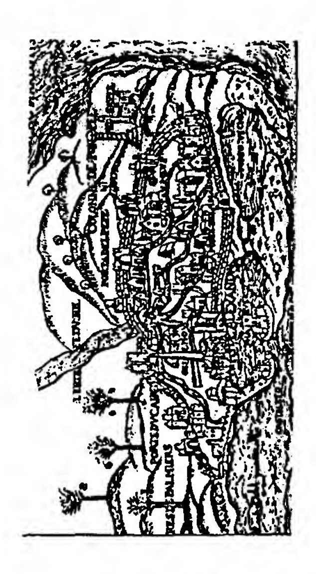
٤) أن ترحل الحامية البيزنطية من اسكندريا في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل، وعلى أن يدفع كل شهر جزاءً معلوماً ما بقى فى أرض مصر فى رحلته.

٥) أن لا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.

٦) أن يكف المسلمون عن الاستيلاء على الكنايس (وهدمها) ولا يتدخلوا فى أمورهم.

٧) أن يباح لليهود الإقامة فى اسكندريا.

٨) أن يبعث الروم رهاين من قبلهم، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غيرالجند ضماناً لتنفيذ العقد. (فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٧٧). و قد أورد يوحنا النقيوسى هذه الشروط بحذافيرها و لكن ليس بنفس الترتيب.

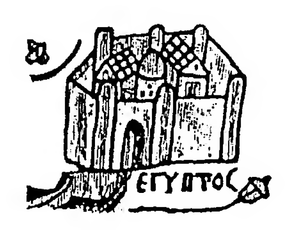


خريطة قديمة لإسكندريا. لاحظ أنها مرسومة والشمال لأسفل كما كانت عادة رسامى الخرائط فى ذلك الوقت.

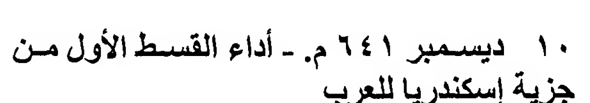
وقع «عقد الصلح» فى (بابليون) فى يوم الخميس ٨ نوفمبر ٦٤١ م وكان لا بد من إقراره من إمبراطور الروم، أرسلت الرسائل إلى الإمبراطور (هرقلوناس) تفضى إليه بشروط الصلح، وطلب منه (المقوقس) أن يقرها، ثم دعا (المقوقس) كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، وأخذ يسهب فى ذكر الضرورة التى استوجبت عقده، وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكن كان فوزاً أشأماً.

ويقول بتلر ص ٢٩١): فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذى عقده (المقوقس) لم تكن ثمة ضرورة

فى الحرب تدعو إليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه، لا يمر بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة وكانت اسكندريا تتحمل وبمكن أن تصبر على القتال مدة سنتين أو حتى ثلاثة خاصة أن البحر مفتوح أمامهم، ريثما يلى الأمر حاكم صلب القناة، فإذا ما كان ذلك، لم يكن من المستبعد أن تعود مصر إلى الروم ... ولكن (المقوقس)أسلمها للعدو خفية بغير أن تدعوه إلى ذلك ضرورة، وإننا لا نكاد نعرف فى تاريخ اسكندريا أنها أخذت مرة عنوة (ولكن تم أخذها بخيانة من داخلها) وقد خابت آمال أهل اسكندريا بعد ذلك بهذا الفتح.

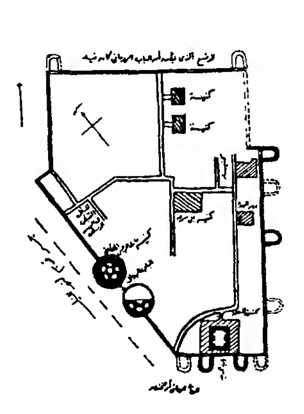


حصن بابليون من رسم بيزنطى.



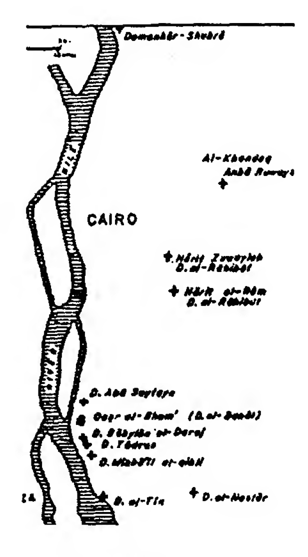
١٠ ديسمبر ٦٤١ م. ـ أداء القسط الأول من جزية إسكندريا للعرب

لم يستطع (المقوقس) أن يبقى خطته فى ستر الخفاء بعد ذلك طويلاً، فقد علم أهل إسكندريا بالأمر بغتة، فقد فاجأهم طلوع فئة من (العرب) إلى (المقوقس) بحسب عقد الصلح و طلبهم تسليم المدينة، فهاج الناس وثارت ثائرتهم لما سمعوا، وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر المقوقس، وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقاً بحياته، إذ تهافت عليه الناس يريدون أن يحصبوه (رجمه) . ولكنه استطاع بما أوتى من بلاغة وفصاحة ونفوذ الملكانيين الموالين له من جند و بيزنطيين، تخفيف جنايته، وتهوين خيانته، فى مقالته التى قالها للناس، وجعل يبرر ما كان منه قائلاً: إنه إنما أضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم، وأن الصلح حقن دمائهم وأمنهم على نفسهم وأموالهم وديانتهم، ومن أراد أن يعيش فى



شكل توضيحى لمحتويات حصن بابليون.

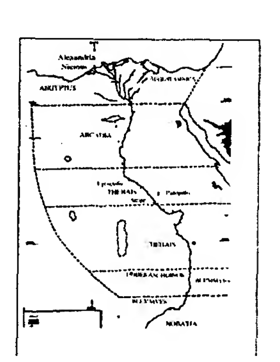
أرض مسيحية كان له الخيار فى ترك إسكندريا. وما كان أمر الخيار بين الهجرة من إسكندريا وبين الإذعان للمسلمين بالأمر الهين، (وبكى المقوقس) وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه بذل جهده فى أمرهم وأن عليهم ان يرضوا بالصلح فلم يتمالك بطريرك الروم (حيث أن بطريرك الأقباط كان هارباً بصعيد مصر بعدما مقتل أخيه) ومن معه إلا أن يرضوا و يوافقوه.
بهذا استطاع (المقوقس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشئوم، وأخذ الناس يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم، ووضعوا المال فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى الذى تدخل منه الترعة، وذهب به (المقوقس) بنفسه ليحمله إلى قائد العرب (كتاب فتح مصر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٢٨٨).



معالم مصر عتيقة وكنايسها.

٢١ مارس ٦٤٢ م. - موت المقوقس
فى أواخر أيامه أستولى عليه الهم وغرق فى الحزن (أى المقوقس)، اجتمعت عليه المخاوف، ففى (القسطنطينية) بويع «هرقلوناس» وحده بالملك فى أواخر نوفمبر ٦٤١ م. وأبعد جميع أصدقاء (المقوقس) وأعيد إلى السلطة من كان عدواً وشديد العداوة له، و خشى أن يأمر الإمبراطور الجديد بنفيه أو قتله، ورأى الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكاراً لا أمل معه فى عودة الرضى عنه، ورأى سياسته فى أمور الدنيا وقد أصابها العار.
رأى (المقوقس) بعينيه فشل سياسته الدينية باضطهاد الأقباط وإرغامهم على الانضمام للكنيسة الملكانية للروم برجوع ملايين من الأقباط فى الوجه البحرى الذين انضموا إلى الكنيسة

الملكانيـة للـروم يرجعـون إلـى الكنيسـة القبطيـة. وكـان أكثـر مـا أصـابه مـن حـزن رفـض عمـرو شفاعته فـى أمـر عـودة (الأقبـاط) الذين كـانوا قد لجأوا إلى إسكندريا إلى (قراهم) وإلى (منـازلهم)، فقد كـان معنـى ذلك عـودتهم لأمـوالهم وممتلكـاتهم التـى نهبهـا الغـزاة العـرب وأحلافهـم مـن البـدو وعملائهم من البيزنطيين، ومات فى يوم الخميس أى يـوم ٢١ مـارس ٦٤٢ م. (كتـاب فـتح مصـر للمؤرخ / ألفريد بتلر ص ٣١٠ و ٣١١).



اقســام مصـــر فـــى الفتـــرة اليونانية والرومانية.

حقيقة القوات التى احتل بها عمرو بن العاص مصر

ومن الضرورى أن نوضح هنا أن جيوش عمـرو بن العاص التى غزت مصر لـم تكـن مكونـة فقط من بدو الجزيرة العربية ولكن كذلك من بدو الشام والجنـد البيـزنطيين الـذين تحـالفوا مـع العـرب، فيذكر المقريزى، تأكيدا لما سبق قوله، فى خططه عـن مواضـع الحمـراوات الثلاثـة مـايلى: خطـط الحمـراوات الثلاثـة: قـال الكنـدى وكانـت الحمـراء علـى ثلاثة بنونية وروبيل والأزرق، وكـانوا ممـن ساروا مع عمرو بن العاص من الشـام إلـى مصـر من عجم الشـام ممن كـان رغـب فـى الإسـلام من قبـل اليرمـوك ومـن أهـل قيسـارية وغيرهم وقـال القضـاعى: وإنمـا قيـل الحمـراء لـنزول الـروم بهـا وهى خطط بلى بن عمـر بـن الحـاف ابـن قضـاعة وفهم وعدوان وبعض الأزد، وهم ثـراد وبنـى بحـر وبنـى سلامان ويشكر بـن لخـم وهزيـل بـن مدركـة بت الياس بن مضـر وبنـى نبـه وبنـى الأزرق وهـم من الروم وبنى روبيل وكـان يهوديـاً فأسلم، فـأول ذلك الحمـراء الدنيا خطـة بلـى بـن عمـر بـن الحـاف

بن قضاعة , ومنها خطة ثراد من الأزد، وخطة الحمراء الوسطى منها خطة بنى نبه وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل، ومنها خطة هزيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، ومنها خطة بنى سلامان من الأزد ومنها خطة عدوان، ومن ذلك الحمراء القصوى وهى خطة بنى الأزرق وكان رومياً حضر الفتح منهم أربعمائة وخطة بنى روبيل وكان يهودياً فأسلم وحضر الفتح منهم ١٠٠٠ رجل .

وخطة بنى يشكر بن جزيلة بن لخم وكانت منازل يشكر مفرقة فى الجبل فدثرت قديماً وعادت صحراء حتى جاءت المسودة يعنى جيوش بنى العباس فعمروها وهى الآن خراب .

وقال أبن المتوج الحمراوات ثلاث أولي ووسطى وقصوى، فأما الأولى فتجمع جابر الأور وعقبة العداسين وسوق وردان وخطة الزبير درب نقاش البلاط طولاً وعرضاً على قدر ذلك، وأما الوسطى فمن درب نقاشى البلاط إلى درب معانى طولاً وعرضاً على قدره، وأما القصوى فمن درب معانى إلى القناطر الظاهرية يعنى قناطر السباع وهى حد ولاية مصر من القاهرة.

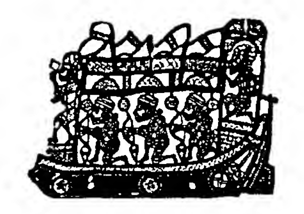
وكانت هذه الحمراوات جل (أحسن) عمارة مصر فى زمن الروم فإذا الحمراء الأولى والوسطى هما الآن خراب، وموضعهما فيما بين سوق المعاريج وحمام طن من شرقيهما إلى ما يقابل المراغة فى الشرق وأما الحمراء الدنيا فهى الآن تعرف بخط قناطر السباع وبخط السبع سقايات وبحكر الخليلى وحكر أقبغا والكوم، ومنها أيضاً خط الكبش وخط الجامع الطولونى والعسكر ومنها حدرة بن قميحة إلى حيث قنطرة السد وبستان الطواشى وما فى شرقيه إلى مشهد الرأس المعروف بزين العابدين.



نقش هندسى يتوسطه صليب بالمتحف القبطى.

عقيدة الحرب عند العرب
وتطبيقها على المصريين

ففي حروب الجاهلية كانت توزع الغنائم بين المحاربين المنتصرين كنوع من الشماتة وكسر أنف المهزوم وفى هتك شرفه فى نسائه ،فهم شعوب بدائية تعيش كالحيوانات المفترسة فليس عندها دين ولاضمير ولا شريعة تحكمها.



معركة على صفحات مياه النيل

وكانت النساء السبايا أهم غنيمة يتلقفها المحارب بشغف مكافأة له لاشتراكه وانتصاره فى الحرب ويقوم فيها شيخ القبيلة أو الرئيس بتوزيع (المرباع) من الغنائم على جيشه أي رُبع الغنيمة من النساء السبايا، ولما جاء الإسلام رد الغنيمة إلى (الخُمس) بنزول الأمر بالخُمس فى القرآن.

وهذه الحقيقة ذكرها المؤرخ العراقي الكبير جواد علي فى كتابه (المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام) الجزء الثاني - الفصل الخامس والخمسون (الحروب) يقول فيه ما نصه: وبعد انتهاء الحرب توزع الغنائم بين المحاربين المنتصرين، ويعطى الرئيس إذا غنم الجيش مع "المرباع" أي ربع الغنيمة. وقد رده الإسلام خمساً،بنزول الأمر بالخمس فى القرآن الكريم......والقاعدة فى الغزو والحروب والغارات، أن القاتل يأخذ سلب المقتول ويأخذ ما يجده عنده، وقد أقر ذلك فى الإسلام، فجعل

السلب للقاتل لا ينازعه فى ذلك منازع، إن ثبت أنه هو القاتل).

فالحروب والغزوات فى الجاهلية وفى الإسلام كانت أهم مورد للغنائم والسلب والنهب وبخاصة غنيمة السبايا من نساء أعدائهم. لذلك كانت تجارة الرقيق والبغاء (أصحاب الرايات الحمراء، وكانت منهن أم عمرو بن العاص) رائجة نتيجة هذه الغنائم التى كان يُكافأ بها المحاربين المرتزقة.



عملة ذهبية إسلامية

هكذا ارتبط دفع الأقباط للجزية عن يدٍ وهم صاغرون مقابل أن يظلوا على حياتهم ودينهم. وأصبحت جباية الجزية أهم من نشر الدين نفسه ومن عجز عن دفع الجزية كان يدخل الإسلام مُكرهاً أو يُقتل، فالجزية كانت المورد الرئيسي لعمرو ورجاله لدرجة أنهم فرضوا على الأقباط أن يتكفلوا بكساء رجال عمرو .. فيقول المقريزى فى المواعظ والإعتبار - الجزء الثانى:
(ففرض عليهم" أي الأقباط "عمرو لكل رجل من أصحابه دينارًا وجبة وبرنسًا وعمامة وخفين) فيما معناه أنهم أتوا من جزيرتهم الصحراوية حفاة وعرايا وأقباط مصر أعطوهم الكساء والمأكل والمأوى، ودفع الجزية ليقتات عليها عمرو ورجاله وبدو الجزيرة من جيوب وبيوت الأقباط الذين قال عنهم عمرو مقولته الشهيرة: (أن مصر إنما دخلت عنوه،وإنما هم عبيدنا نزيد

عليهم كما شئنا ونضع كما شئنا). "تاريخ الرسل والملوك للطبرى صفحة ١٠٦".



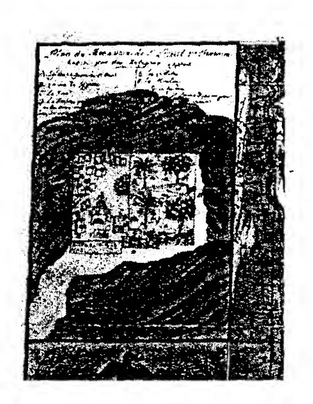
خريطة لدير بالبحر الأحمر ورد في رحلة سيكار.
النيل لأسفل
والبحر الأحمر لأعلى

ويذكر أن عمرو اشترط على أقباط مصر أن يستضيفوا المسلمين فى بيوتهم وبين عائلاتهم ثلاثة أيام كـ(ضيف ثقيل) على بيوت العائلات القبطية ليأكل ويشرب وتُستباح حرمة أهل البيت أمام هذا الضيف الثقيل والمعتدى على حرمات البيوت تبعاً لتطبيق نص العهدة العمرية التى تقول: (نؤوى المارة والمسافرين من المسلمين فى بيوتنا ونضيف المسلمين أجمعين ثلاثة أيام). فهل كان للمصرى القبطى أن يقول للبدوى العربى أن أيام ضيافته الإجبارية الثلاث قد انتهت؟.

و المقريزى فى كتابه ذكر عن عمرو بن العاص عندما أملا شروط الصلح مع أقباط مصر من ضمن هذه الشروط ، استضافة المسلم جبرياً فى بيوت الأقباط .. فيقول المقريزى:
(وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء منها. فشرط ذلك كله على القبط خاصة).

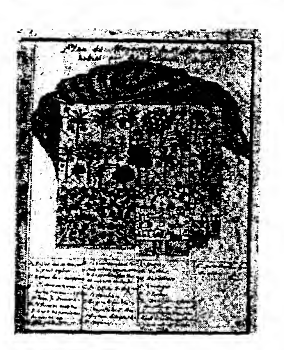
وهذا الشرط الإجبارى واللادينى واللاأخلاقى لعمرو بن العاص وأتباعه هو ما نتج عنه

(الإرتباع)، وهى إستمتاع البدوى المحتل بفصل الربيع فى الريف المصرى، حيث كان الغازى يملك اختيار أى منزل مصرى عنوة وتحت التهديد ويدخله كضيف غير مرغوب فيه، و يحيا مع الأسرة إقامة كاملة.



وكان الإرتباع يتم فى القرى والأرياف حيث فصل الربيع أكثر إمتاعاً للمحتل البدوى، وبدلا من أن يقضى المسلم ثلاثة أيام تبعاً للعهدة العمرية كضيف ثقيل وغير مرغوب فيه بين العائلات القبطية كان يقضى ثلاثة أشهر الربيع كاملة.

عمرو بن العاص يستولى على ممتلكات المصريين



تفصيل من الخريطة الموجودة بالصفحة السابقة

ذكر المقريزى فى كتاب: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطب والآثار فى الجزء الأول، فصل: ما عمله المسلمون عند فتح مصر: "وعن هشام بن أبى رقية اللخميّ: أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: إن من كتمني كنزًا عنده فقدرت عليه قتلته وإنّ قبطيًا من أرض الصعيد يقال له: بطرس ذُكر لعمرو: إن عنده كنزًا فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه فى السجن وعمرو يسأل عنه: هل تسمعونه يسأل عن أحد فقالوا: لا إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب إلى ذلك الراهب: أن ابعث إليّ بما عندك وختمه بخاتمه فجاء الرسول بقُلّة شامية مختومة بالرصاص

ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها: ما لكمَ تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذي تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبًا ذهبًا مصريًا مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقًا أن يبقى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس. " و هذا يوضح لنا أن أموال الدولة الإسلامية فى بداية تكونها فى مصر كانت مسروقة من المصريين. أى أن مصر أصبحت فى حاله فوضى وعدم استقرار وسرقه ونهب وتلفيق وفبركة اتهامات بأن بعض الأقباط كان يزود الروم بالمعلومات كما قال المقريزى (كتاب السلوك فى معرفه الملوك للمقريزى طبع دار الكتب المصريه ج٤ ص١٤٠) عن يزيد بن ابى حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك فاستخرج منه بضعا وخمسين إردبا من الدنانير.



عملات بيزنطية

ويقول المقريزى نقلاً عن ابن عبد الحكم المؤرخ وراجع أيضاً المقريزى المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطب والآثار - الجزء الأول , (١٧ من ١٦٧) : " قال ابن عبد الحكم : ثم كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن تختم فى رقاب أهل الذمّة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضًا ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم ."

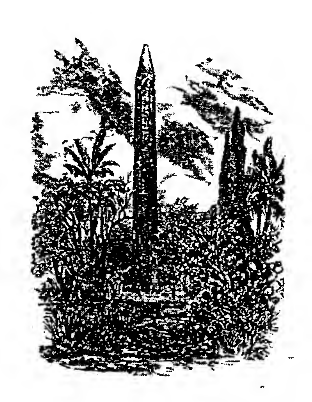
مصر كنز للعرب

وكان العرب أيضا ينظرون إلى مصر وأهلها على أنهم خزانة لهم. فقد قال هشام بن أبي رقية اللخمي: قدم صاحب اخنا على عمرو بن العاص رضى الله عنه، فقال له: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها. فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، ان كثر علينا كثرنا عليكم، وان خفف عنا خففنا عنكم، ومن ذهب إلى هذا الحديث، ذهب إلى أن مصر فتحت عنوة.

وقد كرر المقريزى هذه القصة مرتين فى الجزء الأول (٤و٨) صفحة ١٤١ و٣١٣.

أصل ونسب عمرو بن العاص

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد (بالتصغير) بن سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب بن لوي بن غالب ابن فهر بن مالك أبو محمد وأبو عبد الله القرشى (لاحظ محاولة تأكيد طول النسب) وكانت أم عمرو ابن العاص بغيا (عاهرة). فوقع عليها أبو لهب وأمية بن خلف الجمحى وهشام بن المغيرة . وأبو سفيان والعاص بن وائل السهمى .. فولدت عمروا. فأدعاه كل منهم فحكمت أمه فيه فقالت هو من العاص . فقال أبو سفيان: . اما أنى لا اشك أنى وضعته فى رحم أمه . فأبت الا العاص. راجع شرح نهج البلاغة ٢ | ١٠٠ ١٠١.



مسلة عين شمس

قالوا عن عمرو بن العاص كانت أمه ليلى العنزية أشهر بغايا مكة وارخصهن أجرة، ولما ولدته ادعاها خمسة رجال قالوا ان عمرو ابن أحد منهم. غير أن ليلى ألحقته بالعاص لانه أقرب الشبه به.

راجع النســـــاء ص ٢٧ . العقد الفريـــــــد ١ \ ١٦٤ المسـعودى، «مـروج الـذهب ومعـادن الجوهــر»، | ٢ | ٣١٠ السيرة الحلبية ٣١٢.
يقـال أن أم عمـرو بـن العـاص وطئهـا (نكحهـا) أربعة رجال وهم العاص، وابو لهب، وأميه بن خلف، وأبو سفيان بن حرب .. وأدعى كلهم عمرا .. فألحقتـه أمـه بالعـاص، وقيـل لهـا لمـا اخترتـى العـاص .. فقالـت: "لأنـه كـان ينفـق علـى بنـاتى، ويحتمل أن يكون منه وذلك لغلبه شبهه عليه".
وكـان عمـرو يعيـر بـذلك، عيـره بـذلك علـى، وعثمان، والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة. هذا ما جاء فى السيرة الحلبية، للعلامة برهان الدين الحلبى باب تزويج عبدالله أبى النبى آمنه أمه وحفر زمزم وما يتعلق بذلك.
انظر أيضاً المراجع الإسلامية الآتية :العقد الفريد - بلاغـات النسـاء - الـروض الأنـف - المنـاظر- ثمرات الاوراق ..





عملة قديمة ظلت متداولة حتى بعد الفترة البيزنطية



هل قاوم المصريون الأقباط الغزو العربى؟.

على مدى قرن كامل لم تهدأ ثورات الأقباط ضد الغزو العربى وقد قامت خمسة ثورات مصرية كبـرى ضـد الغـزاة العـرب مـا بـين سـنة ٧٣٩ ميلاديـة و ٧٧٣ ميلاديـة. ونشـبت أكبـر ثـورة مصـرية عـام ٨٣١ أيـام خلافـة المـأمون والتـى سميت بثورة البشموريين وخـرج فيهـا الكثير من المصـريين مسـلمين ومسـيحيين كمـا يصـف ذلـك المقريـزى ذاتـه فـى خططـه بقولـه "ولمـا كـان جمـادى الأولـى سنة ٢١٦ هجريـة، انـتفض أسـفل

الأرض (الدلتا) بأسره عرب البلاد وقبطها وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة فكانت بينهم وبين عساكر السلطان حروب"(ص٧٩-٨٩).وجاء المأمون على رأس جيش كبير وقتل من المصريين عشرات الآلاف ورحل حوالى ثلاثة آلاف من البشموريين إلى العراق مات أغلبهم فى الطريق وما بقى منهم بيعوا كعبيد. ويعلق المقريزى على ذلك " ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أراضى مصر وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان".

وفى السياق نفسه يذكر الفريد بتلر فى كتابه [فتح العرب لمصر] ص ٣٢٣:

"ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوه للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل أن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدى سرية عمرو فى هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع.

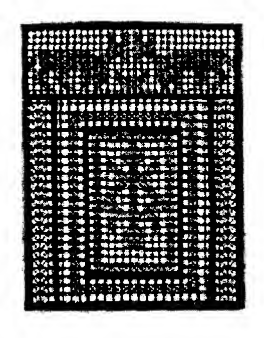

نقود بيزنطية

وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن فى مصر السفلى. ولنذكر أن العرب قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم اثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد تلك الغزوات التي أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها عاد إلى حصن بابليون، وإن لنا لدلالة فى غزواته تلك فى مصر السفلى (الدلتا)، وما لاقاه فيها من القتال فى مواضع كثيرة، وعجزه فى جل ما حاوله من الفتح فى بلاد الشمال القصوى. فان ذلك يزيدنا برهانا

على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس:
أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو أن تدافع.
وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه".

ذكر ما عمله المسلمون عند غزو مصر للمقريزى

وتحت عنوان (ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فى الخراج وما كان من أمر مصر فى ذلك مع القبط) يذكر لنا المقريزى القصة التالية:
"وعن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته. وان قبطيا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذُكر لعمرو أن عنده كنزا، فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد، فحبسه فى السجن وعمرو يسأل عنه: هل تسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: لا إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور. فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه، ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إلى بما عندك، وختمه بخاتمه. فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها (ما لكم تحت الفسقية الكبيرة). فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء، ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين إردبا ذهبا مصريا مضروبة. فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد، فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس.
وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص



شباك خرط خشب

استحل مال قبطي من قبط مصر، لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا وخمسين إردبا دنانير. المقريزى الجزء الأول (٤) صفحة (١٤٠).

وتحت عنوان (ذكر خليج مصر) يقول المقريزى:
" قال ابن عبد الحكم، ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضي الله عنه: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد (مجاعة) فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى سنة الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: (من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي بن العاص ... سلام. أما بعد، فلعمرى يا عمر ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معى، فياغوثاه، ثم ياغوثاه ....) فكتب إليه عمرو: (من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين. أما بعد، فيالبيك ثم يالبيك، قد بعثت إليك بعيرا أولها عندك وآخرها عندى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته). فبعث إليه بعير عظيمة. فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر، يتبع بعضها بعضا. فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس بالمدينة، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يقسمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام، ويأتدموا بلحمه، ويحتذوا بجلده، وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره... فوسع الله بذلك على الناس". المقريزى الجزء الثالث (٣٠) صفحة (٥٤٣ و ٥٤٤).

"ثم كتب إليه عمر بن الخطاب (كرد لجميل



نقود بيزنطية

المصريين على انقاذهم من المجاعة) أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا، ... ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم. وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة وثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة، وودك، وعسل لا أدرى كم هو. ومن كان من أهل مصر فاردب فى كل شهر لكل إنسان، ولا أدري كم الودك والعسل، وعليهم من البز الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس، ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام". المقريزى الجزء الأول (٤) صفحة ١٤٠.

مقاومة المصريون للغزو العربى
سجلت الروايات صورة نادرة لإحدى محاولات قبط مصر الذين أسلموا لحل هذا التناقض بطريقة فريدة فى بابها.


نقود بيزنطية

الحرس – بفتح الحاء والراء - قرية مصرية كل ما بقى لنا من أخبارها أنها من شرقى مصر وأغلب الظن أنها من الإقليم الذى تشغله محافظة الشرقية. دخل عدد من سكان هذه القرية الإسلام مع الزمن، ولكن يبدو أنهم كانوا يتمتعون بنشاط خاص كما هو الحال بالنسبة للبلدان التى احتلها العرب، فأهل هذه البلدان أصحاب حضارات يفتقدها العرب الذين اعتبروا أنفسهم أهل سيف لا يشغلهم عنه الثقافة والعلم. وقد ظهر منهم فى القرن الثانى – التاسع الميلادى عدد من الشخصيات العلمية، فكان هناك كلب القضاعى الحرسى (ت: ٢٠٧هـ) الذى روى عن الفقيه

المصـــرى الكبيـــر عمـــرو بـــن الحـــارث (ت: ١٤٨هـ)، والقارىء العظيم نـافع (ت: ١٦٩هـ). وكان منهم – وهو أهمهم وأشهرهم – زكريـا بن يحيـى (ت: ٢٤٢هـ) المعروف بكاتـب العمرى، والـذى تتلمذ علـى علمـاء أجـلاء يكفـى أن أحـدهم العـالم المصـرى الجليـل عبـد الله بـن وهـب (ت: ١٩٧هــ). وقـد يكـون مـن المفيـد أن نتأمـل الاسـم الكامل لهذا العالم الحرسى، وهو: زكريا بن يحيى صـالح بن يعقـوب. فـإن طولـه يـدل علـى أن اسمه واسم أسلافه هى أسماء أنبياء أو بتعبير أدق أسماء تخلـو – ربمـا عـن عمـد – مـن الطـابع العربـى الخالص. كما كان هناك أحمد بن رزق الله بن أبـى الجـراح (ت: ٢٤٦هــ) تلميـذ العـالم المصـرى الكبير يونس بن عبد الأعلى (ت: ٢٤٦هـ). وكان هنـاك كـذلك أبـو بكـر بـن زكريـا بـن يحيـى (ت: ٢٥٤هـ) نجل العالم المذكور آنفا.


من أهل الحرس

كان هؤلاء الحرسيون يمارسـون نشـاطهم العلمـى فى العاصـمة – الفسـطاط – حيث كـان يقيم – فيمـا يبـدو – عـدد غيـر قليـل مـن مـواطنيهم ويشـكلون جميعا (جمعيـة كمـا هـو الحـال حتـى اليوم) تكوينـا متميزا يعرف باسم "أهل الحـرس". ويبدو كـذلك أن أهـل الحـرس هـؤلاء – علمـاء وغيـرهم – أصـابوا مـن النجـاح والشـهرة فـى الفسـطاط مـا نبـه إليهم أفراد الطبقة العربيـة الـذين بدأوا يـرون فـيهم حالة جديدة من حالات الارتقاء الطبقـى الـذى كـان – بما هو حركـة اجتماعيـة مستمرة يهدد وضـعهم كطبقة عليا متفردة بالسلطان –، ورأى العـرب أن يبادروا إلـى القضـاء علـى هـذا النجـاح الجديـد الـذى تحـرزه هـذه الطبقـة. فأخـذوا يتحرشـون بأهـل الحـرس، ويـؤذونهم وينكـرون علـيهم حقهـم فـى

التفوق محتجين بأنهم ليسوا عربا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة صاحبة الحق فى الاستئثار بكل أنواع التفوق، ولكنهم قبط أى مصريون ينتمون إلى الطبقة المحكومة التى ليس لها أى حق فى التمتع بأى نوع من التفوق.

وتزعم حركة اضطهاد أهل الحرس ثلاثة من وجوه الطبقة الحاكمة العربية أولهم: هاشم بن عبد الله التجيبى أحد ذرية معاوية بن خديج (ت: ٥٢هـ = ٦٧٢ م.) الذى كان من أبرز شخصيات الغزو العربى مثلما كان من أهم زعماء الأرستقراطية العربية الغازية. وكان هاشم مازال محافظا على وضعه الطبقى المورث وكان يلى الوظائف الكبرى. أما الثانى أبو رحب العلاء بن عاصم الخلانى فهو أحد رجال الدين، ولى القصص بجامع عمرو فى مقابل عشرة دنانير – وهو مبلغ صغير حينذاك – فى الشهر. كما كان إماما لجامع عمرو، استخلفه أحد الأمراء على حكم مصر سنة ١٩٣هـ = ٨٠٨ م. الى حين قدومه. أما الثالث فهو أبو الدهمج رباح بن ذؤابة التجيبى الكندى الذى كان أحد شيوخ المؤرخين.



من أهل الحرس

هؤلاء الرجال الثلاثة إذن من أقوى القبايل العربية فى مصر وأغناها وأشدها أرستقراطية. وقد استاءوا من أولئك الحرسيين النشطين الممتازين الذين استطاعوا بالعمل والمثابرة أن يحققوا لأنفسهم حياة أفضل من حياتهم. ولسنا نشك فى أن الزعماء العرب الثلاثة فى شعورهم العدائى نحو هؤلاء الحرسيين الناجحين إنما كانوا يعكسون إحساس الطبقة الأرستقراطية التى ينتمون إليها بخطورة هذه الظاهرة، ويعد زكريا بن يحيى خير

نموذج للارتقاء الطبقى الذى حققه أهل الحرس لأنفسهم ، فقد استطاع أن يرتفع إلى العلم والسلطة والثراء. وقد جعله ذلك هدفا لنقمة الشاعر العربى يحيى الخولانى الذى وصفه بأنه "صار بعد الذل للجور يرهب" وأنه "بعد قران العرى أصبح فاكتسى"، وأنه "بعد الحفا والمشى قد صار يركب".

لم يستطع أهل الحرس الصبر على الاضطهاد، وكانوا لا بد لهم من أن يتخذوا إجراء مضادا، أى كان لا بد من أن يحلوا هذا التناقض بينهم وبين العرب فلجئوا إلى زعيمهم أو عميدهم فى العاصمة الذى لم يكن سوى زكريا بن يحيى يشكون إليه أنهم يؤذون ويطعن فى شرفهم، ويسألونه حتى متى يصبرون على هذا ... ولم يكن زكريا يجهل الموقف، بل لعله كان قد نوقش فيه طويلا، ذلك بأنه قدم إليهم أعجب حل يمكن أن يخطر بالبال. فقد نصحهم لكى يتخلصوا من اضطهاد العرب بأن يتحولوا إلى عرب طالما أن إسلامهم لم يشفع لهم. وأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق هذا المستحيل إذا جمعوا مبلغا من المال يقدمونه إلى قاضى مصر فيسجل لهم سجلا يثبت لهم نسبا عربيا. فهل اقترح زكريا على مواطنيه هذا الإجراء العجيب لأنه كان مألوفا حينذاك مثلما كان مألوفا فى مجتمعنا المعاصر أن تشترى الأسرة لنفسها "حجة" تثبت لها شرف الانتساب إلى النبى؟ أو أنه فعل ذلك اطمئنانا إلى إمكان اتخاذ هذا الإجراء الشاذ فى عهد قاضى مصر الموجود حينذاك والذى كان هو نفسه يعمل كاتبا له حتى اشتهر بلقب "كاتب العمرى"، وأيا كان الأمر فمن كان هذا القاضى؟.

هو عبد الرحمن بن عبد الله العمرى، أحد أحفاد



من أهل الحرس

عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه، فقيه مدنى ملكى – تلميذ مباشر لمالك (ت: ١٧٩هـ= ٧٩٥ م.) – دخل مصر فى صفر ١٨٥هـ= ٨٠١ م. قاضيا عليها من قبل الخليفة هارون الرشيد. وكانت له وجهات نظر خاصة فى كثير من وسائل الفقه والقضاء سرعان ما راح يطبقها فى مصر، فكان يميل مثلا إلى اتخاذ الشهود بمعنى أن يعين عددا من الأفراد تكون كل وظيفتهم هى أداء الشهادة على المتخاصمين. وقد ضرب رقما قياسيا فى عدد شهوده فاتخذ مائة شاهد وجعل عليهم رئيسا. ويلحظ أنه اختار هؤلاء الشهود من أهل المدينة – بلده – بالذات، من موالى قريش وغيرهم. على أن الجديد الذى لم يسبق إليه أنه دون أسماء هؤلاء الشهود فى سجل خاص وأسقط سائر الناس حتى تكفيهم عوائد هذه الوظيفة مشقة الكد والعمل ويركنوا إلى حياة الدعة والبطالة، فأصبح ذلك تقليدا متبعا منذ ذلك الحين. والعمرى هو أول من عمل تابوت القضاء فى بيت المال لتودع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له، وقد أنفق فى بنائها أربعة دنانير فقط. واتخذ لنفسه عددا من الكتاب كان زكريا بن يحيى من أبرزهم.



من أقنعة الفيوم

على أن ذلك ليس كل شىء بالنسبة الى القاضى العمرى الذى لعله كان مزدوج الشخصية فقد كان يتزين ويسرف فى التزين. أتاه أحدهم بعد قيامه من مجلس حكمه فإذا هو مضجع وقد ترجل، وصفر يديه (من أثر الحنة) وكحل عينيه واتشح بأزار معصفر وادهن بملاب على وزن سحائب وهو عطر من الزعفران، ولاشك فى أن هناك علاقة وثيقة بين التجمل وبين كلفه الشديد بفن الغناء. فقد كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى

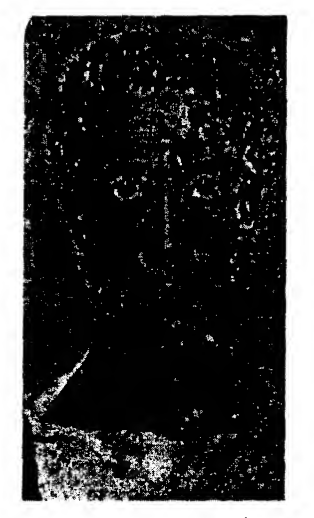
أهل المدينة، ويبرز كثيرا فى مجالسه ولا يتحاشى أن يقول: هذا غنى به ابن سريج، وهذا غنى به الدلال، وهذا من جيد غناء الغريض. ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها يسمع غناءها وربما قوم ما انكسر من غنائها ويرى ذلك من الدين. ويضيف الراوية الذى دخل عليه فوجده فى كامل زينته أنه كان وهو فى حالته تلك يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض ويقول:

كأنى من تذكر أم عمرو ..

سرت بى قرقف صرف مدام

(القرقف / الخمر القوية. المدام – بضم الميم : الخمر).

ومهما بدا ذلك السلوك متنافيا مع ما يجب أن يأخذ القاضى نفسه به من الوقار والاتزان فمن الممكن اغتفاره على حال من وجهة النظر الفنية الجمالية. على أن الذى لا سبيل الى اغتفاره بحال هو تصرفاته المالية المتسمة بالتفريط الشديد وعدم مراعاة أى قانون مالى أو أدبى. فقد عهد الى مساعده الكبير يحيى بن عبد الله بن بكير بالإشراف على أموال الأيتام من العرب، وراح يستغلها ويدفع الى الأيتام المستحقين من الأرباح ما ينفقونه ويخصم ما يصل اليهم من أصل أموالهم. فلما استهلكوا رؤوس أموالهم ادعى يحيى الأصول وقال: هى لى. فخوصم عند صديقه ورئيسه القاضى العمرى فقال: لا أراه ظلمكم بشىء هى أموالكم استهلكتموها.



من أقنعة الفيوم

شكل أهل الحرس لجنة منهم لمباشرة هذه القضية الهامة وبدأت اللجنة فجمعت من الحرسيين ستة آلاف دينار – وهو مبلغ يدل على ثراء الحرسيين ونجاحهم العملى – ثم توجهت الى القاضى

العمرى – الذى لاشك فى أن صديقه زكريا بن يحيى عميد أهل الحرس كان قد فاتحه فى الأمر – وعرضت عليه مطلبها مشفوعا بالمبلغ الكبير. وبالرغم من حب العمرى الشديد للمال واستخفافه فإنه لم يجسر على اتخاذ هذه الخطوة بصفة مباشرة. ولذلك نصح أعضاء اللجنة بأن يحصلوا أولا على أذن بذلك من الخليفة هارون نفسه.

ووافق أعضاء اللجنة، وقرروا السفر الى بغداد، ولكنهم فضلوا أن يتزودوا بسند قانونى يسهل مهمة اقناع الخليفة بإصدار أمره العالى الى قاضى مصر باتخاذ الإجراءات اللازمة لإثبات الجنسية العربية لأهل الحرس فماذا يفعلون؟. ذهب اثنان من أعضاء اللجنة – ولعلهما فعلا من قبل فى محاول سابقة – الى ناسخ يدعى عبد الكريم القراطيسى "كان يضع الخطوط على نظيرها" أى يزورها، فدفعا له ألف فى مقابل أن يزور على لسان قاضى مصر الأسبق المفضل بن فضالة (ت: ١٨١هـ= ٧٩٧ م) حكما باثبات أنساب أهل الحرس الى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. ثم توجها الى متولى ديوان المفضل حيث تحفظ الأحكام فدفعا اليه ألف دينار أخرى ليودع ذلك الحكم الديوان فلما تم لهما ذلك شدا الرحال الى بغداد. وسرعان ما عرفا طريقهما الى بلاط الخليفة هارون حيث أنفقا مالا عظيما للوصول الى الخليفة وعرض قضيتهم على مسامعه مؤكدين أن هناك قاضيا سابقا قد أصدر حكما رسميا بعروبتهم، وفى كل حال فإن هذه الورقة الى جانب الدنانير الذهبية، كان لها أثر فعال فى نجاح مساعى الرجلين وكتب الخليفة هارون الى قاضى مصر يأمره بالتسجيل لأهل الحرس.

لم يعد أمام العمرى ما يخافه فشمر عن ساعده



من أقنعة الفيوم

وشرع يتخذ الإجراءات الرسمية لمنح أهل الحرس الجنسية العربية. غير أن القاضى المدقق لم يشأ أن يكتفى بحكم زميله.
بل أراد أن يقوم بواجب التأكد بنفسه من صحة الدعوى فدعا الحرسين إلى إقامة البينة عنده على أنسابهم ولم يكن شئ أسهل من ذلك على أهل الحرس فالدنانير الذهبية متوفرة، والشهود العرب الذين يحبون الدنانير أكثر توفرا وسرعان ما وجد أهل الحرس، الذين يعرفون دائما الطريق إلى ما يريدون، الشهود المناسبين فى أهل الحوف الشرقى وأهل الشرقية وجماعة من بادية الشام لم يجدوا جميعا مانعا من أن يحضروا إلى الفسطاط، ويمثلوا أمام القاضى الجليل ويقسموا، بالله العظيم أن أهل الحرس عرب خلص كاللبن الصريح. قد نستطيع تفسير إقدام هؤلاء الناس – وهم عرب – على تلك الشهادة الزور بأنهم بدو جفاة لا يعنيهم سوى الدنانير، وأيا كان الأمر فإن الشهود كانوا كافيين جدا لاقناع القاضى العمرى اقتناعا قانونيا بعروبة أهل الحرس وإمكان إصداره حكما بذلك، فأسجل لهم سجلا بتثبيت انتسابهم إلى قبيلة من قضاعة هى حوتكه.

لقد وقعت المعجزة، وتحقق المستحيل، وأصبح الفلاحون المصريون – القبط – عربا، ومن قضاعه. وأخيرا استطاع أهل الحرس أن يتخلصوا من ماضيهم الطبقى اللعين الذى ظل يطاردهم كالشبح. وآن لهم أن يتربعوا مع السادة العرب على قمة الهرم، يتحدثون معهم فى مهام الأمور ويتبادلون معهم العلاقات المختلفة، ويلقون فى خلال ذلك بنظرات التعالى والزهو على زملائهم السابقين الذين مازالوا يرزحون عند القاعدة، آه!



من أقنعة الفيوم

الاثار اليونانية الرومانية باسكندريا

تضم اسكندريا أكبر مجموعة من الآثار الباقية من العصر اليوناني - الروماني في مصر ، وهذا امر طبيعي بالنظر لانها كانت عاصمة لمصر في تلك الحقبة ومن أهم هذه الآثار:
عمود السواري: هو آخر الاثار الباقية من معبد السيرابيوم أقامه بوستوموس ويرجع تاريخ هذا العمود إلى القرن الثالث الميلادى
المسرح الروماني: يوجد هذا الاثر الهام في منطقه " كوم الدكه " وقد تمت إقامة هذا المبني في بداية القرن الرابع الميلادي .
وصف المبني: المبني مدرج على شكل (حدوه حصان) او حرف u وقد أطلق عليه اسم (المسرح).

يتكون (المدرج الروماني) من ١٣ صف من المدرجات الرخاميه مرقمه بحروف وارقام يونانيه لتنظيم عمليه الجلوس اولها من اسفل من الجرانيت الوردي المكونه من الأحجار المتينة ، ولذا استخدمه المهندس كاساس لباقي المدرجات ويوجد اعلي هذه المدرجات ٥مقصورات كانت تستخدم لعمليه النوم لم يتبق منها الا مقصورتين .

وكان سقف هذه المقصورات ذو قباب تستند على مجموعة من الأعمدة ، وتستند المدرجات على جدار سميك من الحجر الجيري يحيط به جدار آخر وقد تم الربط بين الجدارين بمجموعه من الآقواس والأقبية حيث يعتبر الجدار الخارجي دعامة قوية للجدار الداخلي .

ويقع في منتصف المدرج منطقه (الأوركسترا) والتي كانت تستخدم كمكان لعزف الموسيقى تثبتها دعامتان رخاميتان ثم صالتان من الموزاييك ذات زخارف هندسية في المدخل والذي يقع جهة الغرب.

آثار أخري:

يوجد في منطقه كوم الدكة بجوار المسرح عدد من الآثار المصرية القديمة أغلبها يرجع الي عصر الدولة الحديثة وقد عثر عليها في مياه البحر المتوسط ضمن الآثار التي كانت تلقي في المياه خلال العصور الوسطى .

ولن يستطيع هاشم بن حديج، ولا أبو رحب الخولانى ولا أبو الدهمج بعد اليوم أن يتحرشوا بهم أو يؤذوهم أو يعيروهم بأصلهم القبطى الذى أفلحوا فى أن يبتروه كما يبتر الذنب. لقد تساوت الرءوس، صحيح أن الناس، بعض الناس، سيظلون يذكرون الماضى زمنا، ولكنهم سينسون، بل لن يلبثوا حتى يزولوا ولا يعود أحد يعرف سوى أن أهل الحرس عرب من قضاعه، يا سلام! والفضل لمن؟ لصديقهم العزيز القاضى العمرى – بعد الدنانير طبعا – فلازموه وأحاطوا به يتقدمهم عميدهم زكريا بن يحيى يغدون عليه إذا غدا ويروحون إذا راح، وهم يرفلون فى نسبهم العربى الجديد، ويزهون بجنسيتهم الجديدة التى تتلألأ على هاماتهم كالتيجان.

لم يكن اعتناق أهل الحرس الإسلام ونجاحهم فى ظل النظام الجديد كافيا لحل التناقض بينهم وبين العرب بل على العكس أدى إلى قيام تناقض جديد أشد حدة، فقد اضطروا إلى ذلك الحل الشاذ لعلهم يتخلصون من هذا التناقض ويحصلون على الاستقرار الاجتماعى والطمأنينة النفسية.

غير أن هذا الحل الجديد قد أدى بدوره إلى تناقض جديد فقد كان يشكل سابقة شديدة الخطورة على الطبقة العربية يؤدى السكوت عليها إلى فتح الباب أمام تكرارها إلى ما لا نهاية مما يؤدى بالضرورة إلى اختفاء العرب كطبقة آخر الأمر، ذلك أنه من المستحيل لأى طبقة أن تحل تناقضاتها مع طبقة أخرى بالذوبان فيها. ولذلك هبت الطبقة العربية. وقد أصابها الذعر، تهاجم القاضى العمرى وأهل الحرس وزعيمهم زكريا بن يحيى،

وتعارض الحكم الصادر وتعمل كل ما تستطيع لوقف تنفيذه، ولعب الأدب دورا بارزا في المعركة، فلمع ثلاثة من الشعراء من ذوى الأصل العربي هم: يحيى الخولاني، معلى الطائي، طاهر القيسي، ونستطيع أن نحس الذعر الذى أصاب العرب فى صيحة يحيى الخولانى:

ألا قم فاندب العربا   وبك الدين والحسبا
ولا تنفك تنعى العدل   لما بان فاغتربا

كما نستطيع أن نستشعر دهشة العرب إزاء هذا التصرف الجرئ فى قول يحيى أيضا:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة
من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك، وأبوهم
من القبط علج حبله متذبذب
وجاءوا باجلاف من الحوف فأدعوا
بأنهم منهم سفاها و أجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضيا
بهم رغما مادامت الشمس تغرب

وكان طبيعيا أن يركز الشعراء هجومهم على القاضى العمرى سبب البلية كلها فانطلقوا يهجونه ويعددون عيوبه، فقال يحيى الخولانى يصف ركوبه لسماع الغناء الذى كان يصاحبه موكب من أهل الحرس:

مربنا راكب على فرس
يامن رأى هريدا على فرس
قد كشف الخف من ضلالته
فى عصبة من مسالم الحرس

وقد قامت هيئة الاثار بالاشتراك مع البعثات الأجنبية بانتشال تلك القطع وعرضها .

واهم الآثار المعروضه مايلي:
- بقايا أعمدة من عصور مختلفة .
- لوحة عليها تصوير للملك سيتي الأول يقدم قرباناً .
- لوحة عليها نقش للملك سيتي الأول هيئه المعبود سيتي .
- تمثال على هيئة أبو الهول للملك رمسيس الثاني .
- تمثال على هيئة أبو الهول للملك" بسمتيك نفرdايب رع" من الاسرة السادسة والعشرين - لوحة عليها هيئة " بتاح".
- لوحة عليها رأس البقرة حتحور.

الحمامات الرومانية
وجد بعضها بجهات كوم الدكة و ابوقير الشرقية ، وهى ذات طابع تاريخى مميز .

معبد الراس السوداء
وهو عبارة عن معبد أو هيكل صغير مقام فوق أرضية مرتفعة ويتكون من من سلم يؤدي الى ردهة واجهتها بها أربعة أعمدة تؤدي هذه الردهة الى حجرة صغيرة مربعة الشكل تقريباً بها درج جانبي .
اما الجزء العلوى من البناء فلا تزال بقاياه شاهدا على

يقدمه خالد ويتبعه
لوط قران الكلبين فى مرس
فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل
أبو الندى غدا مسرعا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت
تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح فى المخزيات منغمسا
وليس فى غيرها بمنغمس

وقال معلى الطائى يسخر من تظاهره بالتقوى، ويصفه بالظلم واللصوصية ويذكر شغفه بالغناء ويسخر منه ويحض على اغتياله:

كم تطول فى قراتك
والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى
وتبيت بين مغنياتك
ليت الثلاثين التى تجزى
تقوم بمسمعاتك
فاشرب على صرف الزمان
بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد الحقتهم عرب
فزوجهم بناتك
فالعربى يزوج بنته للتمساح ولا يزوجها للفلاح.

على أن الخليفة هارون لم يلبث حتى مات فى جمادى الأولى ١٩٣ هـ=٨٠٨ م. ليخلفه ابنه محمد الأمين، ولما كان الأمين يفضل إنفاق وقته فى المتع على إنفاقه فى معالجة شئون الحكم فقد فوض أموره إلى الفضل بن الربيع (ت: ٢٠٨ هـ)

أنه كان مكانا للسكن ذلك لأن المعبد كان من المعابد الخاصة الملحقة بمنازل بعض الأفراد ، ويتكون الجزء العلوي من حجرتين وجدت في إحداهما بقايا الألواح الرخامية التي كانت تغطي أرضيتها وهناك دلائل تشير إلى وجود حجرات أخرى بهذا المكان ربما كانت مخازن للمأكولات أيضاً هناك مايشير إلى وجود قناة مياه صغيرة وتشير الخصائص المعمارية لهذا المعبد إلى أنه كان قائماً في أواسط القرن الثاني الميلادي تقريباً.

مقبرة كوم الشقافة

تعتبر أكبر المقابر الرومانية العامة التي عثر عليها بالاسكندرية وتقع على حدود الجبانة الغربية في الاسكندرية القديمة وترجع إلى القرن الثاني الميلادى .

معبد القيصرون

شيدته كليوباترا السابعة باسم " مارك انطونيوس " وكانت أمام مدخله مسلتان نقلتا من معبد عين شمس وتحمل أسماء ملوك الفراعنة تحتمس الثالث ، وسيتي الأول ورمسيس الثاني وقد نقلت إحدى المسلتين عام ١٨٧٧ إلى لندن والثانية إلى نيويورك

حاجب والده الرشيد ووزيره. وترامت سيرة القاضى العمرى إلى الوزير، ولعل العرب واصلوا السعى لديه فلم يتردد فى استصدار مرسوم بعزله. وصدر المرسوم بعد سنة كاملة من موت الرشيد (جمادى الأول ١٩٤ هـ= ٨٠٩ م.). وحمله من بغداد إلى مصر موظف خاص. ولم يكد ذلك الرسول يعلن النبأ فى مسجد مصر الجامع حتى عمت موجة هائلة من الفرح عند العرب، فقد تخلصوا أخيرا بعد تسع سنوات كاملة وشهرين اثنين من حكم القاضى الذى عبث بهم ، ولم يتمالك أحدهم نفسه فقال :

بنعمة الله ورأى الفضل
نحى عن الحكم عدو العدل

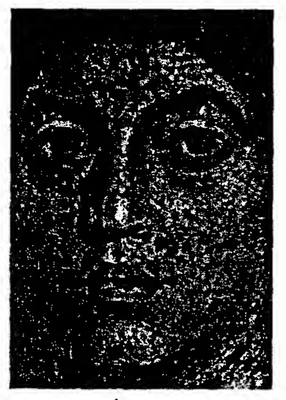


من أقنعة الفيوم

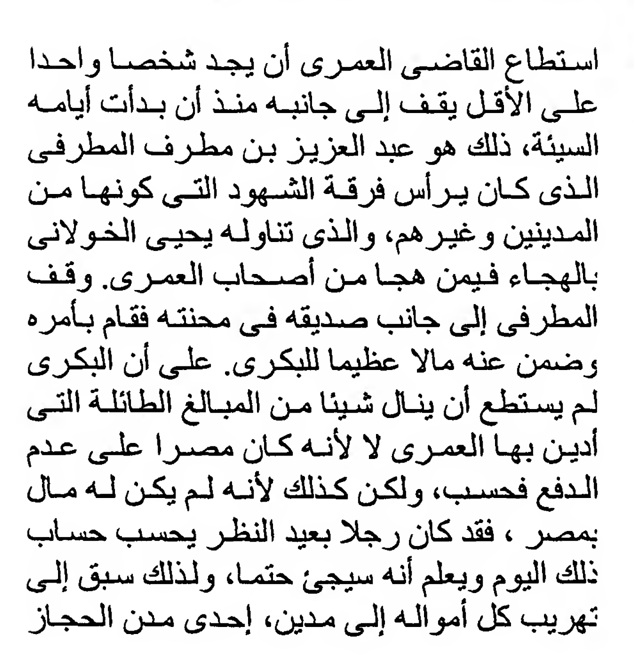
ولكن أغلب الظن أن هذا السرور لم يتجاوز نطاق الوعد الشعرى، وأيا كان الأمر فبهذا يبدأ الفصل الأخير من المهزلة التى لعب بطولتها القاضى العمرى.

من المفارقات أن قاضى مصر الجديد ، هاشم بن أبى بكر البكرى (ت: ١٩٦ هـ= ٨١١ م.)، كان من ذرية أبى بكر الصديق كذلك. ولا شك فى أنه كان يعرف كل شئ؛ بل لعله كان مزودا بتعليمات معينة. وقد بادر العرب إلى الالتفاف به، وإطلاعه على كل ما فعل القاضى العمرى وأعوانه، وتزعم هذه الحركة الانتقامية أبو رجب العلاء بن عاصم الذى أشار على القاضى الجديد بالقبض على سلفه وأعوانه وحبسهم والتحقيق معهم. ولم يتردد القاضى البكرى لحظة ، فقبض على القاضى العمرى، وسجنه وقيده وطالبه بما صار إليه من

الأموال والأوقاف وأخذ البكرى بما زعمه العرب من أن جملة ما اكتسبه العمرى فى فترة ولايته القضاء عليهم مائة ألف (دينار طبعاً)، فطالبه بها. كما تتبع البكرى أصحاب العمرى كلهم وسجنهم وأسقط كل من شهد لأهل الحرس فلم يرجع أحد منهم عند أحد من القضاة، وكان نصيب يحيى بن عبد الله بكير من هذه الإجراءات التطهيرية كبيرا، فقد بادر أولاد العرب اليتامى والعاطلين إلى القاضى الجديد يشكون إليه احتياله على أموالهم واستهلاكه إياها فأخذه بالحساب، فأنكر، فأمر به فربط على عمود فى المسجد الجامع مقابل لباب إسرائيل، ومناد ينادى : "هذا جزاء كل خائن". وظل على ذلك أياما لا يحل رباطه إلا وقت كل صلاة. ولا بد أن بكيرا كان يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال، ولم يستطع البكرى أن يصل منه إلى درهم واحد، فلما يئس منه خلى عنه.



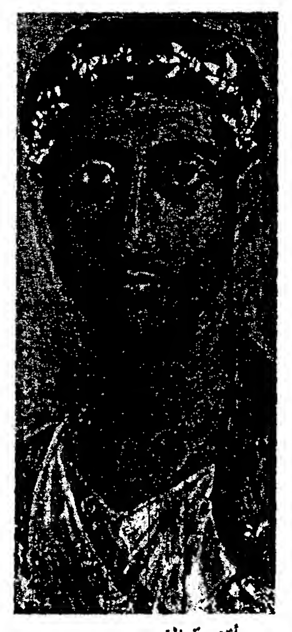
من أقنعة الفيوم



استطاع القاضى العمرى أن يجد شخصا واحدا على الأقل يقف إلى جانبه منذ أن بدأت أيامه السيئة، ذلك هو عبد العزيز بن مطرف المطرفى الذى كان يرأس فرقة الشهود التى كونها من المدينين وغيرهم، والذى تناوله يحيى الخولانى بالهجاء فيمن هجا من أصحاب العمرى. وقف المطرفى إلى جانب صديقه فى محنته فقام بأمره وضمن عنه مالا عظيما للبكرى. على أن البكرى لم يستطع أن ينال شيئا من المبالغ الطائلة التى أدين بها العمرى لا لأنه كان مصرا على عدم الدفع فحسب، ولكن كذلك لأنه لم يكن له مال بمصر ، فقد كان رجلا بعيد النظر يحسب حساب ذلك اليوم ويعلم أنه سيجئ حتما، ولذلك سبق إلى تهريب كل أمواله إلى مدين، إحدى مدن الحجاز

على ساحل البحر الأحمر. فلما وقعت الواقعة شرع فى تنفيذ الخطة المرسومة، فعمل على الهرب من السجن ومن مصر كلها إلى حيث أمواله. وقد أفلح فى أن يفلت من السجن ويهرب. وإن لم يكن قد تيسر بفضل أصدقاء له لم يتخلوا عنه ، فلا بد أنه بفضل أوفى الأصدقاء: الدنانير، وغاظ هربه خصومه الذين كانوا يمنون أنفسهم بالتشفى منه غيظا.

وصل العمرى إلى مدين حيث احتمل أمواله ، واتفق مع مجموعة من رجال البادية على أن يخفروه فى رحلته، ثم سار يقطع شبه الجزيرة من شمالها متجها نحو الشرق – وربما إلى العراق – يتبعه هؤلاء الرجال. فلما وصل إلى فيد، شمالى شرق شبه الجزيرة، خرج عليه جماعة من قبيلتى أسد وطىء فأوقعوا به وأخذوا جميع ما حواه. ولم يغن عنه حراسه المأجورون شيئا، كما لم يستطع هو أن يفعل أكثر من أن يشترى جلده بكل ما معه من هؤلاء البدو قطاع الطريق "فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه".


من أقنعة الفيوم

وغسل العرب أيديهم من القاضى العجيب، والتفتوا ليزيلوا أهم أثر تركه بينهم وهو قضية أهل الحرس.

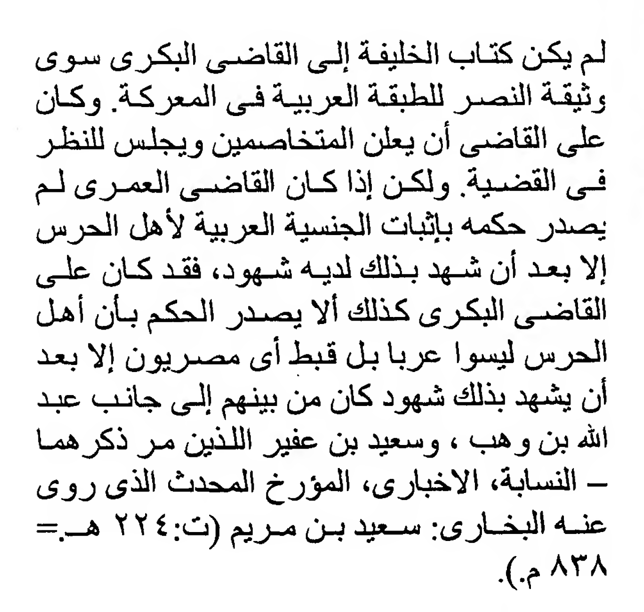
بما أن المرسوم لا يلغيه إلا مرسوم مثله فقد كان لا بد من استصدار مرسوم جديد يلغى المرسوم السابق الذى منح أهل الحرس حق التمتع بالجنسية العربية. وأخذ الزعيمان العربيان أبو رحب العلاء بن عاصم وهاشم بن عبد الله التجيبى هذه المهمة على عاتقهما. وكانت الظروف مواتية تماما، فالخليفة الرشيد صاحب المرسوم الأول قد مات، والخليفة الجديد لا يعنيه التفكير فى مثل هذه

الأمـور، ووزيـره الفضـل بـن الربيـع عربـى قـح والقاضى العمرى قد ذهب إلى غير رجعة.

قام أبو رحب وهاشم بن عبد الله بتشكيل وفد يسافر إلـى بغـداد ويحصـل علـى المرسـوم المطلـوب. ووصـل الوفد إلى بلاط الخليفة، وذكروا ما فعل العمرى فى أهل الحرس، وأنه ألحقهم بالعرب، ونسبهم إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، واقتنع المسئولون بفساد هذا الحكم وعدالة مطلب الوفد فكتب الخليفة إلى قاضى مصر بكتاب يقرر فيـه مبـدأ عامـا هـو "أنـه لا يمـنح أحـدا مـن غيـر العرب اللحاق بالعرب" ويأمره فيما يتعلق بأهل الحرس "أن يردهم إلـى مـا كـانوا مـن أنسـابهم"، فرجع الوفد بذلك.



من أقنعة الفيوم



لم يكن كتاب الخليفة إلى القاضى البكرى سوى وثيقة النصر للطبقة العربية فى المعركة. وكان على القاضى أن يعلن المتخاصمين ويجلس للنظر فـى القضية. ولكن إذا كان القاضى العمرى لم يصدر حكمه بإثبات الجنسية العربية لأهل الحرس إلا بعد أن شهد بذلك لديه شهود، فقد كان على القاضى البكرى كذلك ألا يصدر الحكم بأن أهل الحرس ليسوا عربا بل قبط أى مصريون إلا بعد أن يشهد بذلك شهود كان من بينهم إلى جانب عبد الله بن وهب ، وسعيد بن عفير اللذين مر ذكرهما – النسابة، الاخبارى، المؤرخ المحدث الذى روى عنـه البخـارى: سـعيد بـن مـريم (ت:٢٢٤ هــ= ٨٣٨ م.).

نستطيع أن نتصور مسجد مصر الجامع (جامع عمرو) وقد غص بالجماهير المتطلعة من سكان

الفسطاط والقاضى البكرى فى مجلسه يحيط به كتابه، وبين يديه قد مثل الزعماء من العرب ومن أهل الحرس. وفتح القاضى الجلسة، وعرض القضية وطالب كلا من الطرفين بالدليل على دعواه. أما أهل الحرس فقد قدموا إليه الحكم الذى أصدره سلفه العمرى بعروبتهم، وأما العرب فقد تركوا الأمر للشهود الذين أجمعوا على "أن أهل الحرس من القبط، وأن العمرى قضى فيهم بجور". فنقض البكرى قضية العمرى فيهم، وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط،، وأخرج من تحت مصلاه مقراضا كان يخفيه لهذا الغرض فقطع حكم القاضى العمرى"، ولسنا نستبعد أن الشاعر معلى الطائى قد انفجر فى نفس هذه اللحظة يصرخ بأعلى صوته بتلك الأبيات القاسية:


من أقنعة الفيوم

يا بنى البظراء موتو كمدا
واسخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم
من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم
قبط مصر، ومن القبط سفل
كيف يا قبط تكونوا عربا
ومريس أصلكم شر الجبل ؟

أما زميله يحيى الخولانى فقد وجد من السعادة ما أوحى إليه قصيدة راقصة، قال:

اشكروا الله على إحسانه
فله الحمد كثيرا والرغب
رجع القبط إلى أصلهم

بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا
جائرا قد كان فينا يغتصب
ما كفته رشوة ظاهرة
وقضايا جوركم فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتى به
أحد أن صير القبط عرب

ولم ينس طاهر القيسى أن يشيد بالدور الهام الذى لعبه أبو رحب العلاء بن عاصم فى الوصول إلى هذه النتيجة العظيمة فقال:

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما
راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم
ونسيب أصلهم الذى قد غيبوا


نسيج قباطي

أما بعد – فهكذا انتهت معركة من معارك الصراع الطبقى فى مصر فى القرن الثانى للهجرة، هذا الصراع الذى كان نتيجة حتمية للتناقض الطبقى الحاد فى المجتمع المصرى حينذاك.

لم تكن قضية أهل الحرس (١٨٥ – ١٩٤ هـ= ٨٠١ – ٨٠٩ م.) الحالة الوحيدة ولا الأولى ولا الأخيرة من حالات الصراع الطبقى فى المجتمع المصرى الإسلامى المبكر، فهى فى الحق ليست سوى حلقة من سلسلة طويلة متكاملة تكون فى مجموعها حركة تاريخية كانت تحدث كنتيجة حتمية للتناقض بين العرب كجنس، يعتقد فى نفسه النقاء، والأجناس الأخرى.

مقاومة المصريين المسلحة للغزوالعربى

من هذا المنطلق و تحت ثقل كل هذا الاضطهاد من العرب للمصريين تطورت الأمور حتى ذهب المصريون إلى المقاومة المسلحة ضد العرب، كما فعلوا فى السابق مع البطالمة و الفرس والرومان والبيزطيين، فاندلعت ثوراتهم وتمرداتهم وخاصة فى الصعيد وشمال الدلتا، فكانت ثوراتهم المسلحة:

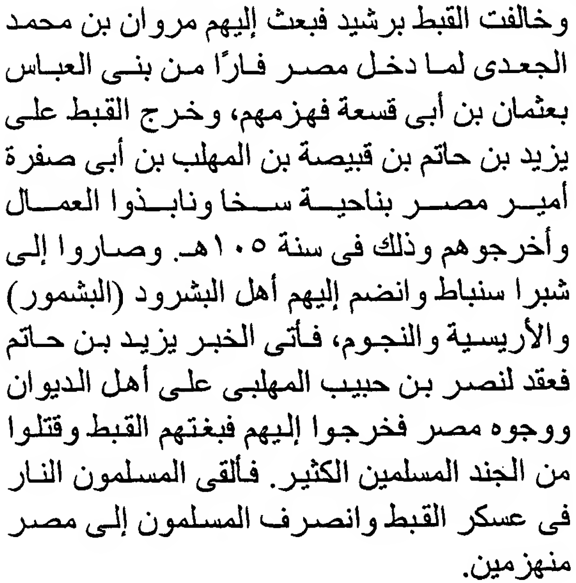


الثورة الأولى: ثار اثنين من رجال الأقباط هم مينا وقزمان ووضعوا أرواحهم للدفاع عن أنفسهم وقراهم وقادا مجموعة من الأقباط المدربين على حمل السلاح ودافعوا عن قراهم فى بسالة وشجاعة ضد جنود العرب والأروام المدربين جيدا على القتال (تاريخ الأمة القبطية ج٢-٣ ص١٣٦-١٣٧), وقاومت مدن شمال الدلتا الغزو العربى مثل إخنا - رشيد - البرلس - دمياط - خيس - بلهيب - سخا - سلطيس - فرطسا - تنيس - شطا - البلاد الواقعة باقليم البحيرة وغيرها, أما مدن وقرى الصعيد فقد ظلت منفصلة تقاوم لمدة سنة تقريبا. ومن القرى التى قاتلت عمرو بن العاص قرية يقال لها بلهيب وأخرى يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس, ولما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وسبا عمرو أهلها وأرسلهم ليباعوا كعبيد فى المدينة فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم قائلا: أن تجعل إسكندريا وهؤلاء الثلاث القريات ذمة للمسلمين. وتضرب عليهم الخراج. ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك (كتاب خطط المقريزى ج٨ ص٣٠٩-٣١٠) ومات كثير منهم فى الرحلة إلى المدينة.

الثورة الثانية: فى سنة ١٠٧ هـ. قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى (فى كتاب أمراء مصر وأمرة الحر بن يوسف أمير مصر) كتب عبد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك بأنّ أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطًا فانتفضت كورة تنو وتمى وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقى فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، ورابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر ثم انتفض أهل الصعيد وحارب القبط عمالهم فى سنة ١٢١ هـ فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا وظفر بهم، وخرج بَخْنَسْ رجل من القبط فى سمنود فبعث إليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير أمير مصر فقتل بخنس فى كثير من أصحابه وذلك فى سنة ١٣٢هـ.



حصن بابليون



وخالفت القبط برشيد فبعث إليهم مروان بن محمد الجعدى لما دخل مصر فارًا من بنى العباس بعثمان بن أبى قسعة فهزمهم، وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم وذلك فى سنة ١٠٥هـ. وصاروا إلى شبرا سنباط وانضم إليهم أهل البشرود (البشمور) والأريسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر فخرجوا إليهم فبغتهم القبط وقتلوا من الجند المسلمين الكثير. فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط وانصرف المسلمون إلى مصر منهزمين.

ثورات البشمور :

والبشموريين هم أقباط كانوا يقطنون منطقة شمال الدلتا (مناطق البرارى) ويعملون فى الصيد وإنتاج ورق البردى الذى كان العالم كله فى ذلك الوقت يستخدمه لتسجيل علومه ومعارفه وفى مختلف أنشطة حياته اليومية. لم يقاوم البشموريين الاحتلال العربى بمفردهم بل شاركهم معظم الأقباط الذين رفضوا هذا الاحتلال واشتركوا مع البشموريين فى ثورات شاملة ضد الغزو العربى والعباسى، فأقلقوا جيوشهم، وكادت هذه الثورات أن تقضى على الوجود الاستعمارى العربى والعباسى فى مصر. وقد استمر قتالهم معهم لمدة ٨٣ سنة بين هدوء نسبى وسكون وقتال بلا هوادة ولم يكن المصريون الأقباط وحدهم يقاومون التدخل الأجنبى والاحتلال العربى والعباسى من بعده، بل شارك الأقباط المسلمون (المتحولون للإسلام خوفا من القتل والعجز عن دفع الجزية) فى الثورة أملا فى أن يروا مصر حرة من الاستعمار البدوى. فقد أدرك المصريون الأقباط أن الغزاة كان همهم الأول هو جباية الجزية والخراج والضرائب وسلب خيرات البلاد. وزادت خيبة أملهم عندما أدركوا أن الغازى الجديد كان يريد أن ينعم بثمرة انتصاره دون مراعاة لمعاناتهم، لهذا وضعوا نصب أعينهم هدفا واحدا هو التحرر من ربقتهم.



حصن بابليون بعد تجديده

ويقول المقريزى المؤرخ (فى كتاب الخطط للمقريزى ج١ ، ص٨٩/٧٨):"إن هؤلاء القوم (يقصد البشمورين) كانوا أكثر توحشا وتعنتا من سائر سكان مصر وقد أقلقوا السلطات، ألم يناصبوا العرب العداء سبع سنوات بعد سقوط إسكندريا فى أيدى عمرو؟ ألم يكونوا أول من قام

بإعلان الثورة ضد جباة الضرائب؟".
دفع العرب بتجبرهم البشموريين على مواصلة القتال بلا رجعة ولا عودة للاستعباد ثانية حتى لو كلفهم الأمر فنائهم، فأخذوا يصنعون الأسلحة وحاربوا الخليفة علانية.

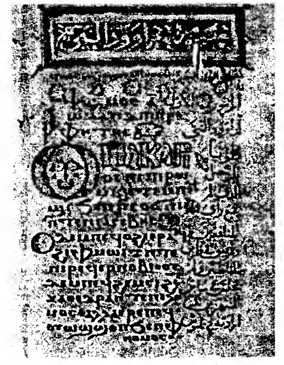
ولقد أدت ثورتهم هذه إلى انخفاض عدد الأقباط عن عدد المسلمين لأن المسلمين هاجموا قرى ومساكن المصريين المسيحيين الآمنة حتى الذين لم يشتركوا فى الثورة، وقتلوا عددا لا يحصى منهم وسرقوهم وحرقوا ممتلكاتهم، وهم كانوا سيفعلون لأنهم يفعلونه دائما بسبب أو بدون سبب من أجل السلب والنهب.


رسم لداود النبى من مخطوطة قبطية

كتب البطريرك يوساب الأول خطابا إلى البشموريين محاولا إقناعهم بعدم قدرتهم على مقاومة الخليفة بالسلاح وأن ينصرفوا عن مواصلة الحرب، فلم يثنهم هذا الخطاب ولم يؤثر فيهم، فأرسل لهم الخطاب تلو الآخر ملحا فى رجائه حتى ضاق البشموريين من هذا الإلحاح وانقضوا على الأساقفة حاملى الرسائل وجردوهم من ملابسهم وأمتعتهم ثم أوسعوهم سبا وشتما، ولما عاد هؤلاء إلى البطريرك وقصوا عليه ما حدث لهم قرر البطريرك أن يترك هذا الشعب إلى مصيره. (تاريخ البطاركة ج١ ص٢٥١، أقباط ومسلمون د.جاك تاجر ١٠٢).
ولما زاد ظلم جباة الخراج وضوعفت الجزية على الأقباط وشُدد الخناق حولهم، هب أهل البلاد جميعاً كرجل واحد فى ثورة عارمة، وقد أسفرت هذه الثورة عن هزيمة جيش الغزاة هزيمة منكرة. وفرّ أمامهم الوالى يتبعه جُباة الضرائب، الأمر

الذى جعل الخليفة المأمون يُرسل أخاه المعتصم على رأس جيش قوامه أربعة آلاف جندى ليدعم جيوش الاحتلال لإخماد الثورة القبطية، وعلى الرغم من وحشيتهم فى ذبح الأطفال والشيوخ وانتهاك الحرمات إلا أن ثورة الأقباط ازدادت اشتعالا مما اضطر المأمون إلى إرسال جيش آخر من الأتراك بقيادة "أفشين" التركى للتنكيل بالثوار فحاربوه وقتلوا من الجيش عددا كبيرا، فجرد عليهم جيشا آخر فكسروه.

وفى سنة ٨٢٤ م ٢١٦ هـ. عندما كانت مصر تحت حكم الوالى عيسى بن منصور بن موسى أضطر الخليفة المأمون أن يزحف من بغداد إلى مصر على رأس قواته العسكرية لإخماد ثورة الأقباط التى فشل فى إخمادها كل قواده الذين أرسلهم سابقاً. وكاد ثوار الأقباط أن يفتكوا بجيش المأمون لولا أن الخليفة لجأ إلى أخبث الطرق وأحطها للقضاء على الثائرين، وذلك باستدعاء الأنبا ديونيسيوس البطريرك الإنطاكى والأنبا يوساب الأول بطريرك الأقباط وطلب منهما تحت التهديد أن يتعاونا معه فى إخماد ثورة الأقباط، وبكل أسف استجابا له وحررا للثوار رسالة بها نصائح ومواعظ يحُثا فيها الثوار على إلقاء السلاح وتسليم أنفسهم لولاة الأمر، فى الوقت الذى كان فيه الثوار فى أمس الحاجة للمعونة المادية والمعنوية للتخلص من الظلم والاستبداد الأجنبى إذ بالقادة الروحيين ينخدعوا فيدعونهم إلى الاستسلام.



صفحة من مخطوط قبطى للكتاب المقدس

وكان هذا الموقف للقادة الروحيين الواقعين فى الأسر، أثره البالغ على الأقباط أكثر من كل جحافل المأمون وطغمته. وعلى الرغم من هذا فقد رفض الثوار فى إباء وشمم هذه النصائح

الاستسلامية وفضلوا أن يهبوا أرواحهم فداء لمصر وعقيدتهم, وبعد حروب دموية بينهم وبين عساكر المأمون كان النصر دائما فى جانب الثوار. وقاد الخليفة الجيش بأجمعه إلى حومة الوغى وأصلى نار الحرب، ولم يدخر من قوته وسعا حتى أضعف الثوار.

ودخل الجيش بلاد البشمور وحرق مدنها ودمر كنايسها وقتل صغارها وسبى نساءها وأجلى الخليفة رجالها إلى جزر الروم الخاضعة له وإلى بغداد. ويقول تقى الدين المقريزى فى اختصار: انتفض القبط فأوقع بهم "الأفشين" على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية، فبيعوا وسُبى أكثرهم، حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر.



قرية مصرية على النيل

كما يذكر لنا المؤرخ المصرى ساويرس بن المقفع، بلغته المصرية وقتها،وهو ما نقل بعضه المقريزى فيما بعد، فى مخطوطه "تاريخ البطاركة" بتحقيقنا:

أولا: فى الفترة من أواخر الخلافة الأموية حتى الحملة العسكرية الكبرى للخليفة العباسى المأمون. و هى فترة متصلة من تاريخ الثورة البشمورية. تم رصدها فى الجزء الثانى من التحقيق. خاصة فى مدة البطرك ميخايل من سنة ٧٤٤ /٧٦٨ م. فى نهايات الخلافة الأموية. من ص ٣٧٨ إلى ص٤٦٤.

يذكر ساويرس أن مروان و أصحابه من الأمويين عندما تراجعوا مهزومين أمام الخراسانيين "العباسيين" لمصر:

[صادفو فى طريقهم شيخ حبيس (راهب) يعيش علا عمود له فيه عدة سنين، فقال بعض اصحاب مروان: أن هاذا الشيخ الراهب كلما يقوله حق

ويصح (أى تصدق نبوته). فجاء له وقال لـه: ما ذا يجرى علىّ. فقال لـه الشيخ: إذا قلت لك الحق أنت تقتلنى، ولكن أنا اقول ما اظهره اللاه لـى، والذى قال اللاه لـى عنك " بالكيل الذى كلت بـه يكال لك، وكما أنك جعلت الأمهات بغير أولاد كذلك تصير أمك بغير أولاد، ويكون مسلكك مخوفا جدا لكل من يشاهدك و يستأسرو أولادك ونسايك وكل من لك، و ياخد ملكك اللذى يتبعك الآن، و لا ياخد أحد من جنسك الملك إلا الأبد، ويهزمك أعاديك إلا أن تصل إلا (أرسنوى) فيحل بك هذا كله فى هذه السنة فى شهر مسرى. فلما سمع ذلك مروان أمر بهدم العمود وأنزل الشيخ منه فأحرقه بالنار وهو حى.



أسير يحيط به البدو

ثم وصل (مروان) إلا مصر فى عشرين يوما من شهر بأونه فى سنة اربع مايه وسبع و ستين للشهدا، وكان قبل أن تجرى هذه الأمور قد عصى علا عبد الملك قوم من البشمور ومقدمهم مينا ابن بقيره، وقوم آخر من شبرا سنبوط، و مسكو تلك الكورة (المنطقة) و لم يعطوه خراجا ولا لصاحب ديوان مصر إلا أن افتقدهم الرب و كان يعطيهم الظفر، فخرج لهم عبد الملك بعسكره فهزموه بقوة اللاه و قتلوهم بحد السيف، و أنفذ عسكر آخر واسطول فى البحر (النيل) بقوة اللاه هزموهم وقتلوهم، ولما وصل مروان إلا مصر عرفوه جميع ذلك، فكتب لهم كتبا و أمانا فلم يقبلوه، فأنفذ لهم عسكر كتير من مسلمى مصر وممن وصل صحبته من الشام، فلم يقدر العسكر أن يصل لهم بالجملة لأنهم تحصنو فى مواضع الوحلات التى لا يقدر أن يصل لها سوى رجل راجلا فإذ زلت رجله عن الطريق غطس فى اللوث (الوحل الكثيف) وهلك، وكانو العساكر

يحرسوهم من برا (يحاصرونهم من الخارج) فيخرجو لهم فى الليل البشامره من طرق يعرفوها يتلصصو علاهم و يقتلون من قدرو علا قتله ويسرقو اموالهم و خيلهم، فيطول علاهم الأمر فيرحلو عنهم.

ثم وصل عبدالله (الخليفة السفاح) الملك بعساكر عظيمة إلا دمشق فقسم عسكره مع أميرين يسمى أحدهم صالح ابن على والآخر أبا عون، وقال لهم: إذا و جدتم مروان و أخذتوه قدمتكم ملكين، وابو عون اعطيه مصر. ثم سير مع صالح ستين الف فارس وستين أمير، سلم لأبى عون اربعين الف فارس وأربعين قايد، فوصلو إلا دمشق، وكان واليها صهر مروان زوج ابنته الكبيره، فخرج لهم طايع فأبقوه على ولايته وتوجهو إلا مصر، وعند وصولهم إلا غزة قال لهم اهلها: لم يلبسو اهل دمشق السواد (شارة الخراسانيين العباسيين) ولا أدو لكم طاعة. فعادو بغضب وقتلو جماعة كثيرة من اكابر اهل دمشق وقتلو واليها صهر مروان واسرو ابنة مروان.

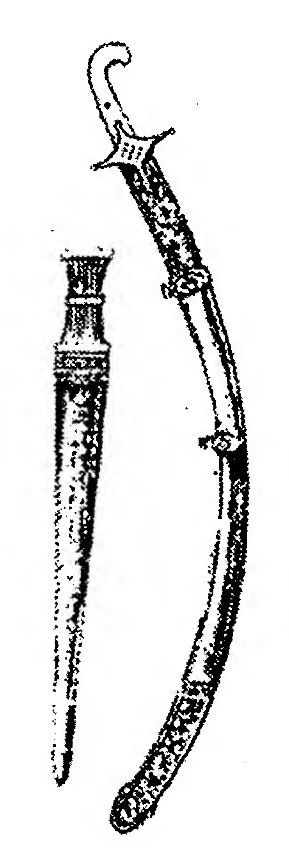


كان القضاء على ثورة البشمور محاولة فاشلة للقضاء على ثورات المصريين

فى هذا الوقت دخل عسكر مروان المدينة (اسكندريا) مع كوزارا وملكها قتل منها جماعه ونهب اراخنتها و استأسر اولادهم و نساهم واخذ كل ما لهم واخذ الأب انبا ميخايل وقال له: كيف مكنت اولادك النصارى أن يقاتلونا، يعنى عن البشامره، وخاطبه بكلام كتير والتمس منه مال فلم يكن معه شى فأودعه السجن وجعل رجلاه فيهما طوبة حديد، وكان تلاميذه وبعض كهنته لما جرى باسكندريا هربو ولم يبق منهم سوى انبا مينا القس الأقنوم الذى لبيعة مارى مرقس

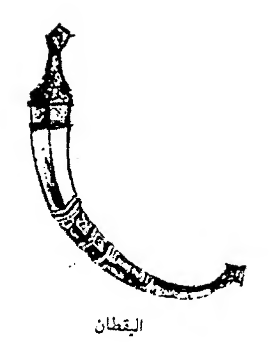
الأنجيلــى التلميــذ وولانتينــوس (فلانتينــوس) الشـماس كاتـب القلايـة وبارتلومـاوس الراهـب السمنودى لأنهم كانو قد ربطو معه. ثم أنه اخذ "قسما" بطرك الملكيه وجعل رجلاه مع رجلا ابينـا البطـرك فـى الحديـد، فبعـد خمسـة ايـام احضـر "قسما " مـن شـعبه وبيعتـه الـف دينـار ودفعهـا لكـوزارا فخـلاه. وانفـذ إلا ابينـا (انبـا ميخايل) وقال له: افعل هكذا واخليك . فأجابـه: ان ما فى بيعتى شى وانـا أجعل نفسـى عوض المـال فما أردت فأفعل فى. وضيق علاه إلا تمام تسعة ايـام، فاحضـره إليـه و مسكه بيده و جذبـه عـلا وجهه وطرحه علا ركبتيه وكان فى يده قضيب فضـربه بـه مـايتى دفعـة عـلا راسـه بكـل قوتـه وحيله، وكان السيد المسيح معينه وحافظه لم ينله مـن ذلـك شـى، ثـم أمـر بضـرب عنقـه، وكـانو يجبذونه مثل الخروف الساكت، فلم بعدو عن ذلك الكافر قليل أنزلو قلنسوته علا وجهه حتى توخذ راسه، ثم انه مد رقبته سرعة بفرح ومد السياف يده وجرد السيف وصاح قايل: آخذ راسه، جرت عادتـه ان يستأذن عليـه تلت دفعـات، ثـم استاذن تـانى دفعـة وهـو يـاذن لـه، ثـم طـرح الله فـى قلبـه وقال: ما فايدتنا فى قتل هذا الشيخ وقد كان منع البشـامرة عن قتالنـا وكتب لهم فمـا قبلو منـه لكن نحمله إلا رشيد وندعه ايضا ان يكتب لهم ويقول ان كلما حل بى لاجلكم. فامر بتخليته.

فلما بلغ البشامره خرجو للذين كانو يحاصرونهم فقتلـوهم وطـردوهم وهـم مسيرة يـومين، والـذى خلص من الموت مضـى إلا مروان وعرفه الذى جـرى لهم. ووصـل الخبـر إلا مـروان بـان اعـداه (العباسيين) قد قربو منه وقتلو صـهره زوج ابنتـه والى دمشق، فكتب مع الذين انهزمو لـه من عند

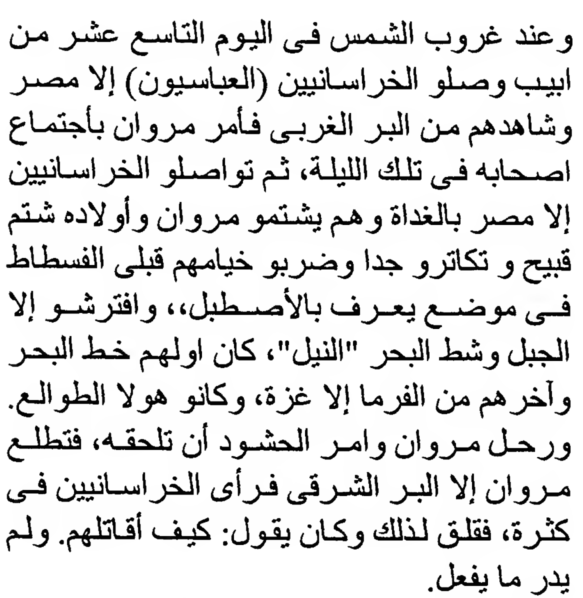


كـان للسـلاح والعنـف همـا الوسيلة لمحاولات القضـاء على ثورات المصريين.

البشموريين كتابا يقول لهم تعالو إلىّ سرعة فقد احتجت لكم وكل بلد تصلون له انهبوه واقتلو اهله. فسارو اوليك الكفرة إلا الصعيد وقتلو جماعة من الاراخنه ونهبو اموالهم وسبو حريمهم واهاليهم واولادهم واحرقو ديارات الرهبان واخذو الرهبانات حتى وصلو إلا الشرق. ثم كتب مروان إلا كوزارا اللذى كان قد انفذه إلا اسكندريا بان يسرع له و لا يتأخر عنه فلما سار إلا رشيد اعلموه أن البشامره قد قتلو المسلمين اللذين كانو فيها و اخربوها واحرقوها بالنار وأن العدو قد قرب، فسلم الأب البطرك لأحد الأمرا ليوصله إلا مروان. ومن بعد ذلك اليوم وقع الطرد علا مروان ومملكته.



اليقطان



وعند غروب الشمس فى اليوم التاسع عشر من ابيب وصلو الخراسانيين (العباسيون) إلا مصر وشاهدهم من البر الغربى فأمر مروان بأجتماع اصحابه فى تلك الليلة، ثم تواصلو الخراسانيين إلا مصر بالغداة وهم يشتمو مروان وأولاده شتم قبيح و تكاترو جدا وضربو خيامهم قبلى الفسطاط فى موضع يعرف بالأصطبل،، وافترشو إلا الجبل وشط البحر "النيل"، كان اولهم خط البحر وآخرهم من الفرما إلا غزة، وكانو هولا الطوالع. ورحل مروان وامر الحشود أن تلحقه، فتطلع مروان إلا البر الشرقى فرأى الخراسانيين فى كثرة، فقلق لذلك وكان يقول: كيف أقاتلهم. ولم يدر ما يفعل.
ثم أن مروان بعد تلك البلايا التى فعلها فى كل مكان أمر من معه أن يقتلو ويأسرو وينهبو ففعلو ذالك. وأنفذ إلا الصعيد وقتل جماعة النصارا

وكان المتولى لهذا الأمر من قبله رجل يسمى مروان بن عبد العزيز الذى بنا حلوان، وأخربو من مدينة تاودوسيا، فلما أراد الرب ينتقم منهم لم يصبر عليهم بعد ما أفسدو و استباحو من النسا وافسدو من العذارا كثير، فجا قوم يعرفون مخايض البحر فعرفو الخراسانيين بها ودلوهم عليها و عدو بهم إلا بر الغرب، وجعلو عسكرهم أربعة أجزاء جزء مع رجل يسما صالح وجزء يحفظ مصر وجزء مع رجل أسمه أبو الحكم وكان كبير عند الملك، وجزء فى أسفل شطنوف ونواحيها يمنع من يعدو، وجزء مع أبو عون نازل علا مخاضة قد نشفت.

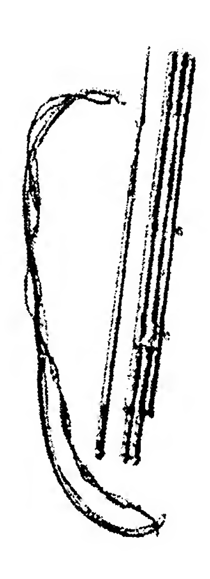
ثم ان مروان أنفذ حوثرة ورجاله مقابلهم لألا يعدو، فأما مراكب مروان فأخذوها الخراسانيين فعدا أبو عون وجيشه إلا برالغرب، فلما نظره حوثرة وجيشه أصحاب مروان انهزمو فتبعوهم وقاتلوهم، ولم يزالو يقتلون منهم إلا أن وصلو وادى هبيب بصلوات القديسين، وعدا عسكر الخراسانيين فى اليوم الذى اجتمعو فيه الرهبان إلا البيعة وكان يوم سبت آخر يوم من أبيب وقتلو خلق كثير من عسكر مروان، ولم يبق معه من تمنتلاف خرج بهم من مصر سوا أربعماية رجل فقط، فلما علم مروان أن عسكرهم قد انقسم علا أربعة أجزاء انهزم قبل تعديتهم بيومين وحمل نساه وأمواله وهرب فى خفية، وقتل من أصحابه تلتميه لأنه انهزم من شطنوف يريد جبل وسيم، فقتلوه رجاله وقتلو فرسه الذى كان تحته ومضو إلا " الخراسانيين " وحالفوهم .



ثانيا : ما ذكره المخطوط بعد ذلك عن ما حدث للبشمور فى ظل حكم الخليفة المأمون ، من ص

٨٠٦ إلى ص ٨٤٣ من الجزء الثانى المحقق:
وكان متولى الخراج فى ذالك الزمان رجلان أحدهما اسمه أحمد ابن الأسبط والآخر إبراهيم ابن تميم، هاذان مع ما كانو الناس عليه من البلايا لا يدعان طلب الخراج بغير رحمة، وكان الناس فى ضيق زايد وأصعب ما عليهم ما يطلبه منهم متولى الخراج وطلب ما لايقدرو عليه.

وبعد هذا انزل الله الكريم بحكامه الحق غلا عظيم علا كورة مصر حتا ان القمح بلغ خمس ويبات بدينار ومات بالجوع خلق كتير من النسا والاطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصا عدده من شدة الجوع، وكان متولى الخراج يؤذى الناس فى كل مكان واكثر النصارا البشمور كانو يعذبوهم بعذاب شديد مثل بنى اسرايل إلا ان باعو اولادهم فى الخراج من كثرة العذاب لانهم كانو يربطوهم فى الطواحين ويضربوهم حتى يطحنو مثل الدواب وكان الذى يعذبهم رجل اسمه غيث. وتمادت عليهم الايام وانتهو إلا الموت فلما نظرو اهل البشمور ان ليس لهم موضع يخرجو منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكترة الوحلات فيه وما يعرف طرقه الا هم فبدو يمتنعو إن يدفعو خراج واتفقو وتوامرو علا ذالك.

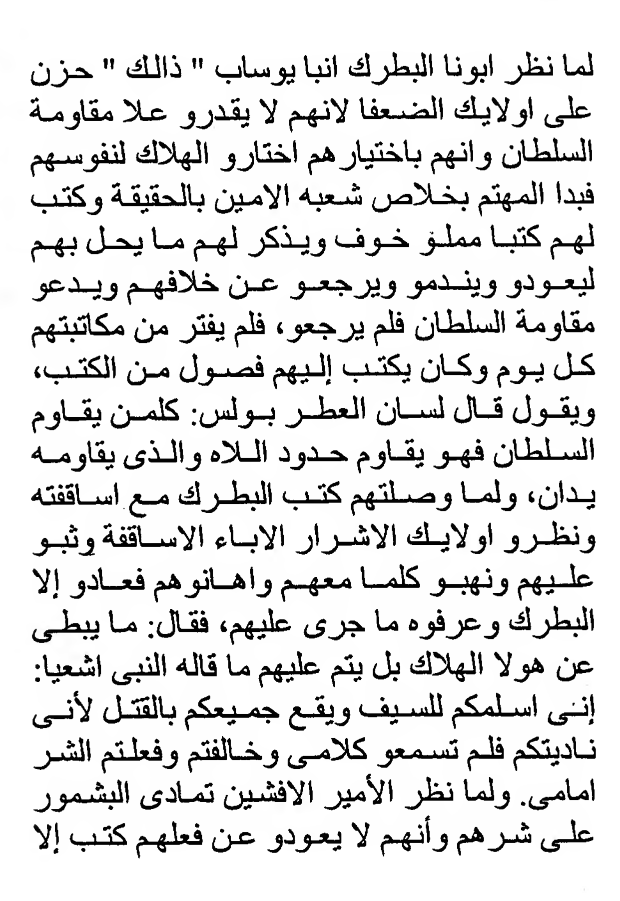


وكان الملك فى ذلك الوقت عبد اللاه المأمون ابن هارون الرشيد ولما انتها إليه حال مصر وما فعلوه المتغلبون والمتولون انفذ اليهم عسكر مقدمه امير اسمه الافشين فقتل الخوارج (البشمور) من شرق مصر إلا ان انتهى إلا المدينة العظما اسكندريا فاراد ان يقتل كلمن فيها من اهلها اذا لم

يقاتلو " معه " لانهم مكنو العدو من الدخول إلا مدينتهم فمنعه اللاه من ذلك لأجل دموع المومنين وصلاة البطرك انبا يوساب، وكان الافشين يقتل حتا الابريا بجريرة المفسدين إلا ان ما بقى احد يراه الا قتله وقتل جماعة من اراخنة النصارا فى كل موضع وكان البطرك انبا يوساب حزين لمشاهدته ذالك من الوبا والغلا والسيف، وتممو البشموريون مأمراتهم وصنعو لهم سلاحا وحاربو السلطان واحمو نفوسهم أن لا يدفعو خراج فكلمن يمضى لهم ليتوسط حالهم قامو عليه وقتلوه.



أيقونة للسيد المسيح وأحد القديسين



لما نظر ابونا البطرك انبا يوساب " ذالك " حزن على اولايك الضعفا لانهم لا يقدرو علا مقاومة السلطان وانهم باختيارهم اختارو الهلاك لنفوسهم فبدا المهتم بخلاص شعبه الامين بالحقيقة وكتب لهم كتبا مملو خوف ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودو ويندمو ويرجعو عن خلافهم ويدعو مقاومة السلطان فلم يرجعو، فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم وكان يكتب إليهم فصول من الكتب، ويقول قال لسان العطر بولس: كلمن يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود اللاه والذى يقاومه يدان، ولما وصلتهم كتب البطرك مع اساقفته ونظرو اولايك الاشرار الاباء الاساقفة وثبو عليهم ونهبو كلما معهم واهانوهم فعادو إلا البطرك وعرفوه ما جرى عليهم، فقال: ما يبطى عن هولا الهلاك بل يتم عليهم ما قاله النبى اشعيا: إنى اسلمكم للسيف ويقع جميعكم بالقتل لأنى ناديتكم فلم تسمعو كلامى وخالفتم وفعلتم الشر امامى. ولما نظر الأمير الافشين تمادى البشمور على شرهم وأنهم لا يعودو عن فعلهم كتب إلا

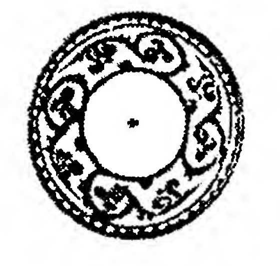
الخليفة عبداللاه المأمون يعلمه بما جرا.

فاسمعو الآن ايضا كان اسقف على كرسى تايس اسمه اسحاق وكان شعبه (البشمور) قد سعا به دفعات بكلام ردى وقالو للاب يوساب اذا لم تقطع هذا الاسقف وتزله عنا والا خرجنا من دين الارتدكسية، وكان ايضا بمصر اسقف آخر اسمه تادروس قد ذكر شعبه عنه مثل هذا وكتبو إلا البطرك يقولو له ان لم تقطعه وتبعده عنا وإلا رجمناه وقتلناه، فلما نظر البطرك القديس قيام الشعب كان يدعو ويقول يا رب ثبت شعبك لرعاتهم ولا تدع فى ايامى بغض، ولم يفتر من مكاتبة الشعب إلا تنيس ومصر المدينتين ويقول من قول بولس: ما تفرحون انتم اذا اعتللنا نحن وتكونون انتم اقويا. هاذا الذى ادعوه من اجلكم لتخلصو واكاتبكم به ولا احضر عندكم كأننى حاضر عندكم ولا اصنع حرما ومنعا كما امرنى الرب ان ابنى ولا اهدم. وبقى الشعب متمادين علا فعلهم يقولو بقول واحد ولا يتغيرون عنه: انه ان لم ينقطع هذان الاسقفان والا فما بقا منا انسان واحد فى الامانة الارتدكسية بل نعود إلا المخالفين وانت المطالب عنا. فلما سمع هاذا اسرع إلا تنيس وسألهم أن يعودو عن غضبهم فلم يفعلو بل زادو فى غضبهم، وكذلك مدينة مصر ايضا مع اسقفهم فلما رأى ذلك انفذ واجمع الاساقفة من كل موضع وعرفهم الخبر وقال لهم انا برى من هذا وانتم اخير نكتب ونمنع الاسقفين اسحاق اسقف تنيس وتادرس اسقف مصر.



وكان الافشين بمصر ينتظر جواب ما كتب به إلا المأمون بسبب اهل البشمور وكان المأمون رجل

حكيم فى فعله ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكما يفسرو له كتبنا وبهذا الحكم كان محبا للنصارا فجا إلا مصر وجمع جيشه واستصحب معه البطرك دينوسيوس بطرك انطاكية فلما علم الاب البطرك انبا يوساب بوصول المأمون وصحبته بطرك انطاكية جمع الاساقفة وسار إلا فسطاط مصر ليسلم عليه كما يجب للملوك فلما نظر الاب ديونوسيوس الاب انبا يوساب فرح فرح عظيم روحانى. وكان له منزله عند عبد اللاه المأمون فلما عرفوه بوصول انبا يوساب تقدم بدخوله إليه فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمة اللاه الحالة عليه، ثم عرفه انبا ديونوسيوس أن ابانا لم يتأخر عن مكاتبة البشمور واردعهم أن لا يقاومو امرك، ففرح المأمون بهاذا الأمر، ثم قال للبطرك انبا يوساب هو ذا آمرك انت ورفيقك البطرك ديونوسيوس أن تمضيا إلا هولا القوم وتردعاهم كما يجب فى ناموسكما ليرجعو عن خلافهم ويطيعو امرى فان اجابو فانا افعل معهم الخير فى كلما يطلبوه منى وان تمادو على الخلاف فنحن بريون من دماهم.


طبق مزخرف صنع في مصر

ففعل ابوانا البطركان وسارا إلا البشمور ورساهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلو عن افعالهم فلم يجيبو ولا قبلو سألهما، فعادا واعلما المأمون بذالك، فامر حينيذ المامون الافشين بان يسير إليهم بعسكره وأن يقاتل البشمور فلم يقدر عليهم لتحصين مواضعهم بالمياه، ومواضعهم تسمى التنفى، بل كانو يقتلون من عسكر الافشين كل يوم جماعة فلما اتصل الخبر بالمأمون سار بجيشه وانحدر إلا هناك وامر ان يحشدو جميع من يعرف طرق البشموريين من اهل المدن

والقرى المجاورة لهم ومن كل الاماكن ومن أهل تندا وشبرا سنبوط اللذين يعرفون طرق تلك الاماكن. وكانت العساكر تتبعهم إلا أن سلمو لهم البشمور، فهلكوهم وقتلوهم بالسيف بغير اهمال ونهبوهم واخربوا مساكنهم واحرقوها بالنار وهدمو بيعهم، وتم عليهم قول داود النبى فى المزمور ٦٣ : اسلم قوتهم للسبى ومالهم لاعداهم واسلم شعبه للسيف ولم يشفق على ميراثه. فلما نظر المأمون كثرة القتلا امر العسكر ان ترفع السيف والذى بقى منهم اسره إلا مدينة بغداد من الرجال والنساء كعبيد.

فسأل الاب البطرك انبا ديونوسيوس: اى شى كان السبب فى نفاق هولا القوم. فعرفوه انه بسبب ظلم متولى الخراج لهم اولا. فتوجع قلبه علا هلاكهم وتقدم إلا المأمون وقال له لمنزلته عنده، وكان مع المأمون اخوه المسمى ابراهيم الذى ملك بعده، وقال له: السبب فى نفاقهم ظلم متولى الخراج لهم وعنتهم. فلما سمع منه هاذا قال له: اعف نفسك ولا تقم بمصر بعد هذه الساعة، ان سمع اخى ابراهيم فهو يقتلك لان جباة الخراج كانو من عنده. فلما سمع الاب ديونوسيوس هذا خرج وهو قلق وودع الاب انبا يوساب وقال له: ما يمكن ان اقيم ساعة واحدة بمصر. واستعلم منه الخبر فاعاده عليه وودعه وهو باك، فلما سمع ابراهيم هذا الخبر طلب البطرك ديونوسيوس وارسل إليه فاعلم بمسيره إلا بلده فغضب جدا وتمكن الغضب منه ايام كثيرة، ولما توفا المأمون وجلس ابراهيم اخوه هرب البطرك ديونوسيوس ولم يقم بانطاكية ولا باعمالها حتى عاهده انه لا يقتله.


طبق مزخرف صناعة مصرية

وانشؤوا بساتين واقاموا هناك الى اليوم وهم الى

اليوم يسمون اهل البشروديين.*

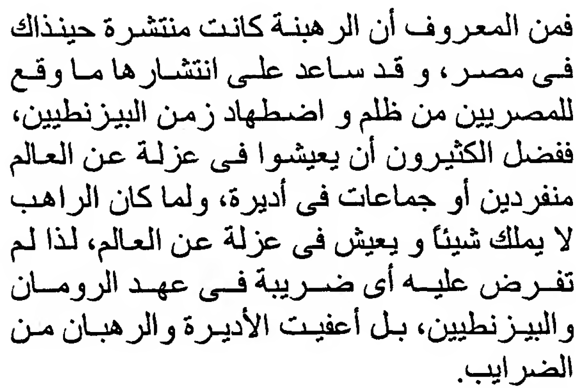
استمرار اضطهاد المصريين الأقباط وانتشار الإسلام فى مصر.

ولابد لنا هنا من ذكر ما قيل عن انتشار الإسلام فى مصر منذ أواخر عصر الولاة. يتضح لنا مما كتبه يوحنا، و من بعده ساويرس ابن المقفع والمقريزى أن العامل المالى من أهم العوامل التى حولت بعض الأقباط إلى إتباع الدين الإسلامى من باب الولاء للحكام البدو.



كان العنف هو النغمة المستمرة لاضطهاد المصريين

ويتضح من كتابات يوحنا أن الرهبان كانوا يبغضون السلطة الإسلامية لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية والخراج إلى أن بدأ والى مصر عبد العزيز ابن مروان (٦٨٤ - ٧٠٥م) فرض الجزية عليهم.



فمن المعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك فى مصر، و قد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم و اضطهاد زمن البيزنطيين، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة، ولما كان الراهب لا يملك شيئاً و يعيش فى عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة فى عهد الرومان والبيزنطيين، بل أعفيت الأديرة والرهبان من الضرايب.

ولما أحتل العرب مصر حافظوا على هذا التقليد تقرباً من الكنيسة المصرية و ما لبث الحكام المسلمين أن فطنوا إلى أن كثيراً من الأقباط لجئوا إليها كى يتخلصوا من الجزية. و لذا نرى

حاكم مصر عبد العزيز أبن مروان (و هو أخ للخليفة عبد الملك أبن مروان) يغتنم ذلك و يأمر بإحصاء الرهبان و فرض الجزية عليهم. كما أنه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدراً معيناً من المال سنوياً بالإضافة إلى خراج الأديرة و الكنايس.
وكانت سلطة العرب تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الأموال المفروضة عليهم، كما كانت تتشدد في جمع الجزية من المصريين.
ويبين يوحنا النقيوسى أن كثيراً من المصريين أسلموا ليتخلصوا من الجزية و الضرايب المفروضة عليهم، كما يذكر أن الأقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكام المسلمين تنطوى على الهروب من مكان إلى مكان، وهجر الأراضى الزراعية، و ذلك منذ خلافة الوليد أبن عبد الملك [٧٠٥-٧١٤م]. وفى أثناء حكم أخيه عبد الله أبن عبد الملك أصدر نايبه فى مصر أمر بوشم الفارين من الجبايات المالية.
واستمرت حركة الهروب فى حكم قرة ابن شريك واتخذت شكلاً واسعاً، فيذكر يوحنا أن الأسرة بأكملها كانت تهرب من مكان إلى مكان فراراً من الأموال الباهظة المطلوبة منهم. و أضطر قرة أبن شريك إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة مسلحة لوقف تلك الحركة وإعادة كل هارب إلى موضعه. وظل قرة يقاوم تلك الحركة بنشاط حتى توفى سنة ٧١٤م. و يؤكد كلام يوحنا ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ترجع إلى عهد هذا الحاكم.
ومن بعد قرة ابن شريك حكم مصر اسامة ابن زيد التنوخى فى خلافة سليمان ابن عبد الملك، وتشدد مثله فى طلب الخراج و الجزية، وأسلم



العنف كان وسيلة الحكام للقضاء على ثورات المصريين

الكثيـرون فـى أيامـه كـى يتخلصـوا مـن الأعبـاء المالية. ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية و الجزية و لم يرغبوا فى اعتناق الإسلام.
ولكى لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى بمحلات إقامتهم، وألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله. أما من يفقد سجله أو يتلفه فقد ألزمه الحاكم بالحصول على سجل آخر مقابل دفع خمسة دنانير.



العنف من أجل القضاء على الثورة

ويرصد المقريزى فى كتابه السلوك العديد من الحوادث التى تكشف عن فساد المماليك وإهمالهم لشئون البلاد خاصة نظم الرى وضبط النيل مما تسبب فى المجاعات القاتلة والمتاجرة فى الأقوات، ونهبهم لأموال الفلاحين وصرفها على ملذاتهم وأعوانهم وجواريهم دون المصريين، وهم إلى جانب هذا يفتعلون حوادث الفتنة الطائفية بين المصريين من أقباط ومسلمين من أجل زيادة نهب المصريين القبط والظهور بمظهر المسلمين الأتقياء الحريصون على الإسلام.
ففي رجب: كانت وقعة أهل الذمة: وهى من القصص العجيبة التى تروى من أجل التستر وراء الدين من أجل إذلال المصريين و نهبهم، يقول المقريزى:
فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج واجتمع بالسلطان والأمراء وبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرساً وحوله عدة من الناس مشاة.
فقيل للمغربى أن هذا الراكب نصراني فشق عليه

واجتمع بالأميرين بيبرس وسلار وحدثهما بما رآه وأنكر ذلك وبكى بكاء كثيراً وشنع فى أمر النصارى وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض وتذل المسلمين وأطال القول فى الإنكار وما يلزم ولاة الأمور من إهانة أهل الذمة وتغيير زيهم.
فاجتمع القضاة بالمدرسة الصالحية بين القصرين وندب لذلك من بينهم قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفى وطلب بطرك النصارى وجماعة من أساقفتهم وأكابر قسيسيهم وأعيان ملتهم وديان اليهود وأكابر ملتهم وسئلوا عما أقروا عليه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عقد الذمة فلم يأتوا عن ذلك بجواب.
وطال الكلام معهم إلى أن استقر الحال على أن النصارى تتميز بلباس العمايم الزرق واليهود بلبس العمايم الصفر ومنعوا من ركوب الخيل والبغال .
ولما كان يوم خميس العهد وهو العشرون من شهر رجب: جمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء وألا يركبوا خيلاً وبغالاً وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ونودى بذلك فى القاهرة ومصر وهدد من خالفه بسفك دمه.
فاضطر الحال بالنصارى إلى الإذعان وأسلم أمين الملك عبد الله بن العنام مستوفى الصحبة وخلق كثير حرصاً منهم على بقاء رياستهم وأنفة من لبس العمائم الزرق وركوب الحمير.
وامتدت أيدى العامة إلى كنايس اليهود والنصارى فهدموها بفتوى الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن



قرية مصرية على ضفاف النيل

محمد بن الرفعة.
فطلب الأمراء القضاة والفقهاء للنظر فى أمر الكنايس فصرح ابن الرفعة بوجوب هدمها وقال قاضي القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد أنه إذا قامت البينة بأنها أحدثت فى الإسلام تهدم.
وكان أهل إسكندريا لما ورد عليهم مرسوم السلطان فى أمر الذمة ثاروا بالنصارى وهدموا لهم كنيستين وهدموا دور اليهود والنصارى التى تعلو على دور جيرانهم المسلمين وحطوا مساطب حوانيتهم حتى صارت أسفل من حوانيت المسلمين.
وهدم بالفيوم أيضاً كنيستان.
وبقيت الكنايس بأرض مصر مدة سنة مغلقة حتى قدمت رسل الأشكرى ملك الفرنج تشفع فى فتحها ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر وكنيسة ميكائيل الملكية ثم قدمت رسل ملوك آخر ففتحت كنيسة حارة زويلة وكنيسة نقولا.
وفيها خرج الوزير شمس الدين سنقر الأعسر فى عدة مائة من المماليك السلطانية إلى الوجه القبلى لحسم العربان وقد كان كثر عيثهم وفسادهم ومنع كثير منهم الخراج لما كان من الاشتغال بحركات غازان (التتار).


البدو يتسلقون الهرم

فأوقع الوزير شمس الدين بكثير من بلاد الصعيد الكبسات وقتل جماعات من المفسدين وأخذ سائر الخيول التى ببلاد الصعيد فلم يدع بها فرساً لفلاح ولا بدوى ولا قاض ولا فقيه ولا كاتب وتتبع السلاح الذى مع الفلاحين والعربان فأخذه عن آخره وأخذ الجمال.
وعاد من قوص إلى القاهرة ومعه ألف وستون فرساً وثمانمائة وسبعون جملاً وألف وستمائة رمح وألف ومائتا سيف وسبعمائة درقة وستة

آلاف رأس من الغنم فسكن ما كان بالبلاد من الشر وذلت الفلاحون وأعطوا الخراج.
وامتدت أيدى العامة إلى اليهود والنصارى وكادوا يقتلونهم من كثرة الصفع فى رقابهم بالأكف والنعال فامتنع الكثير منهم من المضى فى الأسواق خوفاً على نفسه.
وفيها كثر فساد العربان بالوجه القبلي وتعدى شرهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض جبوها شبه الجالية (الجزية).
واستخفوا بالولاة ومنعوا الخراج وتسموا بأسماء الأمراء وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس والآخر سلار ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم.


خيول مملوكية

فاتفق الأمراء على الخروج لقتالهم وأخذ الطرق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال والمفاوز فيفوت الغرض فيهم فاستدعوا الأمير ناصر محمد بن الشيخي متولي الجيزية - وغيره من ولاة العمل وتقدموا إليه بمنع الناس بأسرهم من السفر إلى وأشاع الأمراء إنهم يريدون السفر إلى الشام وكتبت أوراق الأمراء المسافرين وهم عشرون مقدماً بمضافيهم وعينوا أربعة أقسام: قسم يتوجه فى البر الغربي من النيل وقسم فى البر الشرقي وقسم يركب النيل وقسم يمضى فى الطريق السالكة.
وتوجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر - وقد قدم من الشام بعد عزله من الوزارة واستقراره فى جملة الأمراء المقدمين - إلى جهة ألواح فى خمسة أمراء وقرر أن يتأخر مع السلطان أربعة أمراء من المقدمين وتقدم إلى كل من تعين لجهة أن يضع السيف فى الكبير والصغير والجليل

والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ويحتاطوا على سائر الأموال.
وسار الأمير سلار فى رابع جمادى الآخرة ومعه جماعة من الأمراء فى البر الغربى وسار الأمير بيبرس بمن معه فى الحاجر فى البر الغربى على طريق الواحات وسار الأمير بكتاش أمير سلاح بمن معه إلى الفيوم وسار الأمير بكتمر الجوكندار بمن معه فى البر الشرقى وسار قتال السباع وبيبرس الدوادار وبلبان الجلشى إلى عرب الشرقية و السويس والطور وسار الأمير قبجق ومن معه إلى عقبة السيل وسار طقصبا إلى قوص بعرب الطاعة وأخذ عليهم المفازات.
وضرب الأمراء على الوجه القبلى حلقة كحلقة الصيد وقد عميت أخبارهم على أهل الصعيد فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها ووضعوا السيف فى الجيزية بالبر الغربى والإطفيحية من الشرق فلم يتركوا أحداً حتى قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبوا حريمه فإذا ادعى أحد إنه حضرى قيل له قل: دقيق فإن قالها بقاف العرب قتل.
ووقع الرعب فى قلوب العربان حتى طبق عليهم الأمراء وأخذوهم من كل جهة فروا إليها وأخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من بجانبى النيل إلى قوص وجافت الأرض بالقتلى.
واختفى كثير منهم بمغاير الجبال فأوقدت عليهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم وأسر منهم نحو ألف وستمائة لهم فلاحات وزروع وحصل من أموالهم شىء عظيم جداً تفرقته الأيدى.
وأحضر منه للديوان ستة عشر ألف رأس من الغنم من جملة ثمانين ألف رأس ما بين ضأن وماعز ونحو أربعة آلاف فرس واثنين وثلاثين


مملوك أحد جنود المماليك

ألف جمل وثمانية آلاف رأس من البقر غير ما أرصد في المعاصر (بالطبع كانت في معظمها لفلاحين مزارعين، فالبدو لايملكون البقر) ومن السلاح نحو مائتين وستين حملا ما بين سيوف ورماح ومن الأموال على بغال محملة مائتين وثمانين بغلاً.

وصار لكثرة ما حصل للأجناد والغلمان الذين اتبعوا العسكر يباع الكبش السمين من ثلاثة دراهم إلى درهمين والمعز بدرهم الرأس والجزة الصوف بنصف درهم والكساء بخمسة دراهم والرطل السمن بربع درهم و لم يوجد من ثم عاد العسكر في سادس عشر رجب وقد خلت البلاد بحيث كان الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحداً وينزل بالقرية فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار (أما الفلاحين الرجال فقد قبض عليهم دون سبب إلا نهبهم) فأفرجوا عن المأسورين (من الفلاحين) وأعادوهم لحفظ البلاد.

وفيها قام الأمير بيبرس الجاشنكير في إبطال عيد الشهيد بمصر.



سنة تسع وسبعمائة

وفيها فشا بالناس أمراض حادة وعم الوباء وطلبت الأدوية والأطباء وعز سائر ما يحتاج إليه المرضى حتى أبيع السكر وأبيع الفروج بخمسة دراهم والرطل البطيخ بدرهم وكان الرجل الواحد من العطارين يبيع في كل يوم بثلاثمائة درهم إلى مائتي درهم.

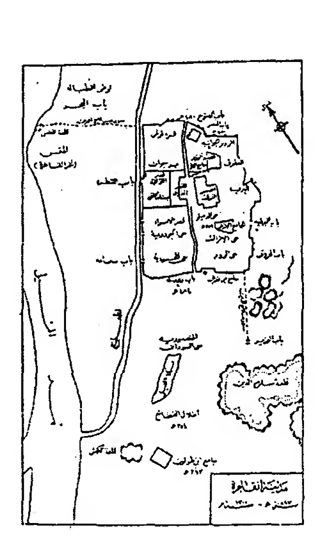
وفيها توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى وارتفع سعر القمح حتى أبيع الأردب بخمسين درهماً والأردب الشعير والفول بعشرين درهما.

ومنع الأمراء البيع من شونهم إلا الأمير عز الدين

أيدمر الخطيري الأستادار فإنه تقدم إلى مباشريه ألا يتركوا عنده مباشرة سنة وباع ما عداه قليلاً قليلاً.

وغنت عامة مصر: سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء منين.

وأنظر إلى الغنى الفاحش لهذا المملوك و ما تملكه من أموال مصر الذى يذكره المقريزى فى حوليات عام عشر وسبعماية مقارنة بأحوال الفلاح المصرى.



ومات الأمير سيف سلار فى ليلة الرابع والعشرين من جمادى الأولى وكان من التتار الأويراتية وصار إلى الملك الصالح علي بن قلاوون وبقي بعد موته فى خدمة الملك المنصور قلاوون حتى مات ثم دخل فى خدمة الملك الأشرف خليل بن قلاوون وحظى عنده فلما قتل حظى عند لاجين لمودة كانت بينهما وترقى إلى أن صار نائب السلطنة بديار مصر وكان من أخباره ما تقدم ذكره إلى أن قدم من الشوبك فترك فى السجن حتى مات جوعاً وتولى الأمير علم الدين سنجر الجاولي دفنه بتربته على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش وكان سلار أسمر لطيف القد أسيل الخد لحيته فى حنكه سوداء ظريفاً فى لبسه اقترح أشياء نسبت إليه إلى يوم وبلغ من السعادة إلى مبلغ عظيم: فكان يدخل إليه من أجر أملاكه فى كل يوم ألف دينار مصرية ومن إقطاعاته وضماناته وحماياته تتمة مائة ألف درهم فى اليوم عنها حينئذ زيادة على خمسة آلاف دينار مصرية وكان بقطاعه أربعين إمرة طبلخاناه وكان عاقلاً متأنياً داهياً قليل الظلم واشتملت تركته على ثلاثمائة ألف ألف دينار وزيادة: فوجد له فى يوم ياقوت أحمر زنة رطلين ونصف وبلخش زنة

* المراجع والمصادر:

* أوراق مصرية، إبراهيم زكي خورشيد، كتاب الهلال (٤١٦) ١٩٨٥ القاهرة.
* تاريخ مصر من خلال تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، إعداد و تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، الجزء الثانى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٦.
* مجلة صهيون القاهرية العدد٧و٨، ترجمة لنصوص زوتنبرج قام بها كامل صالح نخله، القاهرة، يوليه و أغسطس ١٩٤٨ و يوليه و أغسطس ١٩٤٩.
* تاريخ مصر والعالم القديم ليوحنا النقيوسى، تحرير وتدقيق عبد العزيز جمال الدين، دار الثقافة الجديدة، ٢٠١١ القاهرة.
* تاريخ الرسل و الملوك، الطبرى، القسم الأول،جـ ١.
* فتوح مصر و المغرب، ابن عبد الحكم، تحقيق: عبدالمنعم عامر، لجنة البيان العربى، ١٩٦١ القاهرة.
* فتح العرب لمصر، الفرد ج. بتلر ترجمة: محمد فريد أبو حديد،مكتبة الأسرة ١٩٩٩، القاهرة.
* مصر فى عصر الولاة، سيدة إسماعيل الكاشف، مكتبة النهضة المصرية سلسلة الألف كتاب (٢٤١) القاهرة.

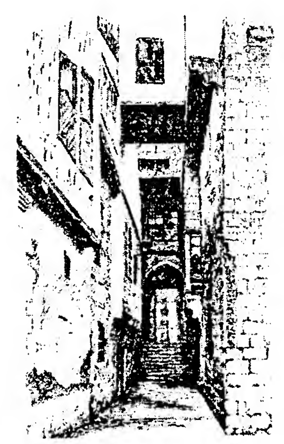
رطلين ونصف وزمرد تسعة عشر رطلاً وستة صناديق فيها جواهر ومن الماس وعين الهر ثلاثمائة قطعة ولؤلؤ زنة ما بين مثقال كل حبة إلى درهم عدة ألف ومائة وخمسين حبة عين مصري مبلغ مائي ألف و أربعة وأربعين ألف دينار وفضة دراهم مبلغ أربع مائة ألف و أحد وسبعين ألف درهم ووجد له أيضاً فى يوم فصوص مختلفة زنة رطلين وذهب عين مصري مبلغ خمسة وخمسين ألف فى دينار ودراهم فضة ألف ألف درهم وحلي ذهب أربع قناطير وآلات ما بين طاسات ونحوها ستة قناطير فضة ووجد فى يوم ذهب مصري مبلغ خمسة وأربعين ألف دينار ودراهم فضة مبلغ ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف درهم وفضيات ثلاثة قناطير ووجد فى يوم ذهب عين ألف ألف دينار وفضة ثلاثمائة ألف درهم ووجد له ثلاثمائة قباء من حرير بفرو قاقم وثلاثمائة قباء حرير بسنجاب وأربعمائة قباء بغير فرو وسروج ذهب مائة سرج ووجد له ثمانية صناديق لم يعلم فيها حملت مع ما تقدم إلى السلطان ووجد له ألف تفصيلة ما بين طرد وحش وعمل الدار ووجد له خام ست عشر نوبة ووصل معه من الشوبك مبلغ خمسين ألف دينار ذهباً وأربعمائة ألف درهم وسبعين ألف درهم وثلاثمائة خلعة ملونة وخركاه بغشاء حرير أحمر معدنى مبطن بحرير أزرق مروى وستر بابها زركش ووجد له ثلاثمائة فرس ومائة وعشرون قطار بغال وعشرون قطار جمال ومن الغنم والبقر والجوارى والمماليك والعقار شيء كثير جداً ووجد له فى موضع بين حائطين عدة أكياس لم يدر ما فيها ولا كم عدتها ووجد له فى المرحاض شبه فسقية كشف عنها فإذا هى مملوءة

ذهباً ووجد له من القمح والشعير والفول ونحوها ثلاثمائة ألف أردب وذلك سوى ما أخذ من أخوته ومباشريه وحواشيه وأسبابه فإنهم صودروا جميعاً حتى مقدم شونه وجباة أملاكه فاجتمع من ذلك ما لا يدخل تحت حصر لكثرته.

سنة ثلاثة عشرة و سبعماية

وأنقل هنا ما قاله المقريزى فى كتابه السلوك ليدلل به على اسراف و بذخ السلاطين المماليك فى صرفهم لأموال المصريين فى الوقت الذى كان فيه الفلاح المصرى لايجد قوت يومه إلا بمشقة و إذلال:

وفيها وصل إلى السلطان مهرة تعرف ببنت الكرتا كان قد بذل فيها نحو مائتى ألف وتسعين ألف درهم وضيعة من بلاد حماة ويقال إنها بلغت كلفتها على السلطان ستمائة ألف درهم.



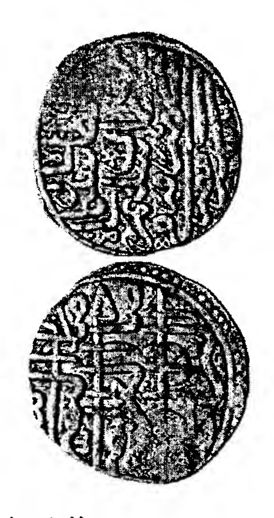
أحد أزقة القاهرة فى الفترة المملوكية

وأما الأمراء الذين توجهوا إلى روك (مساحة) أعمال مصر فإن كلاً منهم لما نزل بأول عمله استدعى مشايخ البلاد ودللاءها وقياسيها وعدولها وسجلات كل بلد.

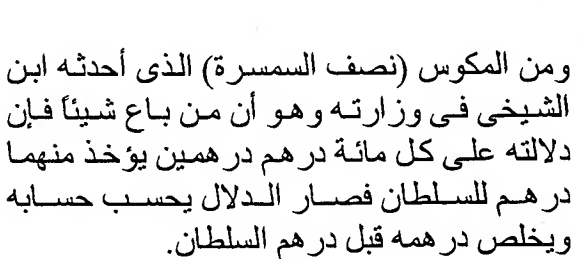
وعرف متحصلها ومقدار فدنها ومبلغ عبرتها وما يتحصل للجندى المملوكى من الطحين والغلة والدجاج والخراف والبرسيم والكشك والعدس والكعك ثم قاس تلك الناحية وكتب بذلك عدة نسخ ولا يزال يعمل ذلك حتى انتهى أمر عمله.

ومن المكوس التى كانت مقررة (ساحل الغلة) وكانت هذه الجهة مقطعة لأربعمائة من أجناد الحلقة سوى الأمراء ومتحصلها فى السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم و إقطاع الجندى

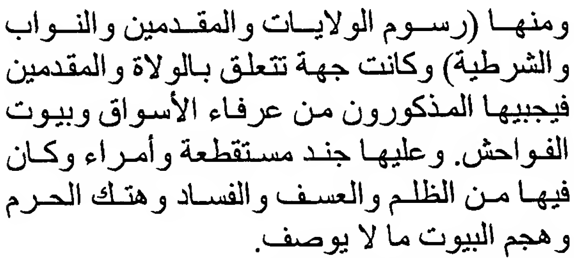
منها من عشرة آلاف درهم فى السنة إلى ثلاثة آلاف وللأمراء من أربعين ألف إلى عشرة آلاف واقتنى منها المباشرون أموالاً عظيمة فإنها أعظم الجهات الديوانية وأجل معاملات مصر وكان الناس منها فى أنواع من الشدائد لكثرة المغارم والتعب والظلم فإن أمرها كان يدور ما بين ظلم نواتيه المراكب والكيالين والمشدين والكتاب، وكان المقرر على كل أردب مبلغ درهمين للسلطان ويلحقه نصف درهم أخر سوى ما ينهب وكان له ديوان فى بولاق خارج المقس وقبله كان خص يعرف بخص الكيالة فلما ولى ابن الشيخى شد هذه الجهة - قبل أن يلى الوزارة - عمر مكان الخص مقعداً وجلس فيه وكان فى هذه الجهة نحو الستين رجلاً ما بين نظار ومستوفين وكتاب وثلاثين جندياً وكانت غلال الأقاليم لا تباع إلا فيه.



عملة ذهبية



ومن المكوس (نصف السمسرة) الذى أحدثه ابن الشيخى فى وزارته وهو أن من باع شيئاً فإن دلالته على كل مائة درهم درهمين يؤخذ منهما درهم للسلطان فصار الدلال يحسب حسابه ويخلص درهمه قبل درهم السلطان.

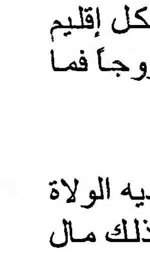


ومنها (رسوم الولايات والمقدمين والنواب والشرطية) وكانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش. وعليها جند مستقطعة وأمراء وكان فيها من الظلم والعسف والفساد وهتك الحرم وهجم البيوت ما لا يوصف.

ومنها (مقرر الحوائص والبغال) وهى تجبى من المدينة وسائر معاملات مصر كلها من الوجهين

القبلي والبحري فكان على كل من الولاة والمقدمين مقرر يحمل فى كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن حياصة ثلاثمائة درهم وعن ثمن بغل خمسمائة درهم وكان عليها عدة مقطعين سوى ما يحمل وكان فيها من الظلم بلاء عظيم.

ومنها (مقرر السجون) وهو على كل من يسجن ولو لحظة واحدة مبلغ ستة دراهم سوى ما يغرمه وعلى هذه الجهة عدة من المقطعين ولها ضمان وكانت تجبى من سائر السجون.



السلطان الغوري

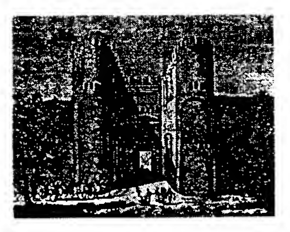
ومنها (مقرر طرح الفراريج) ولها ضمان فى سائر نواحى الإقليم فتطرح على الناس فى النواحى، وكان فيها من الظلم والعسف وأخذ الأموال من الأرامل والفقراء والأيتام ما لا يمكن شرحه وعليها عدة مقطعين ومرتبات ولكل إقليم ضامن مفرد ولا يقدر أحد أن يشترى فروجاً فما فوقه إلا من الضامن.

ومنها (مقرر الفرسان) وهى شيء يستهديه الولاة والمقدمون من سائر الأقاليم فيجىء من ذلك مال عظيم ويؤخذ فيه الدرهم ثلاثة دراهم لكثرة الظالم.

ومنها (مقرر الأقصاب والمعاصر) وهو ما يجبى من مزارعى الأقصاب وأرباب المعاصر ورجال المعصرة.
ومنها رسم (الأفراح) هي تجبى من سائر البلاد وهي جهة بذاتها لا يعرف لها أصل.
ومنها (حماية المراكب) وهى تجبى من سائر

المراكب التي فى النيل بتقرير معين على كل مركب يقال له مقرر الحماية ويجبى من المسافرين فى المراكب سواء إن كانوا أغنياء أو فقراء.

ومنها حقوق (القينات) وهى ما كان يأخذه مهتار الطشتخاناه من البغايا ويجمعه من المنكرات والفواحش من أوباش مصر .
و منها (شد الزعماء وحقوق السودان وكشف مراكب النوبة) فيؤخذ من كل عبد وجارية مقرر معلوم عند نزولهم فى الخانات وكانت جهة قبيحة شنعة.
ومنها (متوفر الجراريف) و تجبى من المهندسين والولاة بسائر الأقاليم وعليها عدة من الأجناد.



بوابة المتولي

ومنها (مقرر المشاعلية) وهي ما يؤخذ عن تنظيف أسربة (الترنشات) البيوت والحمامات والمساطو وغيرها وحمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان فإذا امتلأ سرب مدرسة أو مسجد أو بيت لا يمكن شيله حتى يحضر الضامن ويقرر أجرته بما يختار فمتى لم يوافقه صاحب البيت تركه حتى يحتاج إليه ويبذل له ما طلب.
ومنها (ثمن العبي) التي كانت تستأدى من البلاد.
ومنها (مقرر الاتبان) التي كانت تؤخذ لمعاصر الأقصاب بغير ثمن.
ومنها (زكاة الرجالة) بالديار المصرية.

سنة أحدى و عشرين وسبعماية

وفي يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: ثارت العامة يداً واحدة وهدموا كنيستين متقابلتين بالزهرى وكنيسة بستان السكرى وتعرف بالكنيسة الحمراء

وبعض كنيستين بمصر وكان ذلك من غرائب الاتفاق ونوادر الحوادث: والخبر عنه أن السلطان لما عزم على إنشاء الزريبة بجوار جامع الطيبرسي على النيل احتاج إلى طين كثير فنزل بنفسه وعين مكاناً من أرض بستان الزهرى قريباً من ميدان المهارة ليأخذ منه الطين ولينشئ فى هذا المكان بركة وعوض مستحقي وقفه بدله وكتب أوراقاً بأسماء الأمراء وأفرز لكل منهم قياساً معلوماً فتولى قياس ذلك عدة من المهندسين مع الأمير بيبرس الحاجب.
وابتدأ الأمراء فى الحفر يوم الثلاثاء تاسع عشرى ربيع الأول ورفعوا الطين على بغالهم ودوابهم إلى شاطئ النيل حيث عمل الزريبة.
فلم يزل الحفر مستمراً إلى أن قرب من كنيسة الزهرى وأحاط بها الحفر من دايرها وصارت فى الوسط بحيث تمنع من اتساع البركة.

فعرف الأمير أقسنقر شاد العمائر السلطان بذلك فأمره أن يبالغ فى الحفر حولها حتى تتعلق وإذا دخل الليل فيدع الأمراء تهدمها ويشيع أنها سقطت على غفلة منهم فاعتمد الحفر فيما حولها وكتم ما.

فلما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: بطل العمل وقت الصلاة لاشتغال الأمراء بالصلاة فاجتمع من غلمان المماليك والعامة طائفة كبيرة وصرخوا صوتاً واحداً ا لله أكبر ووقعوا فى أركان الكنيسة بالمساحى والفوس حتى صارت كوماً ووقع من فيها من النصارى وانتهب العامة ما كان بها.
والتفتوا إلى كنيسة الحمراء المجاوره لها وكانت

كنايس وأديرة من مصر:

الكنيسة المعلقة:

تقع الكنيسة المعلقة في منطقة حصن بابليون، وهي تعد من أشهر كنائس القاهرة ويطلق عليها اسم المعلقة لأنها مشيدة فوق بوابة الحصن الجنوبية. وتبلغ مساحة الكنيسة ٢٣,٥ متر طولا١٨٥ متر عرضا٩٥ متر ارتفاعا، وهي تتكون من صحن رئيسي وجناحين ضيقين يفصل بينهما ثمانية أعمدة على كل جانب، ويفصل بين الصحن والجناح الشمالي صف من ثلاثة أعمدة عليها عقود كبيرة مدببة الشكل، أما الأعمدة التي تفصل بين الأجنحة فهي من الرخام فيما عدا واحدا من البازلت الأسود، وبعض تيجان الأعمدة \"كورنثية\" الطراز. ومن ناحية العمارة فالكنيسة مشيدة على الطراز \"البازيليكي\" التقليدى المكون من ثلاثة أجنحة وردهة أمامية وهيكل مكون من ثلاثة أجزاء، ويوجد في جناح الكنيسة الجنوبي باب صغير من خشب الصنوبر المطعم بالعاج الشفاف يؤدى إلى ما يسمى بالكنيسة الصغرى، وهي في

الحقيقة مقصورة جانبية مشيدة فوق البرج الشرقي للبوابة الجنوبية للحصن وهي تمثل حاليا أقدم الأجزاء المتبقية من البناء الأصلي للكنيسة.

أما مدخل الكنيسة فيقع جنوب الجدار الشرقي للردهة الأمامية، المزدانة بزخارف هندسية ونباتية، وتقع في الجهة الشرقية من الكنيسة ثلاثة هياكل يطلق على الأوسط اسم القديسة العذراء مريم، وعلى الأيمن اسم القديس يوحنا المعمدان، وعلى الأيسر اسم القديس مارجرجس. وأمام هذه الهياكل توجد عدة أحجبة خشبية، والحجاب الأوسط من الأبنوس المطعم بالعاج ويرجع إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ونقش بأشكال هندسية وصلبان بديعة وتعلوه أيقونات تصور السيد المسيح جالسا على عرش وعن يمينه مريم العذراء ورئيس الملائكة غبريال والقديس بطرس، وعن يساره يوحنا المعمدان ورئيس الملائكة ميخائيل والقديس بولس، ويعلو المذبح بداخل هذا الهيكل مظلة خشبية مرتكزة على أربعة أعمدة وخلفه منصة

من أعظم كنائس النصارى وفيها مال كبير وعدة من النصارى ما بين رجال ونساء مترهبات فصعدت العامة فوقها وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها.

وانتقلوا إلى كنيسة بومنا بجوار السبع سقايات وكانت معبداً جليلاً من معابد النصارى فكسروا بابها ونهبوا ما فيها وقتلوا منها جماعة وسبوا بنات كانوا بها تزيد عدتهن على ستين بكراً فما انقضت الصلاة حتى ماجت الأرض فلما خرج الناس من الجامع رأوا غباراً ودخان الحريق قد ارتفعا إلى السماء وما فى العامة إلا من بيده بنت قد سباها أو جرة خمر أو ثوب أو شيء من النهب فدهشوا وظنوا أنها الساعة قد قامت.

وانتشر الخبر من السبع سقايات إلى تحت القلعة فأنكر السلطان ارتفاع الأصوات بالضجيج (كأنه لا يعلم ما حدث) وأمر الأمير أيدغمش بكشف لخبر.

فما هو إلا أن ركب أيدغمش إذا بملوك الأمير علم الدين سنجر الخازن متولى القاهرة حضر وأخبر بأن العامة ثارت بالقاهرة وأخربوا كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وأنه ركب خوفاً على القاهرة من النهب. وقدم مملوك والى مصر وأخبر بأن عامتها قد تجمعت لهدم كنيسة المعلقة حيث مسكن البترك وأموال النصارى ويطلب نجدة.

فلشدة ما نزل بالسلطان من الغضب هم (ليتدارك خطر فعلته) أن يركب بنفسه ثم أردف أيدغمش بأربعة أمراء ساروا إلى مصر وبعث بيبرس الحاجب وألماس الحاجب إلى موضع الحفر وبعث طينال إلى القاهرة ليضعوا السيف فيمن

وجدوه.
فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرت النهابة فلم تدرك الأمراء منهم إلا من غلب على نفسه بالسكر من الخمر.
وأدرك الأمير أيدغمش والى مصر وقد هزمته العامة من زقاق المعلقة وأنكوا مماليكه بالرمى عليهم ولم يبق إلا أن يحرقوا أبواب الكنيسة فجرد هو ومن معه السيوف ليفتك بهم فرأى عالماً عظيماً لا يحصيهم إلا خالقهم فكف عنهم خوف اتساع الخرق ونادى من وقف فدمه حلال فخافت العامة أيضاً وتفرقوا.
ووقف أيدغمش يحرس المعلقة إلى أن أذن العصر فصلى بجامع عمرو وعين خمسين أوشاقيا للمبيت مع الوالي على باب الكنيسة وعاد.

وكان كأنما نودى فى إقليم مصر بهدم الكنايس وأول ما وقع الصوت بجامع قلعة الجبل: وذلك أنه لما انقضت صلاة الجمعة صرخ رجل موله فى وسط الجامع: " اهدموا الكنيسة التى فى القلعة " وخرج فى صراخه عن الحد واضطرب.
وعندما خرج الناس من صلاة الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة رأوا العامة فى هرج عظيم ومعهم الأخشاب والصلبان والثياب وغيرها وهم يقولون: " السلطان نادى بخراب الكنايس". وكان قد خرب من كنايس القاهرة سوى كنيستى حارة الروم وحاره زويلة وكنيسة بالبندقانيين كنايس كثيرة.
فلما كان يوم الأحد حادى عشره: سقط الطائر من إسكندريا بأنه لما كان الناس فى صلاة الجمعة تجمع العامة وصاحوا هدمت الكنايس فركب الأمير بدر الدين المحسنى متولى الثغر بعد

جلوس رجال الكهنوت.
وقد عثر بالكنيسة على تابلوه خشبي من القرن الخامس أو السادس الميلادي عليه منظر دخول المسيح لمدينة أورشليم منتصرا. ويعد البطريرك خريستودولوس هو أول من اتخذ الكنيسة المعلقة مقرا كما دفن بها عدد من البطاركة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وكذلك عقدت بها الاجتماعات لتحديد تاريخ عيد القيامة أو لمحاسبة الكهنة أو الأساقفة المرتاب في تعاليمهم.

دير نهيا المنصورية :.يقع دير المنصورية الذى نرجح أن يكون بقايا دير نهيا المشهور على مسافة مائة متر من قصر حافظ عفيفي في الأطراف الغربية المنصورية التى تبعد ١٨ كم من الجيزة و قد أكتشفته مصلحة الاثار و نشرت عنه في جريدة الأخبار و مساحة المبنى حوالى ٦ × ١٨ متر و به عدة حجرات مبنية بالطوب اللين و مستوى الأرضية ينخفض حوالى متر و نصف عن الأرض المجاورة و ينزل إليه بعدة درجات بصالة الصلاة

الرئيسية توجد فريكات لمعظم آباء البرية مع بعض الشهداء و بعض الملائكة . و بعد الانتهاء من الكشف عن باقي المباني في المنطقة سوف يضاء لنا و مضة من التاريخ الرهباني الهام لم تكن معروفة من قبل . و قد ذكر الدير أبو المكارم (١٢٠٦ م) في كتابه عن اكنايس و الأديرة و ذكر أن به كنيسة للسيدة العذراء و كنيسة أخرى لمريم و مرثا أخت لعازر اللتان موجود جسدهما بالدير .

دير أبو مقار : يعد دير أبو مقار من أعظم أديرة وادي النطرون لما يحويه من أثار و مخطوطات و ما كان يتميز به من ملامح قديمة . و لكن بعد التعمير الحديث للدير زالت أسوار الدير جميعها و أصبح كل الإهتمام هو تحديث كل ما هو قديم بالدير الذى لا يزال يحتفظ برائحة بسيطة من الطابع القديم . و عند الدخول إلى منطقة الكنائس إحتفظ بعقد قديم من الطوب الأحمر كما إحتفظ بحجرة الميرون التى تحمل ذكرى عمله مرات كثيرة في دير أبو مقار تتكون المائدة القديمة من خمسة

الصلاة ليدرك الكنايس فإذا بها قد صارت كوماً وكانت عدتها أربع كنايس.
ووقعت بطاقة من والى البحيرة بأن العامة هدمت كنيستين فى مدينة دمنهور والناس فى صلاة الجمعة.

ثم ورد مملوك والى قوص فى يوم الجمعة سابع عشره وأخبر بأنه لما كان يوم الجمعة هدم العامة ست كنائس بقوص فى نحو نصف ساعة.
وتواترت الأخبار من الوجه القبلى والوجه البحرى بهدم الكنايس وقت صلاة الجمعة فكثر التعجب من وقوع هذا الاتفاق فى ساعة واحدة بسائر الأقاليم!!!.
وصار السلطان يشتد غضبه من العامة والأمراء تسكن غضبه وتقول: "يا مولانا هذا إنما هو من فعل الله.
وإلا فمن يقدر من الناس على هدم كنايس الإسكندرية ودمياط والقاهرة ومصر وبلاد الصعيد فى ساعة واحدة ".
وكان الذى هدم فى هذه الساعة من الكنايس ستون كنيسة: وهى كنيسة بقلعة الجبل وكنيسة بأرض الزهرى موضع البركة الناصرية وكنيسة بالحمراء وكنيسة بجوار السبع سقايات وكنيسة أبى المنا بجوارها وكنيسة الفهادين بحارة الحكر وكنيسة بحارة الروم من القاهرة وكنيسة البندقانيين منها وكنيسة بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق خارج القاهرة وأربع كنايس بإسكندريا وكنيستان بدمنهور الوحش وأربع كنايس بالغربية وثلاث كنايس بالشرقية وست كنايس بالبهنساوية وبسيوط ومنفلوط ومنية بن خصيب ثمانى كنايس وقوص

وأسوان إحدى عشرة كنيسة والإطفيحية كنيستان وبمدينة مصر بخط المصاصة وسوق وردان .
وكان عقيب هدم الكنايس وقوع الحريق بالقاهرة ومصر فابتدأ يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى وتواتر إلى سلخه.
وكان من خبره أن الميدان الكبير المطل على النيل لما فرغ العمل فيه ركب السلطان إليه فى يوم السبت المذكور وكان أول لعبه فيه بالأكرة فبلغه الخبر بعد عوده إلى القلعة بأن الحريق وقع فى ربع من أوقاف المارستان المنصورى بخط الشوايين من القاهرة.
واشتد الأمر والأمراء تطفئه إلى عصر يوم الأحد فوقع الصوت قبل المغرب بالحريق فى حارة الديلم بزقاق العريسة قريب من دار كريم الدين الكبير. ودخل الليل واشتد هبوب الرياح فسرت النار فى عدة أماكن.
وبعث كريم الدين بولده علم الدين عبد الله إلى السلطان يعرفه فبعث عدة من الأمراء والمماليك لإطفائه خوفاً على الحواصل السلطانية ثم تفاقم الأمر واحتاج أقسنقر شاد العمائر إلى جمع سائر السائقين والأمراء ونزلت الحجاب وغيرهم والنار تعظم طول نهار الأحد وخرجت النساء مسبيات من دورهن.
وباتوا على ذلك وأصبحوا يوم الإثنين والنار تتلف ما تمر به والهد واقع فى الدور التي تجاور الحريق خشية من تعلق النار فيها وسريانها فى جميع دور القاهرة.
فلما كانت ليلة الثلاثاء خرج أمر الحريق عن القدرة البشرية وخرجت ريح عاصفة ألقت النخيل وغرقت المراكب ونشرت النار فما شك الناس فى أن القيامة قد قامت.

قباب : القبة الوسطى قبو متقاطع و القباب الأربعة قباب منخفضة فى تصميم مشابة لمائدة دير الأنبا بيشوى و إن كانت أقل حجماً .
و فى الجهة الجنوبية الغربية من الدير على مسافة تقل عن الكيلومتر توجد قبة كبيرة يعلوها كمية ضخمة جدا من الفخار و بقايا المبانى و الأحجار أعتقد أنه من المرجح جدا أن تكون هى صخرة بيامون الشهيرة العالية التى لم يستطع الشيوخ أن يصعدوا إلى كنيستها فبنى لهم الدير الحالى فى عصر البابا بنيامين (٣٨) الذى دشن هيكلها . ولازالت هذه الصخرة تنتظر البعثات الأثرية لكشف ما بها من كنوز و تاريخ مجيد .
دير الانبا أرميا بسقارة بدأ العالم كويبل فى الكشف عن هذا الدير سنة ١٩٠٦ و أكمل التنقيب المعهد الألمانى للآثار حتى الآن . و يغطى الدير مساحة تقرب من خمسة أفدنة و لا تزال ترى آثار البازيليكا الكبيرة التى ترجع للقرن السابع و تحتها كنيسة من القرن السادس و آثار كنيسة المائدة و الكنيسة

الصغيرة كما تغطي المباني الرهبانية وهي من الطوب اللبن مساحة كبيرة . و قد استعمل في مباني الدير كثير من الأحجار الفرعونية من المنطقة و نقلت كل الأعمدة و التيجان و الأفاريز السليمة إلى المتحف القبطي حيث تملأ عدة قاعات فيه . و للوصول إلى الدير ندخل إلى مجموعة زوسر الهرم المدرج ثم نتجه جنوباً حتى هرم أوناس و نعبر الطريق الصاعد إليه لنجد في الأمام آثار الدير في المنخفض المجاور التي تشغل حوالي خمسة أفدنة . و قد ذكر في سيرة الأنبا هدرا (قرن ٥ م) أنه ترهبن في منف و غالباً ما يكون في هذا الدير لأنه الدير الوحيد الذي ظهر حالياً في المنطقة

دير الانبا بولا يقع دير الانبا بولا بين الجبال العالية بالقرب من البحر الأحمر - طريق السويس ورأس غارب - ثم غرباً في الصحراء , أو من بني سويف شرقاً والطريق غير معبد . أنشئ هذا الدير في القرن الرابع الميلادي

وبه أربع كنائس أثرية هي:
- الكنيسة التي كان يسكنها

وعظم شرر النيران وصارت تسقط في عدة مواضع بعيدة فخرج الناس وتعلقوا بالمأذن واجتمعوا في الجوامع والزوايا وضجوا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى وصعد السلطان إلى أعلا القصر فهاله ما شاهد.

وأصبح الناس يوم الثلاثاء في أسوأ حال فنزل النائب بسائر الأمراء وجميع من في القلعة وجميع أهل القاهرة ونقل الماء على جمال الأمراء ولحقه الأمير بكتمر الساقي وأخرجت جمال القرى السلطانية ومنعت أبواب القاهرة أن يخرج منها سقاء ونقلت المياه من المدارس والحمامات والآبار. وجمعت سائر البنائين والنجارين فهدت الدور من أسفلها والنار تحرق في سقوفها.

ووقف الأمير بكتمر الساقي والأمير أرغون النائب حتى نقلت الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده علم الدين عبد الله بدرب الرصاصي وهدم لأجل نقل الحواصل ستة عشر داراً. وخمدت النار وعاد الأمراء.

فوقع الصياح في ليلة الأربعاء بربع الملك الظاهر خارج باب زويلة وبقيسارية الفقراء وهبت الرياح مع ذلك. فركب الحجاب والوالي وعملوا في طفيها إلى بعد الظهر من يوم الأربعاء وهدموا دوراً كثيرة مما حوله.

فما كاد أن يفرغ العمل من إطفاء النار حتى وقعت النار في بيت الأمير سلار بخط القصرين فأقبلوا إليه وإذا بالنار ابتدأت من أعلا البادهنج وكان ارتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع بذراع العمل ورأوا فيه نفطاً قد عمل فيه فتيلة كبيرة فمازالوا بالنار حتى أطفئت من غير أن يكون لها أثر كبير.

ونـودى بـأن يعمـل بجانـب كـل حـانوت بالقـاهره ومصــر زيــر ودن مــلآن مــاء وكــذلك بســائر الحـارات والأزقـة فبلـغ ثمـن كـل دن مـن ثلاثـة دراهم إلـى خمسـة وكـل زيـر إلـى ثمانيـة دراهـم لكثرة طلبها.

فلما كانت ليلة الخميس: وقع الحريق بحارة الروم وبخـارج القـاهرة وتمـادى الحـال كـذلك ولا تخلـو سـاعة مـن وقـوع الحريـق بموضـع مـن القـاهرة ومصــر وامتنــع والــي القــاهرة والأميــر بيبــرس الحاجب من النوم.
فشـاع بـين النـاس أن الحـريق مـن جهـة النصـارى لما أنكاهم هدم الكنايس ونهبها وصـارت النيـران توجد تـارة فـى منـابر الجوامـع وتـارة فـى حيطـان المدارس والمساجد.

وأكثـر مـا كانـت النـار توجـد فـى العلـو فتقـع فـى زروب الأسـطحة فلمـا كانـت ليلـة الجمعـة حـادي عشريه: قبض علـى راهبين خرجـا من المدرسـة الكهاريـة بالقـاهرة وقـد أرميـا النـار وأحضـرا إلـى الأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة فشم منهمـا رائحـة الكبريـت والزيـت فأحضـرهما مـن الغد إلى السلطان فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا.

فلمـا نـزل الأميـر علـم الـدين بهمـا وجـد العامـة قد قبضـت علـى نصـراني مـن داخـل بـاب جـامع الظـاهر بالحسـينية ومعـه كعكـة خـرق بهـا نفـط وقطـران وقـد وضـعها بجانـب المنبـر فلمـا فـاح الـدخان وأنكـروه وجـد النصـرانى وهـو خـارج والأثر فى يديه فعوقب قبل صاحبيه.
فـاعترف النصـراني أن جماعـة مـن النصـارى قـد

الأنبا بولا السائح لمدة ٧٠ سـنة لـم يـره أحـد أول السواح .
وكنيسـة أخـرى نصـفها منحـوت فـي الصـخر وغطيـت حوائطهـا برسومات .
كنيسـة ابـو سـفين: أعـاد بناءها المعلم الجوهري فى أواخــر القــرى الثـامن الميلادي وستجد أخبارها في هذا الموقع .
كنيسة الملاك: وبها الكثير من القبب يبلغ عددها اثنى عشر قبة كعدد تلاميذ السيد المسيح يرجع تاريخها الى سـنة ١٧٧٧م . تحتـوى مكتبـة الـدير علـى ٧٦٤ مخطوطـاً يرجـع أقـدمها إلىالقــرن ١٤ . وأنتخـب مــن ديــر الأنبــا بــولا بطريـرك واحـد . واختيـر من هذا الـدير الكثيـر مـن الآباء الآساقفة.

ديـر الانبـا بيشـوى: يقـع الدير بجوار دير السريان ويبعد عن الرست هاوس بحـوالى ١٢ كـم . وقـد تـم ترميم الـدير وإعـادة بنـاء سـقف الكنيسـة بواسـطة الأنبـا بنيـامين الثـانى (١٣٢٧ - ١٣٣٩) حسب ماذكر في تاريخ الميرون الـذى قدسـه هـذا المصـلح العظـيم الموجـود جسـده

بكنيسة الأنبا بيشوى وله كنيسة أيضاً باسمه هناك . ثم اعيد ترميم الدير في العصر الحالى باهتمام قداسة البابا شنوده المهتم بعمارة الأديرة وشريكه في الخدمة الرسولية نيافة الأنبا صرابامون أسقف ورئيس الدير . والدير مربع عرض أسواره حوالى ٢ متر وارتفاعها ١٠ متر بأعلاهاممشى ويرجع تاريخها للقرن التاسع الميلادى ويقع مدخل الدير في الجزء الغربى من الحائط البحري وعند المدخل يوجد ممر صغير مغطى بقبو يقود إلى الفناء . حصن الدير الكبير يحل محل حصن أقدم ومدخله في الدور الأول ويتكون من ثلاث أدوار . والحجرات بالدور الأرضى كان بها عصّارة العنب وفي الدور الأول توجد صالة بقباب تستقر على أكتاف مربعة وتستخدم حالياً ككنيسة للسيدة العذراء من ثلاث هياكل . وفي الحجرة الثالثة من الجانب الغربى من الممر توجد فتحة في أرضية الحجرة تقع فوق البئر مباشرة حتى يمكن سحب المياه إلى أعلى . يقودنا السلم إلى الدور

اجتمعوا وعملوا النفط وفرقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع.

ثم عاقب الأمير علم الدين الراهبين فأقرا أنهما من دير البغل وأنهما هما اللذان أحرقا سائر الأماكن التي تقدم ذكرها.

وذلك أنه لما مر بالكنايس ما كان حنق النصارى من ذلك وأقاموا النياحة عليها واتفقوا على نكاية المسلمين وعملوا النفط وحشوه بالفتائل وعملوها في سهام ورموا بها فكانت الفتيلة إذا خرجت من السهم تقع على مسافة مائة ذراع.

فلما أنفقوا ذلك فرقوه في جماعة فصاروا يدورون في القاهرة بالليل وحيث وجدوا فرصة انتهزوها وألقوا الفتيلة حتى كان ما كان.

فامر السلطان كريم الدين بطلب البطرك في بيته واستعلام الخبر منه فاتاه ليلا في حماية والي القاهرة خوفا من العامة وبالغ كريم الدين في إجلاله وأعلمه مما ذكر الرهبان وأحضرهم إليه فذكروا له كما ذكروا للوالي فبكا وقال: " هؤلاء سفهاء قد فعلوا كما فعلوا سفهاؤكم والحكم للسلطان.

فأمر السلطان الوالي بعقوبة النصارى فأقروا على أربعة عشر راهباً بدير البغل فقبض عليهم من الدير.

وعملت حفيرة كبيرة بشارع الصليبة وأحرق فيها أربعه منهم في يوم الجمعة وقد اجتمع من الناس عالم عظيم. فاشتدت العامه عند ذلك على النصارى وأهانوهم وسلبوهم ثيابهم وألقوهم من الدواب إلى الأرض.

وركب السلطان إلى الميدان يوم السبت ثاني عشريه وقد اجتمع عالم عظيم وصاحوا: " نصر

الله الإسلام انصر دين محمد بن عبد الله ". فلما استقر السلطان بالميدان حتى أحضر له الخازن والي القاهرة نصرانيين قد قبض عليهما فأحرقا خارج الميدان.

وخرج كريم الدين الكبير من الميدان وعليه التشريف فصاحت به العامة: "كم تحامى للنصارى" وسبوه ورموه بالحجارة فعاد إلى الميدان.

فشق ذلك على السلطان واستشار الأمراء فى أمر العامة فأشار عليه الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بعزل الكتاب النصاري فإن الناس قد أبغضوهم فلم يرضه ذلك.

وتقدم السلطان إلى ألماس الحاجب أن يخرج فى أربعة أمراء ويضع السيف فى العامة حتى ينتهي إلى باب زويلة ويمر إلى باب النصر وهو كذلك ولا يرفع السيف عن أحد وأمر والي القاهرة أن يتوجه إلى باب اللوق والبحر ويقبض من وجده ويحملهم إلى القلعة وعين لذلك مماليك تخرج من الميدان. فبادر كريم الدين وسأل السلطان العفو فقبل شفاعته ورسم بالقبض على العامة من غير قتلهم.

وكان الخبر قد طار ففرت العامة حتى الغلمان وصار الأمير لا يجد ما يركبه.

وانتشر ذلك فغلقت جميع أسواق القاهرة فما وصل الأمر إلى باب زويلة حتى لم يجدوا أحدا وشقوا القاهرة إلى باب النصر فكانت ساعة لم يمر بالناس أعظم منها.

ومر الوالي إلى باب اللوق وبولاق وباب البحر وقبض كثيراً من الكلابزة والنواتية وأراذل العامة بحيث صار كل من رآه أخذه. وجفل الناس من الخوف وعدوا فى المراكب إلى بر الجيزة.

الثاني والباقى منه حالياً هو كنيسة للملاك ميخائيل التي أعيد ترميمها حديثاً سنة ١٩٩٠ واستبدل سقفها المستو بسقف قبو وتقع القلالي الأثرية بالدير بجوار الحائط القبلي ومغطاه بالقباب والقبوات كما يوجد مبنى مربع مغطى بتسع قباب محمولة على اكتاف مربعة فى الركن القبلي الشرقي من الدير كان يستخدم كطابونة وأعيد استخدامه حالياً ككنيسة من ثلاث هياكل وبجواره الطاحونة ومباني حديثة للرهبان ورئيس الدير.

دير البراموس: يقع الدير فى أقصى شمال وادي النطرون و يبعد عن الرست هاوس حوالى ١٢ كم - الدير مربع تحيطه الأسوار عرضها ٢ متر و إرتفاعها ١٠ إلى ١١ متر و يوجد المدخل الأصلى للدير في الجهة البحرية و يفتح على ممر المدخل المغطى بقبو و أعلاه حجرة المطعمة لإطعام البدو دون فتح باب الدير . وقد فتح باب أخر فى الجهة الشرقية عند بداية التفكير فى إقامة مزرعة خارج الدير .

المبانى الرئيسية داخل

فلما عاد السلطان إلى القلعة لم يجد أحداً فى طريقه وأحضر إليه الوالى بمن قبض عليه وهم نحو المائتين فرسم أن يصلبوا وأفرد جماعة للشنق وجماعة للتوسيط وجماعة لقطع الأيدى.
فصاحوا: " يا خوند ما يحل لك! فما نحن الغرماء " وتباكوا فرق لهم بكتمر الساقى وقام معه الأمراء ومازالوا بالسلطان حتى رسم بصلب جماعة منهم على الخشب من باب زويلة إلى سوق الخيل وأن يعلقوا بأيديهم.
فأصبحوا يوم الأحد صفاً واحداً من باب زويلة إلى سوق الخيل تحت القلعة فتوجع لهم الناس وكان منهم كثير من بياض الناس ولم تفتح القاهرة.
وخاف كريم الدين على نفسه ولم يسلك من باب زويلة وصعد القلعة من خارج السور فإذا السلطان قد قدم الكلابزة وأخذ فى قطع أيديهم.
فكشف كريم الدين رأسه وقبل الأرض وباس رجل السلطان وسأله العفو. فأجابه السلطان بمساعدة الأمير بكتمر وأمر بهم فقيدوا وأخرجوا للعمل فى الحفير بالجيزة. ومات ممن قطع يده رجلان وامر بحط من علق على الخشب.
فللحال وقع الصوت بحريق أماكن بجوار جامع ابن طولون وبوقوع الحريق فى القلعة وفى بيت الأحمدي بحارة بهاء الدين من القاهرة وبفندق طرنطاي خارج باب البحر فدهش السلطان. وكان هذا الفندق برسم تجار الزيت الوارد من الشام فعمت النار كل ما فيه حتى العمد الرخام وكانت ستة عشر عموداً طول كل منها ستة أذرع باعمل ودوره نحو ذراعين فصارت كلها جيراً وتلف فيه لتاجر واحد ما قيمته تسعون ألف درهم وقبض فيه على ثلاثة نصارى معهم فتائل النفط اعترفوا

أسوار الدير هى الكنائس والمايدة و الحصن و القلالى - مبانى القلالى معظمها حديث عدا القلالى فى الجهة القبلية من الكنيسة الأثرية فهى قديمة و سقفها بالقبوات الحصن يتكون كالعادة من دور أرضى وأول و ثانى تصميمة عبارة عن طرقة فى المنتصف و على جانبيها الحجرات و فى أعلى الدور الثانى كنيسة للملاك ميخائيل كالمعتاد و الجارى ترميمه حاليا بمعرفة مصلحة الآ ثار. وقد أنشئ حول الدير المبانى الحديثة للرهبان والخلوة والضيوف والكنيسة والمزارع

دير الشهداء بأخميم:
وصل إريانوس و إلى أنصنا إلى أخميم و كان الشعب المسيحى مجتمعاً فى الكنيسة ليلة عيد الميلاد المجيد و لم يهتموا باستقبال أريانوس غضب و أمر بقتل جميع المسيحين الموجودين بالكنيسة حتى جرى الدم من الكنيسة إلى أزقة المدينة و لذلك يوجد شارع بأخميم اسمه شارع الظلى نسبة إلى صوت الدماء عندما كان يذبح

أنهم فعلوا ذلك.
فلما كان يوم السبت تاسع عشريه: ركب السلطان إلى الميدان فوجد نحو العشرين ألفاً من العامة قد صبغوا خرقاً بالأزرق والأصفر وعملوا فى الأزرق صلباناً بيضاء ورفعوها على الجريد وصاحوا عليه صيحة واحدة: " لا دين إلا دين الإسلام! نصر الله دين محمد بن عبد الله! يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام إنصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى فخشع السلطان والأمراء ومر إلى الميدان وقد اشتغل سره وركبت العامة أسوار الميدان ورفعت الخرق وهي تصيح.
"لا دين إلا دين الإسلام".
فخاف السلطان الفتنة ورجع إلى مداراتهم وتقدم إلى الحاجب بأن يخرج وينادى: " من وجد نصرانياً فدمه وماله حلال ". فلما سمعوا النداء صرخوا صوتاً واحداً: " نصرك الله يا ناصر دين الإسلام " فارتجت الأرض. ونودى عقيب ذلك بالقاهرة ومصر: " من وجد من النصارى بعمامة بيضاء حل دمه. ومن وجد من النصارى راكباً باستواء حل دمه ".
وكتب مرسوم بلبس النصارى العمائم الزرق وألا يركبوا فرساً ولا بغلاً وأن يركبوا الحمير عرضاً ولا يدخلوا الحمام إلا بجرس فى أعناقهم ولا يتزيوا بزى المسلمين هم ونساؤهم وأولادهم.
ورسم للأمراء بإخراج النصارى من دواوينهم ومن دواوين السلطان وكتب بذلك إلى سائر الأعمال وغلقت الكنايس والأديرة . وتجرأت العامة على النصارى بحيث إذا وجدوهم ضربوهم وعروهم ثيابهم فلم يتجاسر نصرانى أن يخرج من بيته.
ولم يتحدث فى أمر اليهود فكان النصرانى إذا

المسيحيون و حضر إلى نفس المكان . جميع سكان القرى المجاورة يتسابقون فرحين بمضيهم إلى ملكوت السموات وجميعهم مدفونين بدير الشهداء بأخميم مع جسد القديسان ديسقورس و إسكلابيوس و من معهم يقع دير الشهداء بأخميم ضمن أديرة برية أخميم فى أقصى شرق محافظة سوهاج ، وهذا الدير يعتبر ضمن أديرة برية أخميم وهى من الجنوب إلى الشمال على الطريق والدخول إلى كل دير رتب الله أن يكون له مدخل خاص إلى باب الدير نتيجة المشروعات التى أقيمت بهذه الصحراء التى تمت خلف الأديرة بطريق مرصوف ، و مدفون به ٨١٤٠ شهيد الذين إستشهدوا فى أيام عيد الميلاد المجيد عام ٣٠٤ م بأخميم فى ٢٨ , ٢٩ , ٣٠ كيهك . وهو بجوار دير العذراء شمالاً ولايفصلهما عن بعض إلا منطقة الجبابين ويوجد مدخل خاص إلى باب الدير من الطريق الخلفى الموصل للمشروعات ، ويعتبر دير الشهداء الدير الرئيسى فى برية أخميم فبعده دير الملاك ودير

العذراء وهو مقام على مساحة شاسعة
ويشمل:الكنيسة:وبهاخمسة هياكل،هيكل للملاك ميخائيل،هيكل للقديس ديسقوروسو القديس إسكلابيوس، هيكل للعذراء مريم.هيكل لمارجرجس،هيكل لمارمرَقس والأنبا أنطونيوس ،وهيكل القديس ديسقور وإسكلابيوس من نظام الهياكل القديمة التي بنتها الملكة هيلانه على نظام دير الشهداء بإسنا لها بابان وفي الوسط شباك، الباب الأيمن للدخول والباب الأيسر للخروج والشباك لمراقبة الداخلين إلى الكنيسة من الأعداء يعلوه صور أثرية. والهياكل الأخرى كالهياكل المعتادة والكنيسة مكونة من خورسان وليس ثلاثة كالمتبع بالكنائس ولايوجد مقاعد وفي الجهة البحرية من الخورس الأول توجد رفات القديس ديسقورس والقديس إسكلابيوس ورأس شهيدة لا تزال باقية كما هي موضوعة داخل مقصورة زجاج.

طرأ له أمر يتزيا بزي اليهود ويلبس عمامه صفراء يكتريها من يهودى ليخرج فى حاجته.
وفيها كثر تسخير الناس للعمل فى عماير السلطان بالقلعة وقبض عليهم من بين القصرين وهم نيام ومن أبواب الجوامع عند خروجهم من صلاة الصبح فابتلى من ذلك ببلاء عظيم وكثرت الغاثة فلم يجسر أحد من الأمراء يكلم السلطان فيه.
وفيها فرغ قصر الأمير سيف الدين بشتاك الناصري بخط بين القصرين من القاهرة.
وذلك أن الأمير قوصون لما أخذ قصر بيسرى وجدد عمارته أحب الأمير بشتاك أن يعمل له قصراً تجاه قصر بيسرى فدل على دار الأمير بكناش الفخري الصالحى أمير سلاح وهي أحد قصور الخلفاء الفاطميين التى اشتراها بكتاش من ذريتهم وأنشأ بها دوراً وإسطبلات وأبقى ما وجد فيها من المساجد فشاور بشتاك السلطان على أخذها فرسم له بذلك فأخذها من أولاد بكتاش وأرضاهم وأنعم له السلطان بأن كانت داخلها برسم الفراشخاناه السلطانية وأخذ دار أقطوان الساقي بجوارها وهدم الجميع وأنشأ قصراً مطلاً على الطريق ارتفاعه أربعون ذراعاً وأساسه أربعون ذراعاً وأجرى إليه الماء ينزل من شادروان إلى بركة.
وأخرب بشتاك فى عمل هذا القصر أحد عشر مسجداً!!! وأربعة معابد أدخلها فيه ولم يجدد منها سوى مسجد الفجل وقد سمى هذا المسجد بذلك الاسم من أجل أن قيمه يعرف بالفجل وأنشأ خاناً تجاه خان الزكاة ثم باع بشتاك هذا القصر لزوجته التى كانت تحت بكتمر الساقى.

وبلغ فحش أمراءه أن كان له مملوك حظي كان له فى كل يوم ثمانون عليقة وكان لأمير أخر مملوك حظي له فى كل يوم أربعون عليقة.

وكان فى الأمراء من يبلغ خاصة فى كل سنة زيادة على مائتي ألف دينار مثل بكتمر وقوصون وبشتاك ومن عداهم يزيد خاصه على مائة ألف دينار فى السنة ومنهم من ينقص عن ذلك.
وكثر استيلاء الجواري والخدام على الدولة وعارضوا النائب وأبطلوا ما أحبوا إبطاله مما يرسم به حتى صار يقول لمن يطلب شيئاً: رح إلى الطواشية ينقضي شغلك.
وفيه كتب الموفق ناظر الدولة أوراق بما استجد على الدولة من وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى المحرم سنة خمسين وسبعمائة فكانت جملة ما أنعم به وأقطع من بلاد الصعيد وبلاد الوجه البحري وبلاد الفيوم وبلاد الملك وأراضي الرزق - للخدام والجواري وغيرهن سبعمائة ألف ألف أردب وألف ألف وستمائة ألف درهم معينة بأسماء أربابها من الأمراء والخدام والنساء وعبرة البلد ومتحصلها وجملة عملها.
وفيه أضاع الولاة عمل الجسور وباعوا الجراريف حتى غرق كثير من البلاد. ومع ذلك امتدت أيديهم إلى الفلاحين وغرموهم ما لم تجر به عادة فشكى من الولاة للوزير فلم يلتفت لمن شكاهم.
وعم الوباء جميع تلك الأراضي ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع. فبعث الوزير منجك إلى الغربية كريم الدين مستوفي الدولة ومحمد بن يوسف مقدم الدولة فى جماعة فدخلوا سنباط وسمنود وبوصير وسنهور وأبشيه ونحوها

دير السيدة العذراء المحرق من أهم المزارات المسيحية فى صعيد مصر حيث تذكر جميع ميامر مجيء السيد المسيح إلى أرض مصر أن العائلة شرفت هذا المكان ببقائها فيه أكثر من ستة أشهر و اشترك السيد المسيح بنفسه فى تدشين المذبح الباقي بنفس شكله حتى الآن . أما الكنيسة الأثرية بالدير فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة فى عصور مختلفة و المباني الحالية يرجع معظمها للقرن ١٣ م و بها بعض الأحجبة المطعمة القديمة و بعض الأيقونات . و يمتاز شكل الكنيسة بوجود حجرتين على جانبي الهيكل لا يستخدمان كهياكل بل حجرات للوازم الخدمة (ديقونية) كالنظام القديم . أما الحصن القديم الذي يعد من أقدم المباني بالدير بعد الكنيسة فهو يعد من أصغر حصون الأديرة لقرب الدير من العمران ويوجد به أيضاً كنيسة الملاك و كثير من الأيقونات القديمة . وترجع أسوار الدير لعصر حديث فى أوائل القرن ٢٠.
و يقع الدير غرب القوصية بـ١٠ كم و يوجد طريق

من البلاد وأخذوا مالا كثيراً لم يحضروا منه سوى ستين ألف درهم. وعجز أهل بلبيس وسائر بلاد الشرقية عن ضم الزرع لكثرة موت الفلاحين.
وكان ابتداء الوباء عندهم من أول فصل الصيف وذلك في أثناء ربيع الآخر. فجافت الطرقات وغير ذلك.

سنة خمس و خمسين وسبعمائة

فلما تغافل أهل الدولة بعد موت السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن أهل النواحي قلت مهابة الكشاف والولاة عندهم فخرجوا عن الحد وقطعوا الطرقات براً وبحراً حتى تعذر سلوكها. ومالوا على المعاصر والسواقي فنهبوا حواصلها من القنود والسكر والأعسال وذبحوا الأبقار.
وادعى الأحدب السلطنة وجلس في جتر أخذه من قماش الهذباني وجعل خلفه المسند وأجلس العرب حوله ومد السماط بين يديه فنفذ أمره في الفلاحين.
وصار الجندى إذا انكسر له خراج قصده وساله في خلاصه من فلاحه فيكتب له ورقة لفلاحه وأهل بلده فيصل بها إلى حقه ويرسل مع مماليك الكاشف والوالي بالسلام عليه ويأمره أن يقول: إن كانت لك حاجة قضيتها لك. وحدثته نفسه بتملك الصعيد وقويت نفسه بتأخر ولاة الأمور عنه وأقام له حاجباً وكاتباً. فلما عظم أمره عقد الأمراء المشور بين يدي السلطان الملك الصالح في مستهل شوال سنة أربع وخمسين وسبعمائة في أمر عرب الصعيد.
وقرروا تجريد العسكر لهم صحبة الأمير سيف الدين شيخو العمرى رأس نوبة ومعه اثنى عشر مقدماً. بمضافيهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات

آخر من منفلوط و يبعد عنها ٢٣ كم . و قد ذكر الدير أبو المكارم (قرن ١٢ م) و المقريزى (قرن ١٥ م) أختير من هذا الدير أربعة من البطاركة وعدد كبير من المطارنة والأساقفة ليقودوا شعب الرب في مختلف العصور . في مكتبة هذا الدير ٧٠٨ مخطوطا غير بضعة آلاف من الكتب المطبوعة , وتختلف موضوعات هذه الكتب فمنها في الكتاب المقدس وأجزائة المختلفة واللاهوت والتاريخ والطقس الكنسي .. الخ وللوصول إليه .. السكة الحديد القوصية - محطة القوصية - وإلى الغرب حيث الدير نحو نصف ساعة فقط بالعربة .

دير السيدة العذراء العدوية بالمعادى :

ترجع تسمية الدير بالعدوية لعبور العائلة المقدسة من هذا المكان إلى الضفة الغربية للنيل عند هروبهم إلى صعيد مصر . و الكنيسة تهدمت عدة مرات , ذكر التاريخ تهدمها في نهاية القرن ١٩ م عند انفجار مركب محمل بالبارود بجوار الكنيسة . و في السنين الأخيرة تم توسيع الكنيسة و إزالة ما

وهم أسندمر العمرى وطشتمر القاسمي وقطلوبغا الطرخانى وأرلان وبزلار أمير سلاح وكلتاى أخو طاز واصر على بن أرغون النائب وتنكز بغا وجركتمر ويلجك قريب قوصون وقطلوبغا الذهبى وأن يتوجه كلتاى وابن أرغون النائب نحو الشرق بالإطفيحية ويتوجه يلجك إلى الفيوم وبزلار وأرلان نحو الواح ويتوجه الأمير شيخو ببقية الأمراء إلى جهة قوص ويتأخر فى صحبة السلطان عند سفره الأمير طاز والأمير صرغتمش والأمير قجا أمير شكار.
فيتوجه السلطان نحو البهنسا كأنه يتصيد وأن يكون السفر فى ذي القعدة فيتوجه الأمراء أولاً ثم يركب السلطان بعدهم.
فطار الخبر إلى عامة بلاد الوجه القبلي فأخذ العربان حذرهم فمنهم من عزم على الدخول بأهله إلى بلاد النوبة ومنهم من اختفي فى موضع أعده ليأمن فيه على نفسه ومنهم من عزم على الحج وقدم إلى مصر ففطن بهم أعداؤهم ودلوا عليهم الأمراء. فقبض على جماعة ممن قدم مصر نحو العشرة وأخذ ما معهم.
ثم ركب الأمير شيخو إلى بركة الحاج فى عدة وافرة وأحاط بالركب وتتبع الخيام وغيرها بعد ما حذر من أخفي العرب فقبض على جماعة منهم وقتل من عرف منهم بفساد وأطلق من شكر حاله.
ثم توجه الأمراء فى ذي القعدة وعدى السلطان. ممن معه من بقية الأمراء إلى بر الجيزة فكبست بلاد الجيزة بعد ما كتب لمتوليها ومشايخها وأرباب أدراكها أنهم لا يخفون أحداً من العرب ولا من أولادهم ونسائهم فأخذ الصالح والطالح. وقبض الأمراء على الخيول والسيوف حتى لم يبق ببلاد الجيزة فرس ولا سيف وأحضروا

حولها من مبان , خاصة فى الجهة الغربية حتى أخذت شكل الكنائس الحديثة مع الاحتفاظ ببعض أجزائها القديمة مثل الحجاب و الأيقونات . و يرجح أن يكون الحائط القبلي هو الجزء الوحيد الباقي من الكنيسة الأثرية لضخامته (عرض ١,٥ متر) . و قد عثر أثناء التوسيع الأخير على سرداب يمتد أسفل صحن الكنيسة حتى شاطئ النيل المجاور .

دير السريان: يقع هذا الدير مع دير الأنبا بيشوى فى المنطقة الواقعة بين دير البراموس و دير أبو مقار و يبعد عن الرست هاوس بمسافة ١٢ كم كما يبعد عن دير الأنبا بيشوى بمسافة ٥٠٠ كم فقط و قد أطلق عليه لفظ السريان لوجود بعض الرهبان السريان فيه من القرن الثامن حتى القرن ١٤ مع اخوتهم الأقباط و الأحباش . ترتفع أسوار الدير بارتفاع من ٩,٥٠ إلى ١١,٥٠ متر و قد بنيت فى القرن التاسع الميلادي و شكل الدير المستطيل ١٥٠ × ٣٠ متر ومقدمته الشرقية التى تشبه مقدمة

المركب مع ارتفاع الحصن والمنارات تعطيه رمز الفلك الذى فيه خلص نوح وأولاده به من الطوفان كما يخلص الدير أبناؤه الرهبان من شر العالم . يقع الحصن فى الركن البحرى الغربى من الدير حيث بنى فى القرن التاسع تقريباً وقبل إنشاء الحائط الخارجي للدير ويتكون من دور أرضى وثلاثة أدوار وتصميمه عبارة عن طرقة وسطى وعلى جانبيها حجرتين فى كل جانب مغطاه بقبو و فى الدور الثالث كنيسة لرئيس الملائكة ميخائيل كعادة الأديرة صحنها مغطى بقبو و قد استقطع منه جزء كخورس بحاجز خشبى أما قبة الهيكل فهى من الطوب الأحمر محمولة على حنيات ركنية و زخارف القبة ربما ترجع للقرن ١٥ م أما الحجاب فحديث نوعا باقى مبانى الدير تتكون من الطابونة القديمة قبلى الحصن يليها من جهة الشرق كنيسة السيدة العذراء السريان ثم مبنى المكتبة و قصر الضيافة ثم مبنى القلالى الحديث (بنى سنة ١٩٦٠ م) و أمامه من الجهة البحرية كنيسة الست مريم المغارة و فى

أصحابها إلى الوطاق.

واستدعى الوالي ومشايخ العربان وعرض من قبض عليه فمن عرفوه أنه من أهل البلاد (أى الفلاحين) أفرج عنه ومن لم يعرفوه قيد وحمل إلى القاهرة فسجن بها. وعرضت الخيول فمن عرف فرسه من الفلاحين رسم له ببيعها فى سوق الخيل تحت القلعة وحمل ثمنها إلى الديوان مما عليه من الخراج. ورسم بمثل ذلك فيما يحضر من خيول فلاحى بقية النواحى أى أن الفلاح يبيعها ويورد ثمنها فيما عليه من الخراج إما الأمير أو للجندى. فامتثل ذلك وعمل به وسيقت خيول المفسدين ومن لم يعرف له صاحب حمل إلى إصطبل السلطان.

فى ظل هذه الظروف ظهر أدب التحرض والمقاومة متخللاً الحكايات و الروايات فى قصص ألف ليلة و ليلة و قصة على الزيبق.

و بالرغم من هذا فإن المقريزى يروج دون أن يدرى مقولات بدوية عن المصريين "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" صفحة ٤٣، يقول فيها:

"أقباط مصر يغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعى إلى السلطان وذم الناس بالجملة، كما يغلب عليهم الشر والدنية التى تكون من دناءة النفس والطبع "

ويواصل قائلاً :

" ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور والدنية لم تسكنها الأسد، حتى كلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من الأمصار، وكذلك سائر ما

فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخرى، ماخلا ما كان منها فى طبعه ملايمة لهذا الحال كالحمار والأرنب.
وذكر أيضا:
" إن المكر عشرة أصناف، تسعة منها فى القبط، وواحد فى سائر الناس".

ما ذكره المقريزى عن الأديرة والكنايس بمصر:

المقريزى يصف الإضطهادات وهدم الكنايس:
قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٨ : " كان فيه أديرة كثيرة خربت وبقى منها بقية فكان بالمقس خارج القاهرة من بحريها عدة كنائس هدمها الخليفة الحاكم بأمر الله أبو على منصور الفاطمى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ. وأباح ما كان فيها فنهب منها شئ كثير جداً بعد ما أمر فى شهر ربيع الأول منها بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها وجعل موضعها الجامع المعروف براشدة .
وهدم أيضا فى سنة ٣٩٤ كنيستين هناك وألزم النصارى بلبس السواد وشد الزنار وقبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنايس والأديرة وجعلها فى ديوان السلطان وأحرق عدة كبيرة من الصلبان ومنع النصارى من أظهار زينة الكنايس فى عيد الشعانين وتشدد عليهم وضرب جماعة منهم , وكانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٨ هـ، وكان فى ناحية أبى النمرس من الجيزة كنيسة قام بهدمها الأمير الكبير برقوق وهو يومئذ القائم بتدبير الدولة حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود العجمى محتسب

ركنها الشرقى القبلى توجد شجرة مار أفرام السريانى و شرق كنيسة المغارة يوجد صفان من القلالى الأثرية بالدير على مستويين ترجع لثلاث قرون مضت و مغطاة بالقباب و فى الركن البحرى الشرقى من الدير توجد آثار كنيسة الأنبا يحنس القصير و حاليا تستغل كمخازن للدير .

كنيسة الست بربارة
تقع الكنيسة في امتداد حصن بابليون وقد تأسست في القرن الرابع حسب المتخصصين في تاريخ الفن. غير أن المصادر القديمة، وخاصة تاريخ أوتيكيوس الذي كان بطريركا ملكيا في الإسكندرية (٨٧٧-٩٤٠)، تشير بأن الكنيسة قد بناها كاتب عبد العزيز بن مروان حاكم مصر ما بين عامي ٦٨٥ و ٧٠٥. وكانت قد كرست لتكريم القديس سير (أبو قير)، ويذهب البعض إلى نسبها للقديس يوحنا.

تعرضت الكنيسة للهدم خلال حرائق الفسطاط عام ٧٥٠، ثم أعيد بناؤها في القرن الثامن، وخضعت

لعدة ترميمات في ١٠٧٢-١٠٧٣ بمناسبة نقل بعض رفات الست بربارة وفي هذه المناسبة أخذت الكنيسة اسمها الجديد وإن كانت التسمية القديمة لم تزل تذكر في المصادر التاريخية. وتعرضت الكنيسة من بعد إلى عدة تخريبات وترميمات، خاصة خلال حكم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٩-١٣٤٠) وأيضا في القرن العشرين.

الست بربارة: التي كانت تعرف أيضل باسم القديسة بارب، كانت فتاة في غاية الجمال، ولدت في آسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث، كان والدها وثنيا، لكنها خالفته واعتنقت الديانة المسيحية ورفضت الزواج فقتلها.

تشبه هذه الكنيسة، كنيسة سان سيرج وسان باكوس، فهي ذات شكل مستطيل تتبع خطة بناء الكاتدرائيات التي تحتوي على ثلاثة أروقة تفصل بينها أعمدة من الرخام عليها تيجان كورنثية. ويتقدم الرواق الأوسط، بائكة من دعامتين ضخمتين متصالبتان. أما

القاهرة فى ١٨ رمضان سنة ٧٨٠ وعملت مسجداً ".

دير الخندق

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٨ : " ظاهر القاهرة من بحريها عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة كان بالقرب من الجامع الأقمر حيث البئر التى تعرف الآن بيئر العظمة وكانت إذ ذاك تعرف ببئر العظام من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير وجعلها بدير الخندق ثم هدم دير الخندق فى ١٤ من شوال سنة ٦٧٨ هـ فى أيام المنصور قلاون ثم جدد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك وعمل كنيستين.

دير سرياقوس

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٨ : " كان يعرف بأبى هور وله عيد يجتمع فيه الناس وكان فيه أعجوبة ذكرها قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب الديارات : وهو أن من كان به خنازير أخذه رئيس هذا الدير وأضجعه وجاءه بخنزير فلحس موضع الوجع ثم أكل الخنازير التى فيه فلا يتعدى ذلك الموضع الصحيح فإذا نظف الموضع ذر عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ودهنخ بزيت قنديل البيعة فإنه يبرأ ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل الخنازير فيذبح ويحرق ويعد رماده لمثل هذه الحالة فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة وفيه خلق من النصارى ".

دير أتريب

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : ويعرف بمارى مريم وعيده فى ٢١ بؤونة وذكر

قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب الديارات : أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح لا يدرون من أين جائت و[illegible] يرونها إلى يوم مثله , وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبقى به إلا ثلاثة من الرهبان لكنهم يجتمهون فى عيده وهو على شاطئ النيل قريب من بنها العسل.

ديـر المغطس

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : " عند الملاحات قريب من بحيرة البرلس وتحج إليه النصارى من قبلى أرض مصر ومن بحريها مثل حجهم إلى كنيسة القمامة (القيامة) وذلك يوم عيده وهو فى بشنس ويسمونه عيد الظهور من أجل أن السيدة مريم تظهر لهم فيه ولهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلقة , وليس بحذاء هذا الدير عمارة سوى منشأة صغيرة فى قبلية شرقى وبقربة الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدى , وقد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة ٨٤١ بقيام بعض الفقراء المعتقدين ".

ديـــر العسكر

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : " فى أرض السباخ على بعد يوم من دير المغطس على أسم الرسل وبقرية ملاحة الملح الرشيدى ولم يبق به سوى راهب واحد ".

دير جميانة

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : " على أسم بوجرج قريب من دير العسكر على بعد ثلاث ساعات منه وعيده عقب دير المغطس وليس به أحد ألان ".

المصلبة الغير بارزة، فهي تنفتح على صدر الكنيسة المركزي الموجود في الرواق الأوسط، وهناك مصليان على الجانبين يغطيهما سقفان بشكل نصف قبة. هذا التخطيط كان منتشرا في العمارة المسيحية والذي تأثر بنظام الكاتدرائيات الرومانية.

تتكون الكنيسة من طابقين : تحمل الأعمدة عارضة خشبية تعلوها عقود منكسرة ومرتفعة. ويوجد فوقها رواق مسقوف تحمله أعمدة، ويغطي الرواق الأوسط قبو خشبي نصف دائري، بينما يغطي الرواقين الجانبيين سقف خشبي مسطح.

أما الحاجب الأيقوني المصنوع من خشب الجميز والأرز والموجود في المتحف القبطي في القاهرة، فهو يعود إلى العصر الفاطمي ويبدي أسلوبا قريبا من فن تلبيس الخشب المعروف في ذلك العصر. مع العلم أن معظم حرفيي الخشب كانوا من الأقباط ؛ ونجد عناصر زخرفية مختلفة، من مناظر الصيد والموسيقى ومناظر الرهبان.

خلال عملية ترميم قامت بها لجنة الحفاظ على آثار القاهرة القديمة تم اكتشاف باب ومصراعين بين حائطين، تعود إلى القرن الرابع أو الخامس وتحفظ في المتحف القبطي في القاهرة، وتحتوي على زخرفة شديدة الشبه بزخرفة العصور القديمة، من مزهريات دافقة بالزهور والنباتات ونصفية تمثل المسيح داخل إكليل يحمله ملاكان، وتحيط بهما أشخاص تحمل الأناجيل.

ونجد في الرواق منصة الوعظ من الرخام وتتكون من درج ومنصة ترتكز على عشرة أعمدة. .

دير الميمونة

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : بالقرب من دير العسكر كانت له حالات جليلة ولم يكن فى القديم دير بالوجه البحرى أكثر رهباناً منه إلا أنه تلاشى أمره وخرب فنزله الحبش وعمروه وليس فى السباه سوى هذه الأربعة أديرة.

أديرة وادى النطرون

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ :

" أما وادى هبيب وهو وادى النطرون ويعرف ببرية شيهات وبرية الأسقيط وبميزان القلوب فإنه كان بها فى القديم مائة دير ثم صارت سبعة ممتدة غرباً على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم وهى رمال متقطعة وسباخ مالحة وبرية متقطعة معطشة وقفار مهلكة وشراب أهلها من حفائر وتحمل النصارى أليهم النذور والقرابين وقد تلاشت فى هذا الوقت بعد ما ذكر مؤرخوا النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل منهم عكاز فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتابا هو عندهم ".

دير أبى مقار الكبير

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : " وهو دير جليل عندهم وبخارجة أديرة كثيرة خربت وكان دير النساك فى القديم ولا يصح عندهم بطريركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسى أسكندريا.

دير البنات بقصر الشمع

قال المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٤١٩ : " وهو

على أسم بوجرج وكان مقياس النيل قبل الإسلام وبه آثار ذلك إلى اليوم , فهذا ما للنصارى اليعاقبة (اسم خاطئ عن الأقباط), والملكية رحالهم ونسائهم من الأديرة بأرض مصر قبليها وبحريها ,, وعدد الأديرة ٨٦ ديرا لليعاقبة (اسم خاطئ عن الأقباط) و ٣ دير للملكية ".

مفهوم آثار المصريين عند المقريزى

وفي كتاب "المقريزى" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نجد الاستخدام الأمثل للفظ "الآثار" مع الإدراك التام لأبعاد "علم الآثار" ومقاصده وتبني منهج تحليلي إنساني في تناول هذا العلم لا يقتصر علي مجرد وصف للآثار وأنما يتعدى ذلك إلي التعريف بحال من أسس تلك الآثار ، ولاجدال فى أن تعدد معارف " المقريزى "وعمقها وشغله منصب " محتسب القاهرة والوجه البحري" فى عهد السلطان "برقوق" (١٣٩٨م) جعله علي صلة بأصحاب الحرف ومكنه من الإلمام بدقائق حرفهم والإطلاع علي أسرار صنعهم. وقد ساعده كل ذلك علي إخراج كتابه القيم الذي يعد دائرة معارف أثرية، وقد أبان المقريزى فى مقدمة كتابه الهدف من التأليف فقال: "فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ولم يبق ألا أن يمحو رسمها الفناء والعدم، وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع وحوته من المبانى

يعد عبد اللطيف البغدادي من أكثر المؤرخين لمصر الذى تكلم عن آثارها بشكل دقيق ومنصف،فنجده يذكر فى كتابه المسمى "الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" مايلى:

"أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشئ لم أر ولم أسمع بمثله فى مثلها فاقتصر على أعجب ما شاهدته.

[الإهرام]

فمن ذلك الإهرام، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها. وهى كثيرة العدد جداً وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة وتمتد فى نحو مسافة يومين، وفى بوصير منها شئ كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها

البديعة الأوضاع مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأوائل والتنويه بذكر الذي شادها من سرا الأعاظم والأفاضل"، ويتضح للناظر فى هذا النص أن "الآثار" كانت تعني عند المقريزى المخلفات المادية للحضارة الإنسانية فى العصور السالفة ، وأهمية ذلك أنه يعد سبقاً فى علم الآثار لا يمكن نكرانه ، كذلك أحرز المقريزى سبقاً أخر عندما اتجه إلي التعريف بحال من أسس وشاد تلك الآثار محققاً الربط بين هذه العمائر والمخلفات وبين المجتمعات البشرية التي شيدتها كتعبير حضاري اتخذ من طريق الصناعة والتشييد والفن سبيلاً من سبله المتنوعة للإفصاح عن نفسه.

بربي أو بيرب : " بيرب " بالقبطية معناها هيكل أو معبد ، وكثير من مؤرخى العرب سموا بعض الآثار المصرية القديمة " البرابى" وقد ذكر أبن عبد الحكم فى كتابه "فتوح مصر وأخبارها" لفظ " بربا " و " بربايات " و " برابي " وقد وصفها تحت عنوان " ذكر عمل البرابي " وذكرها " ابن النديم " فى كتاب " الفهرست " وبمصر أبنية يقال لها البرابي من الحجارة العظيمة الكبيرة وهي علي أشكال مختلفة وفيها مواضع الصحن والسحق والحل والعقد والتقطير تدل علي أنها عملت لصناعة الكيمياء وفي هذه الأبنية نقوش وكتابات لا يدري ماهي وقد أصيبت تحت الأرض فيها هذه العلوم مكتوبة فى التوز وهي صفائح الذهب والنحاس وفي الحجارة وكذلك المسعودى فى كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" فقال مفسراً سبب بنيان البرابي، وكانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر

مدرج وأكثرها مخروط أملس، وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب علي يدى قراقوش بعض الأمراء وكان خصياً رومياً سامي الهمة فكان يتولى عمائر مصر، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على المقطم، وهو أيضاً الذي بنى القلعة وانبط [حفر] فيها البيرين الموجودتين اليوم، وهما أيضاً من العجايب وينزل إليهما بدرج نحو ثلثمائة درجة .
وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة، وهذه القناطر من الأبنية العجيبة أيضاً ومن أعمال الجبارين وتكون نيفا وأربعين قنطرة .
وفي هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء فيروى الجيزة فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت، ومع ذلك فلم يرو ما رجا أن يروى. وقد بقى من هذه الأهرام

فـى أحكـام النجـوم مواظبـة علـي معرفـة أسـرار الطبيعة، وكان عندها مما دلت علية أحكام النجوم أن طوفاناً سيكون فى الأرض، ولم تقطع بأن ذلك الطوفان ما هو أنار تأتي علي الأرض فتحرق ما عليه، أو ماء فيغرقها أو سيف يبيد أهلها فخالت دثـور العلـوم وفناءهـا بفنـاء أهلهـا فاتخـذت هـذه البرابي، واحدها بربا، ورسمت فيها علومها من الصــور والتماثيــل والكتابــة " وكــذلك أفــرد المقريزى فصلاً فى كتابه "المواعظ" للحديث عن البرابـي تحـت عنـوان "ذكـر العجائـب التـي كانـت بمصــر مــن الطلســمات والبرابــي ونحــو ذلــك" وعرفها بقولـه "والبرابـي ببلاد مصـر بنيـان قـائم عجيب كالبربا التي بـأخميم والتـي بسمنود كذلك" وكذلك فى رحلـة ابن بطوطـة نجد "ذكر الأهرام والبرابي"، ولاشك أن ما خلفه المصريون القدماء من أهرام ومعابد وتماثيل قد لفت أنظـار الفـاتحين العـرب وحـرك حـب الإستطلاع عندهم والتشوق للمعرفة وقد وصفوا تلك الآثـار مستخدمين اللفظ الـذي أطلقــه قـبط مصــر عليهــا ، وقــد حــرص المسلمون علـي استقصـاء أخبـار تلك الآثـار ومن بنوها ممن عرفوا بالعلم من أقبـاط مصـر، ويذكر المســعودي أن ابــن طولــون اســتقدم فــى رجــلاً مصــرياً "علامــة بمصــر وأرضــها مــن برهــا وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها وأخلي نفسـه لـه فـى ليـال وأيـام كثيـرة يسـمع كلامــه وإيراداتــه وجواباته فيما يسأل عنه".

دفينــة : الجمع دفائن وهي الكنوز التـي دفنـت أي سترت ووريت فى الأرض. وتعتبر "الدفائن" من لآثار المنقولة التـي يعثر عليهـا مدفونـة فـى بـاطن الأرض، وقـد اسـتخدم المسـعودي اللفـظ بـنفس

المهدومـة قلبهـا وحشـوتها وهى ردم وحجارة صغار لا تصـلح للقنـاطر فلأجـل ذلك تركت.
وأمـا الأهـرام المتحـدث عنهـا المشـار إليهـا الموصـوفة بـالعظم فثلاثـة أهرام موضوعة علـى خط مسـتقيم بـالجيزة قبالـة الفسطاط، وبينها مسـافات يسيرة زواياها متقابلـة نحو الشـرق واثنـان منهـا عظيمـان جـداً وفـى قـدر واحد وبهما أولـع الشـعراء وشبهوهما بنهدين قد نهدا فى صدر الديار المصـرية، وهمـا متقاربـان جـداً ومبنيان بالحجـارة البيض. وأما الثالث فينقص عنهما بنحـو الربـع لكنـه مبنـى بحجـارة الصـوان الأحمـر المنقط الشديد الصلابة ولا يـؤثر فيـه الحديـد إلا فـى الـزمن الطويـل وتجـده صغيراً بالقياس إلى ذينيك. فـإذا قـرب منـه وأفردتـه بـالنظر هالـك مرآه وحسر الطـرف عنـد تأملـه، وقـد سلك فـى بنايـة الأهـرام طريق عجيب من الشكل والاتقـان ولـذلك صـبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقـول الصـافية قـد

أفرغت وهي مائة ذراع وإحدى وعشرين ذراعاً والطبقة الثانية مثمنة وطولها إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مثمنة وطولها إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها إحدى وثلاثون ذراعاً ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع في مثلها وأما الذى شاهدته من حالهما فإن رامياً كان معنا رمى سهما في قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة.

وخبرنا أن في القرية المجاورة لها قوما اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشئ فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا في الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأثوابه، وكانت سابقة كنت أمرته أنه إذا استوى على سطحه قاسه بعمامته فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان إحدى عشرة ذراعاً بذراع اليد، ورأيت بعض أرباب القياس قال ارتفاع عمودها ثلمثائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً يحيط به أربعة

المعني بينما استخدم البنيان للتعبير عن الآثار الثابتة عندما تحدث عن دفائن مصر قائلا: "ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض".

وقد أفرد " المقريزى " فصلاً للكلام عن الدفائن والكنوز جعله بعنوان " ذكر الدفائن والكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب."

ذخيرة : الجمع ذخائر وهي ما ادخر: وقد استخدم المسعودي لفظ الذخائر ليعبر به عن النفائس والأموال التي ادخرها السابقون ودفنوها فنجده يقول "وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض" ويقول في موضع آخر "وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد اعتني وأغري بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض". وفي معرض كلام المقريزى عن خزائن القصر الفاطمي الكبير يذكر كتاباً بعنوان "الذخائر" ، وقد عثر أحمد بن طولون علي كنز آخر قدره مليون دينار يورد لنا المقريزى خبر العثور عليه علي النحو التالي "وركب (أحمد بن طولون) في غد ذلك اليوم إلي نحو الصعيد ، فما أمعن في الصحراء حتي ساخت في الرمل يد فرس بعض غلمانه ، فسقط الغلام في الرمل فإذا بفتق فأصيب فيه من المال ، ما كان مقداره ألف ألف دينار، وهو الكنز الذي شاع خبره" ، ولعل استخدام "أحمد بن طولون" للمال الذي وجده في كنز "تنور فرعون" في بناء

مسجده الجامع بجبل يشكر وبناء العين كان التطبيق العملي لحديث الرسول (ص) السالف الذكر ، ويجدر أن نشير مرة أخري إلي تفسير "ابن عباس" للفظ كنز فى سورة الكهف بأنه كان علماً وصحفاً مما يبرهن بصورة واضحة علي أن علماء المسلمين فى فجر الإسلام كان لديهم إدراك مكتمل وتام للقيمة الأثرية لتراث ومخلفات الأمم السابقة وأن العلم والصحف التي خلفتها لنا الأجيال السابقة من الإنسانية تفوق فى قيمتها الذهب والفضة، وهذا ينفي عن المسلمين ما قد يتبادر إلي ذهن البعض من أن اهتمامهم بالآثار القديمة كان منصباً فقط علي البحث عن الكنوز.

مطلب: من طلب والطلب محاولة وجدان الشيء وأخذه، والجمع مطالب .استخدمت كلمة المطالب للدلالة علي الذخائر والكنوز التي يعثر عليها فى الدفائن، وقد استخدمها المسعودي بهذا المعني فهو يقول: "ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعي بالمطالب إلي هذه الغاية" ويقول فى موضع آخر "وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد اعتني وأغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة ببطن الأرض ببلاد مصر" وفي موضع آخر "وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلي أحمد بن طولون وغيره إلي هذا الوقت أخبار عجيبة ، فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر، وما أصيب فى القبور من المطالب والخزائن" ، وكذلك استعمل المقريزى الكلمة فى

سطوح مثلثات الأضلاع طول كل ضلع منها أربع مائة ذراع وستون ذراعاً. وأري هذا القياس خطأ ولو جعل العمود أربع مائة ذراع لصح قياسه. وإن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسي، وفي أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضي بهم إلي مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلجه ويتوغله، فإن ناساً كثيرين لهم غرام به وتخيّل فيه فيوغلون فى أعماقه ولابد أن ينتهوا إلي ما يعجزون عن سلوكه، وأما المسلوك فيه المطروق كثيراً فزلاقه تفضي إلي أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر، وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له فى أصل البناء وإنما هو منقوب نقباً صودف اتفاقا، وذكر أن المأمون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا إلي البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طاقات وروازن نحو

عنوان فصل من كتابه المواعظ " ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب " ويتضح من العنوان ومن استخدام المسعودي للكلمة أنها استخدمت في هذا المعني عند أهل مصر . كذلك ذكرها المقريزى عندما ساق خبراً عن أحمد بن طولون " (وركب) أحمد بن طولون يوماً إلي الأهرام فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي والمعاول فسألهم عن ما يعملون فقالوا نحن قوم نطلب المطالب".

أعياد المصريين كما ذكرها المقريزى

يسرد لنا المقريزى (١٣٦٥-١٤٤٢)، فى مؤلفه «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» عن الاحتفالات بأسبوع الآلام، ويكتب الآتى:

١- عيد الزيتونة:

ويعرف عندهم بعيد الشعانين، ومعناه التسبيح. ويكون فى سابع أحد، من صومهم. وسنتهم فى عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة. ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو،(وهو الحمار) فى القدس، ودخوله إلى صهيون وهو راكب، والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف، ويحث على عمل الخير، وينهي عن المنكر، ويباعد عنه. وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر، فيها كنائسهم. فلما كان لعشر خلوان من شهر رجب، سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، كان عيد الشعانين، فمنع الحاكم بأمر الله أبو عليّ منصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم، وحملهم الخوص على ما كانت عادتهم، وقبض على عدة ممن وُجد معه شيئًا من ذلك، وأمر ما هو محبَّسٌ

أعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء وولجته مرة أخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثى المسافة فأغمى على من هول المطلع فرجعت برمق.

وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشر أزرع إلى عشرين ذراعاً وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث وعرضه نحو ذلك والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل أبرة ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صفته ولا ما هو.

وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جداً حتى لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة، وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر أغاذيمون والآخر قبر هرميس ويزعمون أنهما

على الكنايس من الأملاك، وأدخلها فى الديوان، وكتب لسائر الأعمال بذلك، وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق.

٢- خميس العهد:

ويُعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أن يملئوا إناء من ماء، ويزمزمون عليه، ثم يغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى. ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلامذته فى مثل هذا اليوم، كى يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد أن يتفرقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض.. وعوامٌ أهل مصر فى وقتنا يقولون" خميس العدس" من أن أجل النصارى تطبخ فيه العدس المصفى. ويقول أهل الشام:"خميس الأرز" "وخميس البيض". ويقول أهل الأندلس:"خميس أبريل". وأبريل: اسم شهر من شهورهم.

وكان فى الدولة الفاطمية تضرب فى "خميس العدس" هذا خمسمائة دينار، فتعمل خراريب، تفرق فى أهل الدولة برسوم مفردة. كما ذكر فى أخبار القصر من القاهر. عند ذكر دار الضّرب من هذا الكتاب. وأدركنا "خميس العهد" هذا فى القاهرة، ومصر، وأعمالها، من جملة المواسم العظيمة. فيباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدّة ألوان، ما يتجاوز حدّ الكثرة، فيقامر به العبيد، والصبيان، والغوغاء. ويُنتدب لذلك من جهة المحتَسب من يردعُهم فى بعض الأحيان. ويهادى النصارى بعضهم بعضًا، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك المنوع، مع

نبيان عظيمان وأن اغاذيمون أقدم وأعظم.

وأنه كان يحج إليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض. وقد وسعنا القول فى المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليه، فإن هذا الكتاب مقصور على المشاهد.
وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف لما استقل بعد أبيه سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثالثة الأثافى.

فأخرج إليه الحلبية والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلهم بخرابه فخيموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم [رجالهم] يهدمون كل يوم، بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع، الحجر والحجرين، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والأمخال، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والاشطان فإذا سقط سمع له رجة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له

العدس المصفى. والبيض. وقد بطل ذلك لما حل حلَّ بالناس، وبقية.

٣- سبت النور:

هو قبل الفصح بيوم.. يزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح- بزعمهم- فى هذا اليوم، بكنيسة القيامة من القدس. فتشعل مصابيح الكنيسة كلها. وقد وقف أهل الفحص والتفتيش على أن هذا من جملة مخاريق النصارى، (أي ابتداعاتهم) لصناعة يعملونها. وكان بمصر. هذا اليوم من جملة المواسم، ويكون ثالث يوم من خميس العدس ومن توابعه.

٤- عيد الفصح:

هذا العيد عندهم، هو العيد الكبير. ويزعمون أن المسيح عليه السلام، لما تمالأ اليهود عليه، واجتمعوا على تضليله وقتله، وقبضوا عليه، وأحضروه إلى خشبة ليُصلب عليها، فصُلب على خشبة عليها لصان، وعندنا- وهو الحق- أن الله تعالى رفعه إليه ولم يُصلب، ولم يقتل، وأن الذي صلب على الخشبة مع اللصين غير المسيح. ألقى الله عليه شبه المسيح. قالوا: واقتسم الجند ثيابه. وغشَّى الأرض ظلمة من الساعة السادسة من النهار، إلى الساعة التاسعة من يوم الجمعة، خامس عشر هلال نيسان العبرانيين. وتاسع عشر برمهات. وخامس عشرى آذار سنة. ودفن الشبيه آخر النهار بقبر، وأطلق عليه حجر عظيم، وختم عليه رؤساء اليهود وأقاموا عليه الحرس باكر يوم السبت، كيلا يسرق. فزعموا أن المقبور

الجبال وتزلزل الأرض ويغوص فى الرمل فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه، ثم يضربون فيه الاسافين بعد ما ينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه فيتقطع قطعاً فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى فى ذيل الجبل وهى مسافة قريبة، فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت عظائمهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل.

وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، ومع ذلك فإن الرائى لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استؤصل فإذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شئ وإنما جانب قد كشط بعضه. وحين ما شاهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت له لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجراً واحداً إلى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك فأقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه.

بغير ميت، وعلى القبر ملاك الله، بثياب بيض، فاخبرها بقيام المقبور من القبر. قالوا: وفي يوم الأحد هذا، دخل المسيح على تلاميذه وسلم عليهم، وأكل معهم، وكلمهم، وأوصاهم، وأمرهم بأمور قد تضمنها إنجيلهم. وهذا العيد عندهم بعد عيد الصلبوت بثلاثة أيام.

٥ـ حدُّ الحدود:

وهوبعد الفصح بثمانية أيام.(يقصد أحد توما) فيعمل أول أحد بعد الفطر؛ لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم.. وفيه يجددون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون في المعاملات، والأمور الدنويّة، والمعاشية.

***

اللغة المصرية تقاوم الغزو الأجنبى

دخلت لغة المصريين بعد سقوطهم تحت يد الاحتلال المقدونى فى صراعات مريرة مع الاحتلال الأجنبى الذى كان يسعى - ضمن مساعيه الاستعمارية الأخرى- إلى فرض لغته على المصريين ومحو لغتهم الوطنية بهدف إضعاف مقاومتهم وتفتيت وحدتهم - التى تقوم فى أحد أركانها على وحدة اللغة وطمس تراثهم الثقافى. وهم فى سبيل ذلك قاموا بإلغاء المدارس العامة والمؤسسات الثقافية الأخرى التى كانت تحمى - ضمن ما تحمى - هذه اللغة وتشجع مبدعيها.

لكن اللغة المصرية تمكنت فى النهاية من البقاء والاستمرار والتطور بعد أن أثخنت بالكثير من الجراح التى تمثلت بداية فى إجبار المصريين

<u>وبإزاء الأهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار [متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة] حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوماً أجمع ولا ينهيها لكثرتها وسعتها وبعدها، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام، وأما مقاطع حجارة الصوان الأحمر فيقال أنها بالقلزم وبأسوان. وعند هذه الأهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئاً إلا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول.</u>

<u>[أبو الهول]</u>

<u>وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول.</u>

<u>ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى المقياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه سبعين ذراعاً، وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراءة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسماً، وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب</u>

ما رأيت، فقلت تناسب وجه أبي الهول فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإن أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهاً به، كذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته على هذا سائر الأعضاء، فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار وهيئة بالقياس إلى تلك الصورة وعلى نسبتها فإن لم توجد المناسبة تشوهت الصورة. والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه ويتقبله.

[آثار عين شمس]

ومن ذلك الآثار التى بعين شمس وهى مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقاً بها مهدوماً ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعاً وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم وقد كان بعض هذه الأصنام قائماً على قواعد وبعضها قاعداً

على كتابة ترجمة يونانية للنصوص المصرية فى المداولات الرسمية والآثارية (١)، وانتهاء بكتابة اللغة المصرية بحروف يونانية فى أغلبها عرفت باسم الخط القبطى (٢). وقد أدى ذلك إلى دخول أعداد هائلة من الكلمات اليونانية إلى اللغة المصرية الرسمية خاصة عند ترجمة العهدين القديم والجديد من اليونانية إلى المصرية وانتشار المسيحية فى مصر، وبالرغم من أنه تم كتابة اللغة المصرية بالحروف اليونانية/ القبطية إلا أن قواعد اللغة المصرية ظلت تحكم تلك الاشتقاقات اليونانية. مع ملاحظة أن الأمية الكتابية التى كانت سائدة بين الشعب المصرى فى ذلك الحين ساعدت على عدم وصول المفردات اليونانية إلى لغة المصريين، فظلت فى مستواها الشعبى بعيدة كل البعد عن المفردات اليونانية، فى نفس الوقت الذى ظلت فيه الجهود الأهلية والشعبية فى تطوير اللغة المصرية مستمرة فى الأغانى والحكم والأمثال والحكايات وأعمال الشهداء المصريين قبل وبعد انتشار المسيحية، وفوق كل ذلك فى الكُتّاب الأهلى الذى استمر فى عمله منذ القدم وحتى منتصف القرن العشرين، بسبب عدم قدرة السلطات الحاكمة من تتبعه والوصول إليه فى اعماق الريف المصرى، وخرج منه العديد من المدارس الأهلية خلال هذه الفترة محافظا بذلك على اللغة وكتابتها، وهكذا حافظ المستوى الشعبى من اللغة المصرية على اللغة المصرية ودعم قيامها واستمرارها فى شكلها الرسمى/الفصيح.

ومع الاحتلال الرومانى لمصر بدأت مرحلة جديدة من الصراع ضد اللغة المصرية ومحاولة طمسها بالكامل. فإلى جانب سياسة إغلاق

المؤسسات الثقافية المصرية التى كانت فى هذا الوقت تحتمى بالمعابد المصرية، ونشر الأمية، شُنت حملة ضارية ضد البرديات المكتوبة باللغة المصرية، وتم تدمير ومصادرة العديد منها بسبب احتوائها على أقدم أشكال الأدب الوطني المقاوم للاحتلال الأجنبى، والذى عرف خطأ باسم " أعمال الشهداء الوثنيين (٣)، تلك الأعمال التى ألهمت فيما بعد إبداعات" أعمال الشهداء المسيحيين" فى ظل المقاومة المصرية للاستبداد الرومانى.

وفى ظل اعتناق الرومان للمسيحية شنوا حملة تدميرية واسعة النطاق ضد المصريين ومعتقداتهم الوطنية ومعابدهم وتراثهم الثقافى والفنى المخطوط. وكان من الطبيعى فى البداية أن يشترك فى هذه الحملة بعض مسيحيو مصر، الذين اعتبروا عملهم هذا عملا دينيا مقدسا ضد ما أسموه بالوثنية، بالرغم من أنه كان ضد إخوانهم من المصريين الذى حموهم فى السابق من الاضطهاد الرومانى (٤).

ولعل أحد الأسباب الأساسية التى أدت إلى تحول اللغة المصرية إلى الكتابة بالحروف القبطية / اليونانية، وما تبع ذلك من بعض التحولات اللغوية يعود إلى هذه الفترة. ففى الوقت الذى حارب فيه الرومان، ومن قبلهم المقدونيون، هذه اللغة الوطنية حتى سادت أمية شديدة بين الشعب المصرى صاحب الحضارة العظيمة، كانت المؤسسة الدينية القبطية فى حاجة الى هذه اللغة لنشر معتقدها المسيحى بين الشعب المصرى الذى لم يكن يعرف لغة سواها، واعتمدت هذه المؤسسة فى عملها على كتابة عدد من المخطوطات الدينية باللغة المصرية ذات

بنصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود إلى اليوم وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير الإنسان وغيره من الحيوان وكتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما يرى حجراً غفلاً من كتابة أو نقش أو صورة، وفى هذه المدينة

[مسلتي فرعون]

المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون، وصفة المسلة أن قاعدة مربعة طولها عشر أذرع فى مثلها عرضاً فى نحوها سمكاً قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ثم أقيم عليها عمود مربع ينيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى إلى نقطة، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاث أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وبطول المدة أخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة.

والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت إحدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم أن حولها من المسال شيئاً كثيراً لا

الحروف اليونانية هروبا من الكتابة بالحروف الديموطيقية المصرية تحت دعوى أنها حروف الكتابات (الوثنية) المصرية. وكانت هذه المخطوطات تحتوى على النصوص الإيمانية ورسائل الآباء البطاركة فقط، لتلقى شفاهة على المؤمنين الأميين فى الكنايس (٥) أما ما عدا ذلك من إبداعات اللغة المصرية - سواء فى مجال الفنون، والآداب والعلوم والفلسفة - فقد تم تجاهله وتدميره (٦).

وقد أدت سياسة التعليم الشفاهى هذه، والتى اعتمدت على التلقين والحفظ، وعدم وجود من يحمى المخطوطات والمؤلفات المكتوبة باللغة المصرية، إلى طمس العديد من مظاهر الحضارة المصرية وثقافتها، وأصبح من النادر أن نجد بين المصريين- بوجه عام- من يتقن كتابة لغته ويفقه محتواها الثقافى. مما سهل على العرب ، بعد غزوهم مصر، إحلال الحروف النبطية محل الحروف القبطية / اليونانية فى كتابة اللغة المصرية.

هكذا اتبع وتابع الحكام العرب والمسلمون فى مصر سياسة الرومان. ففى السنوات الأولى من حكم العرب لمصر لجأوا إلى كُتاب الدواوين الذين كانوا يعملون فى ظل الإدارة الرومانية البيزنطية ليديروا لهم شئون البلاد. ولما كان هؤلاء الكُتاب يمارسون عملهم على أساس استخدام اللغة اليونانية الى جوار اللغة المصرية المكتوبة بالحروف اليونانية، فقد أمروا فى أول الأمر بكتابة الألسنة العربية بالحروف اليونانية (٧)، ومع الوقت أمروا باستبعاد الحروف

<u>يحصى عددها مقاديرها على نصف تلك العظمى أو ثلثها وقلما تجد فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وإنما بقيت قواعدها.</u>

<u>ورأيت بالإسكندرية مسلتين على سيف البحر فى وسط العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين.</u>

<u>[البرابى]</u>

<u>وأما البرابى بالصعيد فالحكاية من عظمها واتقان صنعتها وأحكام صورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع أحكام البناء وجفاء الآلات والأحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن الإطالة فى الصفة.</u>

<u>[عمود السوارى]</u>

<u>ورأيت باسكندريا عمود السوارى وهو عمود أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جداً شاهق الطول، ولا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعاً وقطره خمس أذرع وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام</u>

اليونانيـة وأحلـوا محلهـا الحـروف النبطيـة (٨). وتطلب ذلك من كتاب الدواوين أن يطوروا كتابة الألسن العربية واللغة المصرية بالحروف النبطية - وهى الحروف التى طورها المصريون لتكون آخر أشكال كتابة اللغة المصرية ..
وبالتـدريج انـدثرت حـروف الكتابـة اليونانيـة وسـادت الحـروف النبطيـة فـى شـكلها الجديـد وابتلعت بعض صوتيات اللغة المصرية(٩) وان ظلت قاصرة عن استيعاب بقية أصواتها.

استمرار المفردات المصرية القديمة بصوتياتها فى لغتنا حتى اليوم

المصـريون لهـم شـكل مميز فـى إبـداعاتهم الفنيـة واللغوية خاصة فى الموسيقى المصرية الأصيلة المتمثلـة فـى الأغـانى الشـعبية والريفيـة القديمـة والإنشـاد الـدينى مستمدة من الموسيقى المصـرية القديمة (الفرعونية) كذلك أيضـا يوجـد الكثير من الموروث من الحضارة المصرية القديمة فى لغتنا المعاصرة.

ففـي المصـرية التـي نتكلمهـا حاليـاً، يوجـد عـدد لا يحصـى مـن الكلمـات المصـرية القديمـة المتداولـة منذ زمن الفراعنـة واستمرت فـى الكتابـة القبطيـة حتى وقتنا هذا، وها هى بعض هذه الكلمات على سبيل المثال فقط وليس الحصر:

*سُك: الباب أى أغلقه، فكلمة سُك كلمة مصرية أصلية.

يحتـاج إلـى قـوة فـى العلـم برفـع الأثقـال وتمهـر فـى الهندسة العمليـة [وخبرنـى بعض الثقاة أنه قاس دوره فكان خمساً وسبعين شبراً بالشبر التام].
ثم أنى رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر مـن أربـع مائـة عمـود مكسـرة أنصـافا وأثلاثـا حجرهـا مـن جنس حجر عمود السوارى على الثلث منـه أو الربـع وزعـم أهـل سكندريا قاطبـة أنهـا كانـت منتصـبة حـول عمـود السـوارى وأن بعـض ولاة اسكندريا واسمه قراجا كان واليا عن يوسف بن أيوب فـرأى هـدم هـذه السـوارى وتكسيرها وألقاها بشـاطئ البحـر زعـم أن ذلـك يكسـر سـورة المـوج عـن سـور المدينة أو أن يمنع مراكب العـدوان تسـتند إليـه وهـذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة.
ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايـا صـالحة بعضـها صـحيح وبعضـها مكسـور ويظهـر مـن حالهـا أنهـا كانـت مسـقوفة والأعمـدة تحمـل السـقف وعمـود السـوارى عليـه قبـة هـو حاملهـا وأرى أنـه الـرواق

الذى كان يدرس فيه ارسطو طاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه.

[المنارة]

وأما المنارة فحالها مشهور يغنى عن وصفها وذكر ذوو العناية أن طولها مايتا ذراع وخمسون ذراعاً.

وقرأت بخط بعض المحصّلين أنه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين ذراعاً وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعاً ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمساً وثمانين ذراعاً و ثلثى ذراع وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعاً وطول القاعدة العليا سبع أذرع ونصف ذراع و قاس أيضاً المنارة فوجدها مائتى ذراع وثلاثاً وثلاثين ذراعاً وهى ثلاث طبقات الطبقة الأولى مربعة وهى مائة ذراع وإحدى وعشرين ذراعاً والطبقة الثانية مثمنة وطولها إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مثمنة وطولها إحدى

* أدينى: أدينى الكتاب ده، فكلمة دينى أيضا كلمة مصرية بمعنى أعطينى.

* فوطه: بمعنى منشفة.

* أوطه: بمعنى ثمرة عامة أو ثمرة الطماطم فى لهجة سكان القاهرة.

* أنكُت: فى الريف يقال إنكُت العصايا دى فى الأرض يعنى اغرزها فى الأرض.

* أمَر العيش: بمعنى سخن العيش أو أخبزه.

* لُبشة قصب: مجموعة عيدان.

ولكننا فى مجال تأثير اللغات على بعضها لا نعتد كثيرا بانتقال الكلمات فيما بينها ولكن نعول على التأثيرات ذات الصلة بقواعد هذه اللغات التى تحدد لنا معنى الجملة فى النهاية وليس كلماتها فقط كما سنوضح فيما يلى.

قواعد وترتيب الكلام فى لغتنا المصرية مازالت تتبع نفس قواعد اللغة المصرية منذ القدم:

إن قواعد المصرية التى نتكلمها مستمدة فى أغلبها الأعم من قواعد اللغة المصرية التى عرفناها وتطورت منذ فجر التاريخ وحتى اليوم. واليكم بعض الأمثلة على ذلك. عندما نقول:

* ما تقفل الباب كويس، أو ما توطى صوتك شوية، وهى غير ما فى العربية القديمة فكلمة

ما هي الأداة المستخدمة لتكوين فعل الأمر فى اللغة المصرية.

كما أن الاستفهام فى اللغة المصرية بالصيغة وليس بأداة الاستفهام، فعندما نقول "أنت خارج النهارده ؟ "لم نستخدم أداة الاستفهام "هل" وذلك لأن الاستفهام فى اللغة المصرية كان بالصيغة فى غالبية الأحوال وليس بأداة الاستفهام وقد انتقل ذلك إلى المصرية الحالية.

* اللغة المصرية لا تعرف الضمير: (هُن) للمؤنث، كما هو الحال فى اللغة الإنجليزية أيضا فنحن نقول:

البنات دول كراساتهم فين؟ فين كتبهم؟ أو هم راحوا فين؟، ولم نقل كراساتهن أو كتبهن، إلى أين ذهبن؟. وذلك لأن الضمير المعبر عن الجماعة واحد بالنسبة للمذكر أو المؤنث.

* وفى مجال التعبير الدارج نقول: سامى أخذ سارة، بمعنى تزوجها. حيث أن (أخذ) بمعنى تزوج بلغتنا المصرية.

*كما أن أداة الاستفهام لا تأتى فى أول الجملة المصرية: فنحن نقول: أنت رايح فين الليلة دى؟. وليس أين ستذهب هذه الليلة؟. وذلك لأن موقع أداة الاستفهام فى الجملة يتبع نفس قواعد لغة مصر الأصلية وليس العربية.
* واسم الإشارة يأتى بعد الاسم وليس قبله كما فى:

الليلة دى. وليس هذه الليلة...... ألخ.

وثمانون ذراعاً ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها إحدى وثلاثون ذراعاً ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع.
[مدينة منف]
ومن ذلك الآثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بالجيزة فويق [مقابل] الفسطاط وهي منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر، وإياها عني بقوله تعالى عن موسى عليه السلام: "ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها". وبقوله تعالى: "فخرج منها خائفاً يترقب". لأنه مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجيزة قريبة من المدينة التي تسمي دموة وبها اليوم دير لليهود، ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم في نحوه وقد كانت عامرة في زمن إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم إلى زمن بخت نصر فإنه أخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة وسبب خرابه إياها أن ملكها عصم منه اليهود، حين التجأوا إلى مصر ولم يُمكن منهم بخت

نصر فقصده بخت نصر وأباد دياره. ثم جاء الإسكندر بعد ذلك واستولى عليها وعمر بها الإسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك إلى أن جاء الإسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك بالفسطاط، ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك إلى اليوم. وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا في الكتاب الكبير. ولنرجع إلى وصف منف المسماة مصر القديمة.

فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستنصال الأمم إياها من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وإفساد أبنيتها وتشويه صورها، مضافاً إلى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوق فهم الفطن المتأمل ويحسر دون وصفه البليغ اللسن وكلما زدته تأملا زادك عجباً وكلما زدته نظراً زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى أنبأك بما هو أغرب ومهما استثرت منه علما دلك على أن وراءه ما هو

بين استمرارية اللغة المصرية وفشل محاولات تأسيس قواعد لغوية للألسنة العربية

يبقى فى النهاية سؤال هام.. هل كتابة اللغة المصرية الحالية بالحروف ذات الأصول النبطية قد قضى على اللغة المصرية (١٠).. أم أن اللغة المصرية امتدت وتطورت فى ثوب الحروف (الجديدة) المتطورة عن النبطية ثم خرجت الى البلدان المحيطة بها وسادت حتى أن هذه البلدان عندما أرادت أن تعرف لغة لها مستواها الحضارى والثقافى الواسع ، لم تعرفها إلا على يد العلماء المصريين منذ إنشاء دواوين الكتابة المصرية ، وخاصة ديوان الإنشاء ، وحتى جامعة الأزهر فى القاهرة بل وحتى بعثات تعليم اللغة التى أرسلتها الدولة المصرية منذ أوائل القرن العشرين وحتى اليوم للبلدان المحيطة بها ، ولو أردنا أن نتعلم العربية لجلبنا من هذه البلدان من علمنا لغتهم (العربية المزعومة) بدلا من أن نعلمهم لغتنا المصرية .

للإجابة على السؤال السابق في استفاضة فإن الأمر يحتاج إلى كتابة موسعة شبه إحصائية وتاريخية عن دور دواوين الكتابة المصرية خاصة ديوان الإنشاء (ديوان المكاتبات الرسايل) والأزهر والبعثات المصرية التى علمت أهل هذه البلدان اللغة المصرية قراءة وكتابة . ولكن يكفى أن نذكر هنا ما يأتى عن مؤسسة من أهم مؤسسات الدولة فى مصر منذ القرن التاسع الميلادى وهى مؤسسة ديوان الرسايل " ديوان الإنشاء" التى كانت حلقة الوصل الأساسية بين الدولة والمتعاملين معها فى داخل مصر وخارجها. وكان من أهم كتابها " ابن عبد كان "

الذى بلغ من شهرته "أن أهل مدينة السلام (بغداد عاصمة الخلافة العباسية) كانوا يحسدون أهل مصر عليه ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثله.." وكانت رسايله تقاليد ، يسير عليها الكتاب من بعده، ويتابعونه فيه. ذلك أن عاصمة الخلافة العباسية لم تعرف الكتابة بالحروف النبطية/العربية إلا بعد فترة طويلة من تطويرها فى مصر .
وكان ابن " عبد كان " يمتحن من يرغب فى الالتحاق بديوان الإنشا من المصريين وغيرهم، هذا الديوان الذى كان قد بلغ منزلة رفيعة جعلت الكثير من الكتاب العباسيين فى بغداد ، يتلمسون السبل للحاق به، فيدون ياقوت (الحموى) حديثا عن ابن زولاق المؤرخ المصرى فحواه "أن أبا يعقوب اسحاق ابن نصير البغدادى قدم من العراق على ابن عبد كان والتمس منه التصرف.
وقدم إلى مصر فى هذه الفترة كذلك محمد ابن جرير الطبرى فسار إلى الفسطاط وأخذ عن أهل العلم بمصر الكثير من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم . كما يذكر أبن الأثير فى كتابه "الوشى المرقوم" ص ١٧٩ / ١٨٠: (وحدثنى عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله بمدينة دمشق فى سنة ثمان وثمانين وخمسماية - وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية - فقال : كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية (الفاطمية) غضا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأسه مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا. وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ، ويرى، ويسمع . قال : فأرسلنى والدى

أعظم.
فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر، وهو حجر واحد تسع أذرع ارتفاعاً فى ثمان طولا فى سبع عرضا قد حفر فى وسطه بيت قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين والباقى فضاء البيت، وجميعه ظاهرا وباطنا منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم، وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلى مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات فمن بين قائم وماش وماد رجليه وضامهما ومشمر للخدمة وحامل آلات ومشير بها، ينبئ ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيآت فاضلة وإشارات إلى أسرار غامضة وأنها لم تتخذ عبثا ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن، وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعا فى المطالب[٢] فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله وثقل

بعضه على بعض فتصدع صدوعا طفيفة يسيرة. وهذا البيت قد كان في هيكل عظيم مبنيّ بحجارة عاتية جافية على أتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة. وحجارة الهدم متواصلة في جميع أقطار هذا الخراب، وقد بقي في بعضها حيطان ماثلة بتلك الحجارة الجافية وفي بعضها أساس وفي بعضها أطلال، ورأيت عقد باب شاهقاً ركناه حجران فقط وأزججه حجر واحد قد سقط بين يديه، وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم الوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع أصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته فعلمت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات بينها بأن يجعل بين الحجرين ثم يصب عليه الرصاص، وقد تتبعها الانذال المجدودون فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيراً من الحجارة حتى يصلوا إليها ولعمر الله قد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل في الخساسة.

- وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان - إلى الديار المصرية في أيام الحافظ (الخليفة الفاطمي حكم في الفترة من ١١٢٩ إلى ١١٤٩ م) وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال (هوموفق الدين أبوالحجاج يوسف ابن الخلال المصري الكاتب، وكان ممن تدرب على يديه القاضي الفاضل أنظر: وفيات الأعيان ٢١٩/٧). فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا، وما طلبتي، رحب بي وسهل، ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات. فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة. فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته).

وهكذا في الوقت الذي ضعفت فيه الخلافة العباسية حتى أصبحت سلطة الخليفة لا تتعدى حدود بغداد كانت مصر تحت حكم الطولونيين ومن تلاهم من الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، تتسع حدودها إلى اليمن والحجاز والنوبة جنوبا والشام شمالا وبلاد المغرب غربا.

وباستقرار الخلافة الفاطمية في مصر انطلقت اللغة المصرية وتنوعت فنونها الفصيحة معتمدة في ذلك على التراث الفني المصري الشعبي الذي احتوته اللغة المصرية في طورها الرسمي الحديث. فظهرت فنون السير والقصص التي ازدهرت طوال العصور التالية تحت الحكم المملوكي فالعثماني، إلى جانب فنون الموال والزجل والأغاني والعديد. ويجب أن نذكر هنا ملحوظة هامة ألا وهي أن انتشار اللغة المصرية بين أهل البلدان المحيطة بها كان يتم على مستواها الرسمي لا الشعبي ، لأن اللغة لا تستعار

من بلد لآخر ،إلا فى المستوى الرسمى فهو الذى كان يطلبه الشعراء والمثقفون والإدارات الحكومية والرسمية فى تلك البلدان. مع ملاحظة أن البلدان التى يستعير أهلها لغة الأجنبى، كالإنجليزية فى الهند والفرنسية فى بعض مستعمراتها ، يظلون أسرى تطوير هذه اللغة فى بلدها الأصلى حيث يوجد المستوى الشعبى لها ، وهوالمنوط بتطويرها فى مستواها الرسمى . من هذه النقطة بالذات استعار أهالى البلدان المحيطة بمصر لغتها المصرية فى مستواها الرسمى ، بشكل أساسى وإن كان ذلك لم يمنع استعارتهم للعديد من ألفاظ وتراكيب المستوى الشعبى للغة المصرية .

ونعود فنذكر بأن الأصل فى اللغة هى الأصوات أى الكلمات المتفق عليها بين الجماعة فى مدلولاتها ثم تراكيبها النحوية والصرفية، ولكن وصول الإنسان المصرى منذ فجر التاريخ إلى فعل الكتابة وأنماطها كان له أثر عظيم فى حفظ اللغة المصرية وتراثها العلمى والأدبى وتطويرها، وبالتالى فى تقدم البشرية وإرساء حضارتها، ومن هنا ندرك مدى أهمية الكاتب المصرى الذى خلد فى تماثيله العديدة وديوان الإنشاء فيما بعد. فقد ساعدت اللغة المكتوبة على أن تحول الزمن والأحداث إلى تاريخ، والأرض والفضاء إلى جغرافيا، وهذا ما كان ينقص القبايل البدوية العربية قديما وحديثا، الكتابة /التاريخ، الوطن/ الجغرافيا .

مشكلات الألسنة العربية وتدهورها

لم يصل علماء اللغة لتحديد محقق لنشأة الألسنة العربية والفاظها، وذلك فى مقابل المعرفة الدقيقة

[الأصنام]

وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوق الوصف ويتجاوز التقدير وأما اتقان أشكالها وأحكام هيآتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة. فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفاً وثلاثين ذراعاً وكان مداه من جهة اليمين إلى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف إلى الأمام على تلك النسبة، وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر كأنه لم يزده تقادم الأيام الا جدة.

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظمه النظام الطبيعى والتناسب الحقيقى، وأنت تعلم أن كل واحد من الأعضاء الآلية والمتشابهة له فى نفسه مقدار ما وله إلى سائر الأعضاء نسبة ما بذلك المقدار.

وبتلك النسبة تحصل حسن الهيئة وملاحة الصورة فإن اختل شئ من ذلك حدث من القبح بمقدار الخلل. وقد أحكم فى هذه الأصنام هذا النظام أحكاما أى أحكام فمن ذلك مقادير الأعضاء فى نفسها ثم نسب بعضها إلى بعض، فأنك ترى

الصنم قد يبتدئ بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ الصدر فى ارتفاع الترايب إلى الثندوتين [الثديين] فيرتفعان عما دونهما ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان إلى حد الحلمة، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم تنحدر إلى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزر القلب وإلى تجعيد الأضلاع والتوائها كما هو موجود فى الحيوان الحقيقى. ثم ينحدر إلى مقاط الأضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يميناً وشمالاً وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلى الأقراب ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها، ثم الانحدار إلى الثنة والحالبين وعروق الحالب والخروج منه إلى عظمى الوركين، وكذلك تجد انفصال الكتف واتصاله بالعضد ثم بالساعد وانفتال حبل الذراع والكوع والكرسوع وأبرة المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير

لنشأة اللغة المصرية، وإن أجمع أغلبهم على أنها انحدرت من البلدان المحيطة بالجزيرة العربية خاصة من اليمن والحبشة فى الجنوب والأنباط والآراميين فى الشمال والفرس فى الشرق والمصريين فى الغرب، خاصة فى منطقة سيناء حيث كان التجار العرب والأنباط يفدون إلى غزة بصفتها مدينة تجارية كبرى وميناء بحرى يتعامل تجارياً مع السلع المصرية وكل بلدان البحر المتوسط من حيثيين ويونان ورومان وغيرهم، وبالتالى تكتسب ألسنة هذه القبايل العربية العديد من تراكيب اللغة المصرية والفاظها، بل أن بعض فروع هذه القبايل العربية والنبطية استقرت فى غرب مصر لفترات قديمة وخاصة فى سيناء والصحراء الشرقية مثل طىء وبلى وبعض من خزاعة وتأثرت باللغة المصرية، وفى ذلك يوضح د.أحمد مختار عمر فى كتابه "تاريخ اللغة العربية فى مصر" أثر هذه التجارة والاستقرار على الألسنة العربية والنبطية فيقول: (وقد كان نفوذ اللغة المصرية على اللغة العربية كبيراً) حيث واجهوا قوما أكثر منهم حضارة وتقدماً .

والسبب الأساسى لتعدد لغات الجزيرة العربية يعود فى الغالب إلى اتساع أبعادها وعزلة قبايلها بسبب الصحارى المحيطة بهم وخضوعها للمؤثرات الثقافات المحيطة بها. والدليل على ذلك أن كل هذه القبايل بالرغم من أنها كانت تعيش فى ظروف صحراوية متشابهة ويقومون بنفس الأعمال إلا أنها تفرقت فى تسمية نفس الأشياء المحيطة بهم. فلوأخذنا زراعة النخل لوجدنا "الأزد" فى شرق الجزيرة، وأهل عُمان والبحرين واليمامة ينطقون كلمة "الكرب" إذا قطع الجريد عنه، فبقيت له أطراف طوال:

"القذف". أما أهل المدينة فى شمال غرب الجزيرة فينطقوه "الكرانيف". أما السعفات فينطقها أهل نجد "الخوافى" ويسميها أهل الحجاز "العواهن"، أما الطلع فى البصرة فهو "العذق" وينطقها أهل الحجاز "الكافور" و "الأغريض". كما تختلف هذه القبايل فى أسم التمر، فأهل اليمن وطىء ينطقوه "رمخ"، وفى المدينة هو "السَّدى"، وفى وادى القرى هو "السياب"، وأهل البصرة يقولوها "الخلال". أما اسم مخزن التمر فهو "الحظيرة" و "المسطح" و "الجرين" فى نجد والحجاز.

وبالإضافة للسبب السابق الذى أدى إلى احتشاد عدد هائل من الألفاظ ذات المعانى المختلفة، أو المترادفة لنفس الشئ، فى ألسنة هذه القبائل، اتضحت عندما جمعت فى القواميس، فقد ظهرت مشكلة غريبة تسمى بظاهرة التضاد وهى أن بعض ألفاظ هذه الألسنة كانت ذات معنى فى قبيلة ونقيضها فى قبيلة أخرى، مثال ذلك ما نرصده هنا من كتاب "الأضداد فى كلام العرب" لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى المتوفى عام ٣٥١هـ تحقيق د.عزة حسين، نشره المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٣:

الآدم= الأبيض والأسود. المأتم= تجمّع الفرح وتجّمع الحزن. البسل= الحلال والحرام. البيّع= البيع والشراء. البثر= القليل والوفير. البينُ= الافتراق والاتصال. بعْد= المتأخر والمتقدم. التربُ= الفقير والغنى. الثمُ= فعل القتل وفعل الخير. الثلةُ=القليل والكثير. جللُ= عظيم وهين. الجربةُ= الضعيف والقوى. الجون= الأبيض والأسود. الجعدُ= البخيل والسخى. الجمهرةُ= الكثير والقليل. الجميمُ= البارد والحار.

ذلك مما يطول شرحه.

وقد صور كف بعضها قابضاً به على عمود قطره شبر كأنه كتاب المكس وصورت الغضون والأسارير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عندما يقبض الإنسان كفه، وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله وأتم ما فى المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق إلا صورة اللحم والدم، وكذلك صورة الأذن وحتارها وتعاريجها على غاية التمثيل والتخييل.

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جداً وقد حفظ فيهما النظام الطبيعى والتناسب الحيوانى مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقى جداً جداً وقد تكسرا وردما بالتراب.

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاول الشكل ومقداره نصف الأجر الكسروى [الفارسى] بالعراق. كما أن طوب مصر اليوم نصف أجر العراق اليوم أيضاً.

وإذا رأى اللبيب هذه الآثار

الحضارة= البادية والحضر. حرس الشئ= حفظه وسرقه.الحنيف= الساعى للخير والساعى للشر. الدائم= الساكن والمتحرك. دونك= خلفك وأمامك. دعك= طويل وقصير. الذفر=الريح الطيبة والريح المنتنة. الرهو= الارتفاع والانخفاض. الرسُ= الإصلاح والإفساد. السدف= الظلمة والضوء. السليم= الملدوغ والسالم. السر= الخفى والعلن. المسجور= المملوء والفارغ. شام سيفه= إذا سله أو أغمده. الشوهاء=القبيحة والجميلة. الشفيف= شدة الحر وشدة البرد. المشيب= العجوز والشباب. الضدّ= المثل والمخالف. ضاع= اختفى وظهر. عسعس= أقبل وأدبر.
وغير ذلك كثير من ألفاظ التضاد التى سوف تغربله لغتنا المصرية لتستوعب بعضها وتلفظ الآخر وحتى ما ستختاره سوف تدخل عليه تعديلاتها حتى يستقر فى سياقها سواء من ناحية الصوتيات أو القواعد أو استقرار هذه الألفاظ على معان محددة لا تقبل تضادها وتستبعدها من تراث كتابتها.

فشل محاولات المستعربين لصنع قواعد صرفية ونحوية للألسنة العربية

وعندما قامت محاولات عديدة وشاقة لجمع مفردات وألفاظ الألسنة العربية من بين القبايل العربية من أجل التعرف على قاموس للسان العرب، ظهرت عدة مشاكل أمام النحاة العروبيين كان أهمها، ليس فقط اختلاف مدلولات ألفاظهم، بل وتضادها كما أوضحنا فى الأمثلة السابقة.
وأضف لذلك اللفظة التى تدل على ستة معان فسبعة فثمانى فتسعة إلى خمسة وعشرين معنى

عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم. وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الإنسان ومقاديرها ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض، فإن النصف الأسفل من الأنسان أعظم من النصف الأعلى منه أعنى التنور بمقدار معلوم، بخلاف سائر الحيوان. والإنسان معتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده إلى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناسن والسلاميات حافظة للنظام فى مقاديرها ونسب بعضها إلى بعض وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كانخفاض اليافوخ عن

كالحميم والفن والوطيس، ومنها ما يزيد على ذلك مثل العين (٣٥ معنى) والعجوز (٦٠ معنى) الخ .. والمهم فى هذا الصدد أن علماء اللغة المحدثون يرون أن التفكير كلما دق فى تمثيله وتصويره أحكم اختيار الألفاظ، أما هذه المترادفات فإلى جانب دلالتها على التشتت وتعدد المصادر فأنه دليل على أن التفكير غير صارم فى وضوحه ويؤدى إلى خلافات عديدة، فالوضوح لا يقبل كلمتين لمعنى واحد، واللغة، فى أحد مفاهيمها، انعكاس للحياة، والحياة لا تبذخ .. كل شىء يأتى فى مركزه المحتوم، ناهيك عن مأساة ألفاظ التضاد.

من هنا كذلك نلاحظ أن السنة العرب تلفيقية تفتقد قدرات الربط الدقيق بين مفرداتها خاصة فى الجمل الوصفية، فتأتى جملها غير واقعية تتسم بالإطلاق دون مراعاة لمنطق التحولات، فهى تقول (الرجل شجاع) وهى جملة تفيد الإخبار الثابت المؤكد دون حاجة إلى التصريح بوجود علاقة ما نطقا أو كتابة، فالمسند والمسند إليه دون رابطة ودون فعل الكينونة أو أى رمز آخر من رموز اللغة أوأمر من أمور الحس، بينما نجد فعل الكينونة etre فى الفرنسية وto be فى الإنجليزية يربط بين المسند والمسند إليه ومن شأنها أن تربط بين (الموضوع) و(المحمول) إثباتا أو نفيا أو سلبا، صدقا أ وكذبا، فتصبح صياغة الجملة عندهم (الرجل يكون شجاع) أو(الرجل كان شجاع) أو(الرجل هو شجاع) ذلك أن اللغات الأوربية الحديثة تقوم على التماس شهادة خارجية حسية لكل قضية عقل، فمصدر اليقين أو التكذيب هو مدى مطابقة ما فى العقل لما هو خارج العقل.

ذروة الراس ونتوءه عما دونه وامتداد الجبهة والجبينين وتطامن الصدغين ونتوء عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف ولين المارن وانفراج المنخرين وامتداد الوترة ودقة الشفتين واستدارة الحنك وانخراط الفكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل. وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا فى المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له يدل على أن القوم كان لهم حذاقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها، وأن جميع ما أدركوه وأن جل فهو حقير تافه بالقياس إلى الأمر الحقيقى المطبوع وإنما يستعظم ما عرفه الإنسان منه بالقياس إلى ضعف قوته وبالقياس إلى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه، كما يتعجب من النملة إذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل إذا حمل قناطير. وهذا نص كلامه باصلاحى قال: من العجب أن نستحب علم أحكام التصاوير وعمل الأصنام وإفراغها ونتبين حكمته ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة

ولاسيما إذا قوينا على معرفة عللها.
وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب. ومنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففي رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر. ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المال. ومنها أنها تدل على شئ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم، وغير ذلك كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه، وأما في زمننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا هملا وفوضت إليهم شئونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرئ منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو إليه هواه. فلما رأوا آثارها الهائلة راعهم منظرها وظنوا السوء بمخبرها وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء في قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل:

وكمثال على هذا ننظر إلى حديث الخليفة المعتصم مع أشناس التركى ، القيم على السلاح، الذى أحضر له كلبا للصيد فرده عليه الخليفة حين اكتشف أنه غير جيد وكان يعرج، فاعترض أشناس قائلا :

الكلب أخذت جيد
مكسور رجل جبت
رد جيد كما
كلب كنت أخذت .

وأجابه الخليفة قائلا :

الكلب كان يعرج
يوم الذى به بعثت
لو كان جاء مجبر
أجبر رجل كلب أنت .

ولعل ذلك الحديث يعطينا فكرة عن حال عربية العصر العباسى الذى يعد من أزهى العصور الإسلامية العربية. وما قدمه النحاة الفارسيين أمثال سيبويه وغيره فى ظل هذه الخلافة، من محاولات فاشلة لنظم الألسنة العربية فى بعض قواعد اللغة الفارسية التى لم يعرفوا سواها، وكان هذا الفشل عائدا إلى ضعف قدرات اللغة الفارسية على استيعاب الألسنة العربية المختلفة، مما أدى إلى العديد من المشاكل اللغوية فى الألسنة العربية التى حاول النحاة العروبيون المتأثرون بقواعد اللغة الفارسية أن يعالجوها فيما بعد دون جدوى. وهذا ما يحاوله النحاة العروبيون الجدد فى وقتنا الحالى لكى يعودوا بنا إلى هذه المشاكل القديمة

التى لم تحل وهم أنفسهم لا يملكون لها حلا.
من هذه المشاكل أن هناك منطق لسانى غريب تختص به العربية فيما تعرفه بظاهرة الإعلال، فالإعلال عندهم هو نسبة إلى حروف العلة التى هى حروف المد (الواو، الياء، الألف) وألحقوا بها الهمزة، بينما علم الألسنية يرى أنها مصوتات لا فرق بينها وبين الضمة والكسرة والفتحة إلا بطول المدى الزمنى فى الأولى وقصرها فى الثانية، إلا أن النحاة العروبيين قد اعتبروا الضمة والكسرة والفتحة حركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية فعاملوها غير معاملة حروف العلة مما أدى بهم إلى استنباط قواعد غير دقيقة.
ثم ما معنى القول بأن الفعل الماضى مبنى على الفتح أو السكون؟ .. أو أن الفعل المضارع مرفوع بالضمة أو منصوب بالفتحة؟. إن فكرة البناء أو الإعراب فى الأفعال لا تشير إلى وظيفة تؤديها هذه الحركات، وإن قول النحاة العروبيون بأن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح .. لأن الإعراب يعنى الرفع أو النصب أو الجر، والفعل المضارع لا يقع مجرورا أبدا ولا يكون منونا، كما أن الأعراب والبناء صفتان فقط للأسماء دون الأفعال.

فشل الترقيع بإضافة الإعراب إلى الألسنة العربية

وبالرغم من ذلك نرى اليوم أحد العروبيين فى مصر وهو الدكتور شوقى ضيف يقول فى كتابه (تحريفات العامية للفصحى) الصادر عن دار المعارف فى ص١٣: إن جريمة إهمال الإعراب

وكل شئ رآه ظنه قدحا
وأن رأى ظل شخص ظنه الساقى

فهم يحسبون كل عَلَم يلوح لهم أنه عَلَمٌ على مطلب، وكل شق مفطور فى جبل أنه يفضى إلى كنز، وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه وهو مهلك عليه، فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر، ويسربون فى فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها.
وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفا ومنها ما يدخل سحبا على الوجوه ومنها مضايق لا ينسحب فيها ألا الضرب الضئيل وأكثر ذلك أنما هو فطور طبيعية فى الجبال.
ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك، ومن كان فقيرا قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بإيمان يحلفها له وعلوم يزعم أنه أستأثر بها، دونه

علامات يدعي أنه شاهدها، حتى يخسر ذلك عقله وماله. وما أقبح بعد ذلك مآله.

ومما يقوى أطماعهم ويديم إصرارهم أنهم يجدون نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب [الكتان] لعله يكون على الميت منا زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والأصبع في قمط دقاق ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم. ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فما وجد فيه تماسكا أتخذه ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين. ويوجد بعض موتاهم في توابيت من خشب الجميز ثخين ويوجد بعضهم في نواويس من حجارة إما رخام وإما صوان وبعضهم في أزيار مملوءة عسلا، وخبرتي الثقة أنهم بينما كانوا يتفقدون المطالب عند الأهرام صادفوا دنا مختوما ففضوه فإذا فيه

فى مصر وصل إلى حد أن ابن برى العالم اللغوى الطائر الصيت المتوفى سنة ٥٨٢ هـ (أى فى القرن ١٢م) عرف بإهماله للإعراب، وكذلك الشاعر ابن سناء الملك فى كتابه (دار الطراز) الذى يقول فى موشحه السادس: "فرجعت خايب .. حين فر هارب"، وفى الموشح ١٨: "غزالا فاتر الأجفان فاتن"، وفى الموشح ٢١: "قولا صحيح"، وفى الموشح ٢٣: "كنت غادر .. طرفا فاتر.. سيفا باتر"، وفى الموشح ٢٤: "ما أرانى راضى"، وفى الموشح ٢٥: "لم أكن ذاهل .. لم أكن قاتل".

وهكذا نرى مدى العبث فى تعليم أولادنا قواعد لغوية بالية تجعل من علم النحو أصعب العلوم وأبغضها إلى نفسه وذهنه الجديد. فالمقصود أولاً وأخيراً من تعلم النحو هو تعلم صياغة الكلام بدلاً من أن نتعلم متاهات نحوية متناقضة بالية تفقدنا القدرة على الكلام المنطقى والعلمى، وتضعنا فى مصاف أربعة أخماس حملة الدكتوراه والليسانس فى جامعاتنا ومشعوذى مجامع ما يسمى باللغة العربية ومصفقى الجمعيات التى تدعى المحافظة على اللغة العربية (كذا) الذين يحاولون التشبث بقواعد أكل الزمان عليها وشرب.

ولننظر الآن إلى بعض أمراض هذه القواعد. لقد رأى الصرفيون العروبيون أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها إلى أصول ثلاثة.. فأتوا بما يسمى بالميزان الصرفى ووضعوا وزن (فعل) ليشتقوا

منــه بقيــة الأوزان وسـموا الصــامت الأول (فــاء الفعل) والثانى (عينه) والثالث (لامـه)، نسبة إلـى صوامت (فعل). وهم بذلك قد اهتموا بالصـوامت دون المصـوتات التـى اعتبروهـا معتلـة لا تثبـت على حال ولا يمكن الركون إليها، وبدءوا يزنـون الأفعال من مجردة ومزيدة، ولكنهم ما أن وصلوا إلى الفعل المعتل (أى ما كان فيه حرف علـة) لم يستجب الـوزن لهـذه الحالـة، إذ أن وزن (قـال) لايمكن أن يكون (فعل). لذلك كان لابد من اللجوء إلـى الزعم والافتراض فـأتوا بأصـلين مزعـومين هما (قول) و(بيع) لأن المصوت الثانى فى (قول) هو الواو وفى (بيع) هو الياء، ورأوا أن يقلبوا كلا منهما إلى (ألف) إذا تحركتا وانفتح ما قبلهمـا، أى أن (قول) تصبح (قال) و(بيع) تصبح (باع) دون أن يظهـروا لمـاذا تنقلـب (الـواو) و(اليـاء) إلــى (ألـف)، مـع أن مخـرج كـل مـن (الـواو) و(اليـاء) و(الألف) مختلف عن مخـرج الآخـر، كمـا أن أى تغير فـى الدال يلزم أن يتبعـه تغيـر فـى المدلول. ومع هذا فقد أوقعهم ذلك فى تعقيدات لا حصـر لهـا حيـث واجهـوا كلمـات لا يمكـن أن تنقلـب فيهـا (الواو) أو (الياء) إلى (الألف)، فراحوا يحصونَها ويضـعون لهـا الشـروط حتـى بلـغ عـددها عشـرة شروط مما يجعل مسألة الإعلال من أعقد مسائل الصرف العروبى.

ثم أن الألسنة العربية تصر علـى أن تنفرد بنسيج خاص إذا حاد اللفظ عنـه صـار غيـر عربـى وهـى بـذلك قـد وضـعت كثيـرا مـن العراقيـل فـى سـبيل تطورهـا، فالصـاد لا تجتمـع مـع الجيم فـى كلمـة، كذلك النـون قبـل الـراء، الـزاى بعـد الـدال، البـاء والسين والـذال وغيرهـا، كمـا أنـه لابـد مـن تـوفر حـرف مـن حـروف الذلاقـة (م ن ع ل ب ف) فـى

عسل، فأكلوا منه فعلق فـى أصبع أحدهم شـعر فجذبـه فظهـر لهـم صـبى صـغير متماسـك الأعضـاء رطـب البدن عليه شئ من الحلى والجوهر. وهؤلاء الموتى قـد يوجـد علـى جبـاههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر، وقد يوجد منــه أيضــا علــى فــرج المـرأة، وربمـا وجـد قشـر مـن الـذهب علـى جميـع الميت كالغشاء وربمـا وجـد عنــده شــيء مــن الــذهب والحلـى والجـوهر، وربمـا وجـد عنـده آلتـه التـى كـان يزاول بها العمل فى حياته. وخبرنى الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين مسنا وموسـى وعنـد آخـر آلـة الحجـام وعنـد آخـر آلـة الحائك ويظهر من حـالهم أنـه قـد كـان مـن سـنتهم أن يـدفنوا الرجـل مـع آلتـه وماله.

وسـمعت أن طوائـف مـن الحبشــة هــذه ســنتهم ويتطيرون بمتاع الميت أن يمسـوه أو يتصـرفوا فيـه، وكـان لنـا قريـب دخـل الحبشـة وأكتسـب مـالا منـه مـائتى أوقيـة مـن الـذهب، وأنه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فأخذه ممتنا عليهم.

وقـد كـان مـن سـنتهم والله

أعلم أن يجعل مع الميت شئ من الذهب، فخبرني بعض قضاة بوصير وهي مجاورة لمدافنهم أنهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع، وفي فيه كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاثة فكان وزنها تسعة مثاقيل، والحكايات في ذلك أوسع من أن يحصرها هذا الكتاب.

وأما ما يوجد في أجوافهم وادمغتهم من الشئ الذي يسمونه موميا فكثير جدا، يجلبه أهل الريف إلى المدينة ويباع بالشئ النزر ولقد أشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصري. وأراني بائعه جولقا مملوءا من ذلك وكان فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ورايته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه، ورأيت أيضا على قحف الرأس أثر ثوب الكفن وأثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع إذا ختمت به على ثوب. وهذا المومياء هو أسود كالقار ورأيته إذا اشتد عليه حر الصيف يجري ويلصق بما يدنو منه.

الرباعي والخماسي.. ونرى ابراهيم أنيس يقول في كتابه " دلالة الألفاظ ": (وبذلك تخيرت العربية مجموعات صوتية محدودة هي التي اختصتها بالدلالة وأهملت الكثرة الغالبة).

من أسباب استقرار اللغة المصرية وفشل الألسنة العربية

وهنا يجب أن نتساءل عن أسباب استقرار اللغة المصرية وفشل اللسان العربي في مجال نوع الجملة بالذات ؟..
إذا رجعنا لحقبة سابقة من الزمن قبل الغزو العربي سنجد أن المصريين كانوا يعيشون في مجتمعهم الزراعي وقد وجدوا أنفسهم يقدمون الفاعل عن الفعل ويستبدلون بأسماء الإشارة أسماء تحديد وغيرها من النظم الخاصة بتركيب لغتهم المناسبة للتعبير عن واقع حياتهم الموضوعية الخاصة.. وأن المجتمع الزراعي يمثل حياة تحمل في طياتها الانتقال من الاحتياجات العامة إلى الخاصة.. ومن التعبير عن العواطف والأفكار القبلية إلى العواطف والأفكار الفردية، فيبرز كيان الفرد ويتميز كل فرد بفعله إلى جوار حريته في التعبير عن شخصه وشخصيته.. وأنه في ذلك المجتمع الزراعي، حيث تتضح سيطرة الإنسان على الطبيعة وتتكاثر الأفعال وتكتسب الشخصية الفردية التحديد والبروز لأنه من آليات حرفة الزراعة تقسيم العمل وتنظيم الأفعال وتوزيع الأدوار فيكون بالتالي من المعروف نسبة كل فعل إلى فاعله وهكذا يكون من ضرورات التعبير في هذه الظروف أن يسبق الفاعل فعله وأن يأتي الفعل

منسوبا إليه. ثم أن بروز الشخصية الفردية وتعدد الأفعال وقيام العمل على المجهود الفردى وتوزيع الأعمال والمسئوليات هو الأساس فى قيام اللغة المصرية بالاستعانة بأسماء التحديد.. (الراجل دا هوه العمدة) (البنت دى حلبت البقرة) (الفلاحين دول حولوا الميه).
وفى الحقبة نفسها من الزمن كانت القبايل العربية تعيش فى مجتمعهم القبلى وقد وجدوا أنفسهم يرفعون الفاعل وينصبون المفعول ويقدمون أسم الإشارة عن المشار إليه، وتأنيث جمع المذكر مثال ذلك " جاءت السيارة " و" قالت الأعراب " و" المهاجرة " بدلا من المهاجرين. إلى جانب العديد من النظم الخاصة بتراكيب لسانهم الملائمة للتعبير عن شروط حياتهم الموضوعية الخاصة، مثل وضع الصفة بعد الموصوف، فنحن نقول "طيّب الرائحة" عكس العربية التى تقول "رائحته طيبة "، ونقول " حسن الحظ " بدلاً من " حظ حسن " و" ضيِّق اليد " بدلاً من " يده ضيقة ".
وأن عرفنا أنه من طبيعة الحياة البدوية القبلية، حتى فى مرحلة التجارة الأكثر تقدما، أن تكبح التعبير عن النوازع الفردية، حيث لا يستمد الأفراد وجودهم إلا من معنويات القبيلة وشخصيتها، فيصبح الفرد جزءا من القبيلة يعمم أفكاره ويعمم مشاعره وآراءه. وأنه فى مثل هذا المجتمع، حيث تمتد الصحراء رملية قاسية مقفرة، لابد أن يقل أثر الإنسان على الطبيعة وأن يتخذ الفعل عليها أهمية كبرى.. وأن يتضح الفعل قبل اتضاح فاعله.. فتظهر آثار الأقدام قبل ظهور فاعلها.. ويتعالى دخان النار قبل معرفة مشعلها.. ويمتلىء الأفق بالغبار قبل قدوم من أثاره.. ربما

وأما الموميا بالحقيقى فشئ ينحدر من رءوس الجبال مع المياه ثم يجمد كالقار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط بقفر. وقال جالينوس الموميا يخرج من العيون كالقار والنفط. وقال غيره هو صنف من القار ويسمى حيض الجبال، وهذا الذى يوجد فى تجاويف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وأن يستعمل بدله إذا تعذر. ومن أعجب ما يوجد فى مدافنهم أصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات، وقد كفن الواحد منها فى كذا وكذا ثوبا وهو محتاط عليه محتفظ به، وخبرنى الثقة أنهم وجدوا بيتاً تحت الأرض محكماً ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تقمطت فأزالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها عجلاً صحيحاً قد أحكم تقميطه. وحدثنى آخر أنهم وجدوا صقراً فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوه لم تسقط منه ريشة، وحكى لى مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه ويهجن ذكره.
وحكى لى الأمين الصادق

أنه كان بقوص[1] فجاء إليه من يبحث عن المطالب فذكروا له أنهم انخسفت بهم هوة موهمة أن فيها دفينا فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا فوجدوا زيراً كبيراً موثق الرأس بالجص، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالأصابع مكفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صيرا وهم سمك صغار وقد صار كالهباء إذا نفخ طار فنقلوا الزير إلى مدينة قوص بين يدى الوالى واجتمع عليه نحو مائة رجل فحلوا الجميع حتى أتوا على آخره وهو كله صير مكفن ليس فيه سوى ذلك.

ورأيت أنا بعد ذلك فى مدافنهم ببوصير من العجايب ما لا يفى به هذا الكتاب، فمن ذلك انى وجدت فى هذه المدافن مغائر تحت الأرض مبنية بإتقان وفيها رمم مكفنة، وفى كل مغارة عدد لا يحصى [منها] ومن المغائر ما هو مملوء برمم الكلاب، ومنها ما هو مملوء برمم البقر، ومنها ما فيه رمم السنانير والجميع مكفن بخرق القنب ورأيت شيئاً من عظام بنى أدم وقد تمشق

كان ذلك من أسباب تقدم الفعل عن الفاعل لأنه الأسبق إلى التواجد. وقد يفسر لنا ذلك أيضا.. لماذا احتاجت الألسنة العربية إلى بناء بعض الأفعال للمجهول وإسنادها إلى نائب فاعل.. بينما تكاد اللغة المصرية تخلوا منه، فندرة فعل الإنسان فى البيئة الصحراوية، وحتى فى مرحلة التجارة المحدودة، وتضاؤل نتاجه وتواجد آثار أفعال تفتقر إلى فاعل معروف هى سبب وجود الأفعال المبنية للمجهول. بينما يلمس الإنسان فى البيئة الزراعية مدى قدرته على تنظيم الرى وتخصيب الأرض وإنبات الزرع ومشاهدة نتاج أفعاله، خاصة وأن فعل الزراعة هو محصلة نشاط بشرى يغلب عليه الطابع الفردى من حرث وبذر وحصاد، فوراء كل فعل ظاهر فاعل معلوم فى أغلب الأحيان.

ويهمنا هنا أن نعرف أثر نظام النحو والصرف فى تاريخ البشرية، فكل لهجة أو لغة لابد أن يكون لها نظام للنحو والصرف وإلا استحال أن يتم التفاهم بين أفراد المجتمع الواحد، فالنحو هو الذى يقيم العلاقات بين الكلمات ويحدد وظيفتها فى كل جملة بما يجعل الجملة فى النهاية حاملة للفكرة مبرزة لها، ولو لم يوجد نظام للنحو فى اللغات الأولى على أى وجه من الوجوه للحقت البشرية بالديناصورات وانقرضت من فوق الأرض، فما حفظ بقاء الإنسان حيا إلى اليوم إلا أنه قد نجح فى أن ينتج وينقل أفكاره واضحة إلى الآخرين مما ساعدهم على التجمع والتعاون والعمل والإنتاج والسيطرة على فوضى الطبيعة ووضعها فى منظومة تسمح بتسخيرها لنفعهم، والتكتل لمقاومة عوامل الفناء والانقراض المتعددة من حولهم.

أن نظام النحو والصرف المصرى مازال فى معظمه وما تطور عنه الأساس الذى تتشكل عليه لغتنا الحالية، أما ذلك الاختلاف بين لغتنا المصرية واللسان العربى فيعود إلى اختلاف البيئة والثقافة فى كل من المجتمعين وتباين شروط الحياة المادية فى كل منهما .

فنحن مثلا فى لغتنا المنطوقة لا نستعمل أسماء الإشارة العربية.. *هذا وهذه وهذان وهذين وهاتان وهاتين وهؤلاء* فلا نقول (*هذا الولد*) و(*هذه البنت*) *بل نقول (الولد دا) و(البنت دى)*. ثم أننا مع المثنى المذكر والمؤنث وكذلك مع الجمع المذكر والمؤنث نتعامل باسم واحد هو (*دول*) *فنقول (الولدين دول) و(البنتين دول) و (الأولاد دول) و(البنات دول)* وأن أسماء التحديد ثلاثة فقط هى (*دا*) و(*دى*) و (*دول*) وهى لا تسبق الاسم بل تأتى بعده .. فاللغة المصرية القديمة لا تتعامل بأية أسماء للإشارة بل تتعامل بأسماء التحديد.. ولا يختلف اسم التحديد باختلاف المحدد أو وضعه فى الجملة فتتغير بنيته بالنصب أو الرفع أو غيره.. وأن هذا النظام الذى نتعامل به فى لغتنا المنطوقة الحالية هو نفسه نظام لغتنا المصرية القديمة.

وإذا كنا فى الاسم الموصول لا نستعمل (*الذى*) و(*التى*) و(*اللذان*) و(*اللذين*) و(*اللتان*) *أو* (*اللتين*) و(*الذين*) و(*اللاتى*) .. الخ ونستعيض عنها جميعا باسم موصول واحد فقط هو (*اللى*) فذلك راجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يستعملون اسما واحدا للموصول فى جميع الحالات مثلما نفعل الآن تماما, إلى جانب استخداماتها العديدة فى أمثالنا مثل: "اللى أوله شرط آخره نور" و"اللى اختشوا ماتوا" و"اللى تسكر به افطر به" و"اللى

<u>حتى صار كالليف الأبيض لقدمه.</u>
<u>ومع ذلك فأكثر الرمم التى رأيتها صلبة متماسكة جداً يظهر عليها من الطراءة أكثر من رمم الهالكين سنة سبع و تسعين و خمسمايه الآتى ذكرها آخر كتابنا هذا، ولا سيما ما كان من الرمم القديمة قد انصبغ بالزفت والقطران فإنك تجدها فى لون الحديد وصلابته ورزانته. ورأيت من جماجم البقر ما شاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤس المعز والضأن وبين رؤوس البقر والثيران، ووجدت لحم البقر قد التصق بالأكفان حتى صار قطعة واحدة حمراء تقرب إلى السواد، ويخرج العظم من تحتها أبيض وبعض العظام أحمر وبعضها أسود وكذلك فى عظام الآدمى ولاشك أن الأكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يكفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغته فأحمر وأسود. ووجدت فى عدة مواضع تلالاً من رمم الكلاب لعله يكون فى جملتها مائة ألف رأس كلب أو يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب</u>

فإن جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور وأخذ ما سنح لهم من الخشب والخرق وغيره.
واستقريت جميع المواضع المحكمة فلم أجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقي ذلك في نفسي.
فسألت مشايخ بوصير فبادروا إلى إخباري بأنهم قد تقدمت فكرتهم في ذلك واستقراؤهم إياه فلم يجدوه.
وأكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوي الصلب ومنه ما صار في درجة الرماد وخبرني قضاة بوصير بعجائب منها أنهم وجدوا ناووساً من حجر ففضوه فلقوا فيه ناووسا ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهي سام ابرص مكفنة محتاطاً عليها معنياً بها.
ووجدنا عند بوصير أهراماً كثيرة منها هرم قد انهدم وبقي قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمي الجيزة.
[وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابي وبغيرها].
وأعلم أن الأهرام لم أجد لها ذكراً في التوراة ولا في غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها، وإنما قال

تصاحبه ما تقابحه" و"اللى تجمعه النملة فى سنة ياخده الجمل فى خفه" و"اللى تغلب به العب به".
أما المعرف بالنداء فهو يقتصر فى لغتنا على المفرد المذكر والمؤنث ثم الجمع بنوعيه.. نقول *(يا ولد) (يا بنت)* (يا أولاد) (يا بنات) لا غير .. ولا يوجد معرف بالنداء للمثنى .. مذكرا كان أو مؤنثا .. فنحن لا نقول (يا ولدين) و(يا بنتين) بل ننادى عليهما (يا أولاد) و(يا بنات).
وفى الضمائر يذكر أنه لا يفرق بين الجمع المؤنث أو الجمع المذكر *فيقال (هم فى البيت)* للدلالة على الجمعين، كما لا توجد ضمائر للمثنى الذى يعامل دائما معاملة الجمع فى اللغة المصرية القديمة كما هى الحال فى لغتنا الحالية.
وتجدر ملاحظة أن جميع اللغات الحديثة الحية قد ألغت صيغة المثنى منها نهائيا مما يؤكد حيوية اللغة المصرية قديما وحديثا ومواكبتها لتطور الحياة.

وننتقل إلى مزيد من من الإثباتات التى تؤكد استمرارية اللغة المصرية وتطورها عبر التاريخ فى الوقت الذى انحسر فيه اللسان العربى، ففى الوقت الذى يلزم فيه السان العربى كل فعل بأن يتقدم جملته.. فتغلب عليه صيغة الجملة الفعلية، فأن اللغة المصرية تبدأ بالفاعل قبل الفعل فتغلب عليها الجمل الأسمية.. (جاء الولد) فى العربية تقابلها (الولد جا) فى اللغة المصرية.. ونكتشف أن ذلك من أهم خواص اللغة المصرية.
ولعل أهم ما طورته اللغة المصرية على ما تتعامل به من أفعال هو زمن جديد لفعل يمثل الاستمرار continuous tense وذلك بإضافة حرف بسيط وهو (الباء) إلى الفعل المضارع،

واستعمال كان أو مشتقاتها للتعبير عن فعل الاستمرار فى الماضى.. كما فى *(يشرب) (بيشرب)* و*(كان بيشرب)*.

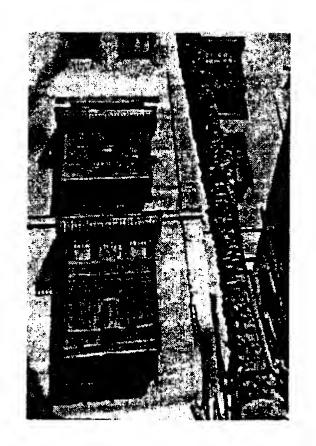
من كل ما سبق نلاحظ فشل النحاة الفارسيين والعروبيين (القدماء والمحدثين) فى حل مشكلات الألسنة العربية، وهذا ما نجحت فيه اللغة المصرية التى انتخبت من هذه الألسنة العربية بعض الفاظها وأسكنتها فى داخل قواعدها الصوتية والصرفية الخ إلى جانب العديد من الألفاظ الأجنبية الأخرى التى استوعبتها فى نفس هذه القواعد. فاللغة المصرية منذ القدم كانت كانت ذات تأثير واسع وصاحبة فضل ثقافى كبير على الجزيرة العربية، وهذا ما جعل اللغة المصرية الأكثر انتشارا فى المناطق المحيطة بها، تلك المناطق التى كانت تتكلم ألسنة متعددة لا جامع بينها، وذلك بفضل المؤسسات اللغوية المصرية ذات التراث التاريخى العريق مثل دواوين الإنشاء والبعثات التعليمية المصرية التى نشرت لغتنا المصرية فى المناطق والبلدان المحيطة بنا.

كيف مصرت لغتنا بعض مفردات الألسنة العربية

لأن الألسنة العربية حين وفدت لم تدخل صراعا مع كلمات مصرية تماثلها فى الدلالة والمعنى والوظيفة فقد كان المجتمعان مختلفين فى ظروف الحياة وطبيعة العمل والإنتاج، أحدهما مجتمع رعى وترحال والآخر مجتمع زراعة واستقرار، فقد كتبت الغلبة للكلمات المصرية المعبرة عن دلالات ومعانى ووظايف لا تتوفر فى الألسنة العربية.

فى أثناء قوله فى السياسة كما كان من سنة المصريين البناء. وللإسكندر الأفروديسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشئ من أخبار القبط، وأما جالينوس فرأيته ذكر الأهرام فى موضع واحد وجعله من هرم الشيخوخة. وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقراط فمن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر فإن أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة. هذا معنى قوله، وقال فى كتاب عمل التشريح فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيأتها فينبغى له أن يقصد اسكندريا ويشاهد موتى القدماء".

وهكذا يكون للمصريين مفرداتهم الخاصة، وإن كان بعضها من اللسان العربى فأنها قد تمصرت بالاستعمال الطويل والمرور المضطرد عبر وجدان الشعب المصرى من جيل إلى جيل وتعرضت خلال الزمن إلى عوامل الحذف والإضافة والنحت والتبديل والاشتقاق والترجمة وغيرها نتيجة لتوظيفها فى احتياجات الشعب المصرى التعبيرية وتكيفها مع الحياة المصرية ونموها وتطورها فاختفت مثلا أصوات المد القصيرة من أواخر الكلمات كعلامات الإعراب وحركات البناء الدالة على وظايف الكلمات فى الجملة كرفع الفاعل ونصب المفعول وغيرهما، وتم الاستعاضة عنها بتسكين أواخر الكلمات جميعا بدون استثناء. فانطبعت بخصائص الجماعة المصرية العقلية والنفسية واللسانية.



على أن قيام المصريين بتمصير الكلمات التى أخذوها من العربية كان ضرورة لا مفر منها فى ظل احتلال العرب لمصر، وفى نفس الوقت حتى تستقر هذه الكلمات مستريحة غير نابية إلى جوار الكلمات المصرية فى الجمل المصرية وفقا لنظام النحو والصرف المصرى. استمرت حالة التمصير هذه خلال سبعة قرون بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين على وجه التقريب كانت لغتنا المصرية قد استقرت تماما وصارت هى لغة الأدب والدواوين والعلوم والفنون، وبهذه اللغة كتبت معظم أعمالنا التاريخية من أمثال كتابات المقريزى وابن إياس وساويرس ابن المقفع وابن مماتى وكوكبة كبيرة من الشعراء وكلها ذات قيمة كبيرة بالنظر إلى تاريخ اللغة المصرية، إذ فيها نجد النصوص الأولى للمصرية الحديثة والحالية فى صورة

متماسكة ومتكاملة. وقد تنبه أحمد رشدى صالح إلى هذه الحقيقة عندما قال فى كتابه "الأدب الشعبى": (والأمر اللافت للنظر حقا أن كثرة الأعمال الأدبية الكبيرة، كألف ليلة وليلة والسير الشعبية ومسرحيات خيال الضل وبعض دواوين الشعر، قد تمت أواخر تلك القرون أو الفترة التالية لها، مما يحمل على الظن بأن الأدب المصرى الحديث قد بدأ قبل ذلك بفترة ليست قصيرة، فليس يستطاع إنشاء العمل الأدبى الكبير بلغة من اللغات إلا وتكون أعمال أخرى كثيرة أقل منه تركيبا قد سبقته إلى الوجود).



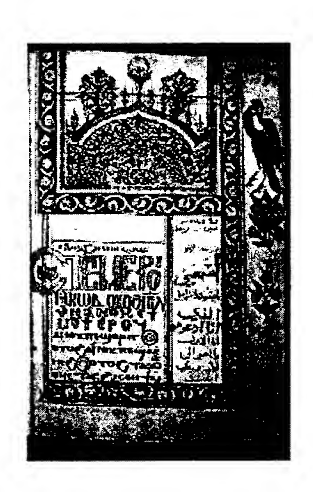
وتؤثر لغة الحياة السريعة المباشرة فى النظام الصرفى مدفوعة بالحاجة إلى التوحيد.. وذلك بتحويل كثير من الكلمات إلى صيغ متشابهة مما يفضى إلى إقصاء العناصر الصرفية الثقيلة النطق أو غير المتداولة أو المشتتة للذهن وخلق عناصر جديدة تفرضها الحاجة إلى تركيز شديد دال وتعبير جديد أو انسجام صوتى فى الاستعمال.. وغالبا ما يتم هذا التوحيد عن طريق القياس لأن قانون الاقتصاد فى الجهد وتجنب إجهاد الذاكرة بما لا يفيد يلعب دورا مهما فى ذلك، بحيث أن الصيغ ذات الغلبة تصير مراكز إشعاع قياسى وتجذب إليها غيرها من كل جانب لأسباب متنوعة.

فى هذا الاتجاه أنظر أوزان الكلمات العربية التالية: مبراة، حدأة، كوب، ملاءة، عصى، بناء، حرباء، مائة، معى. وقارنها بأوزان مرادفاتها بعد تمصيرها وهى: براية، حداية، كباية، ملاية، عصاية، بناية، حرباية، ماية، معايا. لتتعرف على قدرة اللغة المصرية فى التركيز والاقتصاد واختصار الجهد من خلال جمع شمل المفردات

فى أقل عدد ممكن من الأوزان، وقس على ذلك.
كما يلاحظ أن اللغة المصرية قد استراحت فى القياس إلى أوزان معينة رأتها أقوى تعبيرا وأعمق تأثيرا فحددت تعاملها مع الأوزان (مفعل - فعيل - وفاعل) أحيانا ..وفضلت عليها (فعال وفعلان) انطلاقا من خبرتها الخاصة بهذه الأفعال البدوية ومكابدتها مشقتها وشعورها بأن هذه الأوزان ذات إيقاعات بطيئة غافية لا تصور جهد الفعل ومشقته فمالت إلى الوزن المشدد (فعَّال) بدلا من (فاعل) وكما فى (شغّال) بدلا من (شاغل) لما يحمله من دلالة الاستمرار والإصرار، كما أن هذا الوزن يتقدم للتعبير عن أسماء المهن والحرف، ومن ذلك "نجّار" و"بنّاء" و"فخّار" و"طبّاخ" و"جبّان" و"لبّان" وزادها القياس فى هذه الوظيفة التعبيرية الجديدة خصوبة وسعة حتى نجدها أيضاً مستعملة لقباً فى مثل "الجمّال" و"البقال" و"الحمّار".. الخ، وكل هذه الأمثلة لصيغة "فعّال" من أسماء الحرف أتت من قدرات القياس الكبيرة والواسعة للغة المصرية.
وقد وردت صيغة "فعّال" للدلالة على أصحاب المهن والحرف بكثرة فى اللغة المصرية فى فترة الحروب الصليبية وتحت الحكم الفاطمى مثلما جاء فى السفر الثالث من البرديات العربية، بردية ٢١٤ بالشكل التالى: (أبو الحسن النخال) و(الجمالين حساب عشر قراريط) و(ميمون الجمال حمل حطب تلاته واربعين)، وفى "أخبار مصر" للمسبحى ص ٢١٦: (وفيه توفى ابن سعدان القماح.. وفيه توفى خلف الجمال بسويقة الوزير.. توفى ابن أخت أبو السيار قاضى اسكندريا).
كذلك الوزن (فعلان) بدلا من (فاعل) كما فى



(جوعـان) بـدلا مـن (جـائع) لتجسيد حالـة الجـوع والشـعور بـه... و(بـردان) بـدلا مـن (بـارد) ثـم (تعبان) عوضا عن (متعب) على وزن (مفعل).. ولعل إنهـاء الكلمـة بالمد مـع إضـافة النـون يحمل معنـى دوام الوضـع وألـم المعانـاة بالشكوى. ومـن تـأثير ذلـك القيـاس فـى لغتنـا المصـرية (قـديماً وحديثاً) خاصة فى حالة النسب قولهم "فوقـانى" و"وحدانى" التى أتت منها "وحدانية "، وفى ذلك توسيع لهذا القياس.
ثـم إن الظـروف الاجتماعيـة والعـادات الفكريـة واللسانية وغيرها تؤثر فى تطور أصوات اللغات مما ينتج عنه كثير من الظواهر اللغوية التى منها ظـاهرة *النقل المكانـى* *Melathese* *وظـاهرة التشاكل* *Assimilation* *وغيرهما*.



يظهـر ذلـك بوضـوح فـى لغتنـا المصـرية، ففـى ظـاهرة النقـل المكـانى نجـد أن كلمتـى *(أرانـب)* و*(ببغاء)* مثلا قد تحولتـا الـى *(أنـارب)* و*(بغبغان)* اذ يبدو أن المصريين لم يستسيغوا أن تكون بدايـة كلمـة أرانـب هـى *(أرا)* وأحسـوا أن *(أنـا)* أقـوى وأسهل نطقا فتبدلت بعض الحروف علـى ألسنتهم وغيرت مواقعها لتصبح *(أنارب)* مكان *(أرانب)*.. وربمـا شـعروا أن كلمـة *(ببغـاء)* ثقيلـة فـى النطـق لتكـرار حـرف البـاء فـى مـدخلها فباعـدوا بـين الحـرفين وأضـافوا *(غـين)* جديـدة لتكـون بدايـة الكلمـة *فعـل (بغبـغ)* الـذى يحمـل معنـى محاولـة الكـلام تجسـيدا لقـدرة هـذا الطـائر علـى تقليـد الأصوات البشرية.. وربما كان قصدهم من إلحاق نغمـة صـوتية جميلـة هـى *(آن)* يتفـق مـع منطـوق الاسم مع تميز هذا الطائر وشكله الجميل، عوضـا عـن الألـف والهمـزة ونهايتهـا الصـماء فتحولـت

(ببغاء) إلى *(بغبغان).*
ظـاهرة أخـرى هـي التنـاوب التــي تتبـدى فيمـا تتعـرض لـه أصـوات اللـين (الضـمة والفتحـة والكسـرة) إلـى جانب مـا سمى بـألف المد، وياء المـد، و واو المـد. والصــفة التــي تجمــع هــذه الأصوات اللينة (Vowels) كما يقول د. إبراهيم أنــيس فــي كتابــه "الأصــوات اللغويــة" ص ٢٦،٢٩: (هي أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه، فتضيق مجـراه كمـا يحـدث مـع الأصـوات الرخـوة، أو تحبس النفس ولا تسمح لـه بـالمرور، كمـا يحدث مع الأصـوات الشديدة. فالصفة التـي تختص بهـا أصوات اللين هي كيفية مرور الهواء فـي الحلق وفـي الفم وخلـو مجراه من حوائل وموانـع... إن هذه الأصوات ذات أثر كبير فـي اللغـة فأي تغيير (إبدال) في نوع الصوت اللين أو حتـى فـي كميتـه يغير في معنى الكلمة. واللغة المصرية لأنها من اللغـات الحيــة المتطـورة ظلـت أكثـر تـأثراً بهـذه الظـواهر، ولهـذا لـو تعرضـنا لتلك الظـواهر فـي اللغة المصرية في الفتـرة الفاطميـة لأدركنـا أثرهـا البالغ على تطور لغتنا حتى اليوم، وتلك النغمـات الشجية التي تتمتع بها. ففـي مجـال إحـلال (إبدال) صوت محل آخر مثل إحلال الكسرة للياء مثل " كتابي مفيد "، وقد ورد في تـاريخ أبو صـلح، ص ١٤٠: (وسد ينابيع المياه وميازين السما) بدلاً من موازين السماء، فأبدل الياء مكان الواو. وقد تبدل الفتحــة الطويلــة بالكسـرة الطويلـة فيمـا يعـرف بالإمالـة، التـي تعنـي كذلك الاتجـاه بالفتحـة نحـو الكسرة، وبالألف نحو الياء شرط ألا يبالغ في ذلك حتــى لا يصــير كسـراً محضـاً. ففــي القـراءات



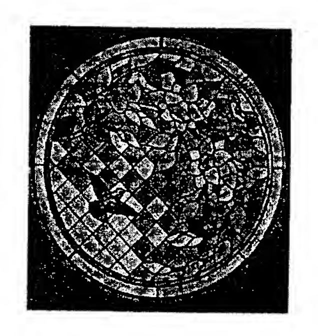
القرآنية المتأخرة، كما يقول ابن الجوزى فى كتابه " تقريب النشر فى القراءات العشر" ص ٥٥: (اعلم أن حمزة والكسائى وخلفاً أمالو كل ألف منقلبة من ياء حيث وقعت فى القرآن، سواء كانت فى اسم أو فعل، فالأسماء نحو: الهدى - الهوى - العمى - مأوى - مثوى - أدنى - أذكى - موسى - عيسى - يحى. والأفعال نحو: أبى - أتى - سعى - يخشى - يرضى - فسوى - أجتبى - أستعلى - أشترى.



ومما ورد فيه إمالة فى هذا العصر قول أبو صلح فى تاريخه ص ١٧: (ويهنيه بالسلامة ومعه جمعية يزكوا مقالته)، فصارت "جمعية" بالإمالة للفتحة الطويلة نحو الكسرة فصارت "ياء" وذلك بدلاً من جماعة. ويحدث كذلك فى المصرية تقصير الحركة الطويلة أو تحويل الحركة الطويلة إلى حركة قصيرة، ويحدث هذا عندما تقع فى وسط الكلمة بين صامتين مثل: "دَعَتْ" بدلاً من "دَعَا"، وفى البرديات العربية "السفر الخامس" بردية ٣٣٩: يرد مايلى: (وآخر ما كتبت إليك كتبين ولم أرا لواحد منهما جواب) فورد هنا "كتبين" بدلاً من "كتابين".

إلى جانب ذلك تميل اللغة المصرية إلى زيادة الحركة فى بعض الأصوات بطريقتين، إما بوضع حركة بدلاً من السكون، وإما زيادة فى الحركة القصيرة لتصبح حركة طويلة وهى نادرة فى الألسنة العربية، وترد فى المصرية بتحويل الأسماء التى على وزن فعْل العربية إلى فعَل، مثال " أذْن" التى تحولت إلى ُدُن" وقد ورد مثال ذلك فى تاريخ الشيخ أبو صلح: (رابعة كبيرة

مستوظلة يحيط بها سور) فتحولت "مستظلة" إلى "مستوظلة" بزيادة الضمة الطويلة بعد التاء المفتوحة، ذلك أنه لم تكن هناك فى الكلمة العربية ضمة. ومن هذه الزيادة فى الأصوات زيادة الحركة القصيرة على الضاد وهى الكسرة لتصبح ياء كما فى كلمة "راضى" عند ساويرس ابن المقفع فى كتابه " تاريخ البطاركة ": (فأخذوه وهو غير راضى) بدلاً من "راض"، والعلة فى ذلك أن اللغة المصرية فى هذا الوقت، ومازالت، تكتب التنوين.



وشبيه بهذا ما ذكره المسبحى فى كتابه "أخبار مصر" ص ٦٠: (ثم نزل حول القصر بعقب ذلك متخفين إلى الجزيرة) بدلاً من "متخفياً"، وكذلك قوله فى ص ١١٦، ١٩٢: (وكتب مصنفات فى معانى مختلفة... ويبيع اللحم أربع أواقى بدرهم) بدلاً من "معان" و"أواق" على الترتيب، ففى كل هذا كتب المصريين نطق التنوين. فقد أحس المصريون أن أصوات تلك الحركات لا ترسم أو تجسد حركة الفعل، وأن معظم الأفعال العربية هانئة خالية البال قد وفدت من بيئة رعوية لا جهد يذكر للفعل فيها قياسا إلى البيئة المصرية، فعدلوا فى أصوات بعض الأفعال واستعاضوا عن الفتحة الناعمة بصوت أقوى هو الضمة أو الكسرة وذلك من واقع خبرتهم وممارستهم لهذه الأفعال حتى تتوتر وتوحى وتؤثر كما فى *(يسمعُ، يسجدُ، سكتَ، خلص) التى أصبحت (يِسمع، يِسجد، سُكت، أو سِكت، خُلص أو خِلص)*، كذلك الحال مع الفعل (يلطم) الذى تحول الى *(يِلطم)* للهلع والمفاجأة و(يعوم) الذى أصبح *(يِعوم)* لتجسيد ما فى العوم من ثقل حركة وبذل جهد.

كما لم يطق المصريون نطق بعض الأفعال كما تلقوها من العرب بطيئة لا تجسد حيوية الفعل وحركته، فلم يستسيغوا نطق. *(يرتعش)* هانئة خالية البال فبدلوا فى مواقع حروفها لتسرع، وتوحى وتؤثر وتصبح (*يترعش*) كذلك الحال مع *(يهتز/ يتهز، يحترق/ يتحرق)* وغيرها.

كذلك عمد المصريون إلى تجسيد كثير من الأفعال بإضافة بعض الحروف اليها فالفعل *(يتعظم)* ينطق (*يتمعظم*) و(*يتبختر*) (*يتمختر*) فاضافة (الميم) الى أفعال التعاظم أو التدلل أو غيرها يمنحها مزيدا من الدلالة والتأثير.



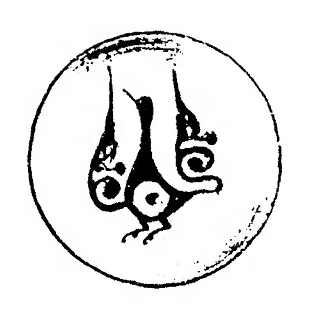
تأثير اللغة المصرية على الألسنة العربية فى مجال نطق الحروف

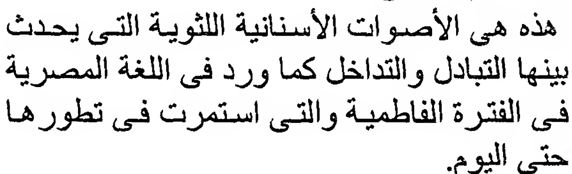
إلى جانب ذلك حدث تأثير كبير من اللغة المصرية على الألسنة العربية فى مجال نطق الحروف والكلمات، ويعد صوت "الجيم" مثالاً طيباً للتغيرات التاريخية فى الأصوات التى دخلت من المصرية على الألسنة العربية بدلاً من "الجيم" المعطشة أو المثلثة، التى مازال يتمسك بها بعض مدعى العروبة. كذلك صوت "القاف" الذى يقول فيه د. أنيس فى كتابه "الأصوات اللغوية": (أتضح لنا أن القاف والطاء كما وصلت قد أصابها التطور حتى صارت إلى النطق الشائع بين قرائنا الآن فقد انتقل مخرج الضاد إلى الدال، كما أن كلاً من القاف والطاء القديمتين قد أصبح مهموساً فى نطقنا الحديث بعد أن كانتا مجهورتين).

كما حدث نفس الأمر بالنسبة للأصوات الأسنانية: وهى الذال والثاء والظاء، فالذال صوت رخو مجهور مرقق والثاء صوت رخو

مهموس مرقق، ولا فرق بين الذال والثاء إلا فى أن الثاء صوت مهموس لا يتحرك معه الوتران الصوتيان، فالذال إذا صوت مجهور نظيره المهموس هو الثاء. أما الظاء فإنها نظير الذال المفخم أى أنه صوت رخو مجهور مفخم، ينطق بنفس الطريقة التى ينطق بها صوت الذال مع فارق واحد، وهو يأتى من مؤخرة اللسان حيث ترتفع نحو الطبق مع الظاء ولا ترتفع مع الذال .

أما الأصوات الأسنانية اللثوية فهى الصاد والدال والطاء والزاى والسين والضاد. فنلاحظ أن السين نظير الزاى المهموس وهذا معناه أنه صوت رخو مهموس مرقق لا يفترق عن الزاى فى نطقه إلا فى أن الأوتار الصوتية تهتز مع الزاى ولا تهتز معه. أما الصاد: فإنها نظير السين المفخم، وهذا معناه أنه صوت رخو مهموس ينطق كما ينطق السين مع فارق واحد هو أن مؤخرة اللسان ترتفع معه ناحية الطبق.





هذه هى الأصوات الأسنانية اللثوية التى يحدث بينها التبادل والتداخل كما ورد فى اللغة المصرية فى الفترة الفاطمية والتى استمرت فى تطورها حتى اليوم.

وحول نظام النحو والصرف الموكول إليه إنتاج اللغة فإن هذا النظام فى أى لغة أنما يتكون عبر أجيال سحيقة نابعا من شروط المجتمع المادية وطبيعة تكوين ونشاط أفراده، ويظل يضرب بجذوره فى عقول الأجيال ويشكل وجدانهم ويحدد ملامحهم النفسية ويبرز مظهرهم الروحى.

كيف استوعبت اللغة المصرية بعض الألفاظ العربية والأجنبية

أما إذا أردنا أن نعرف بشىء من التفصيل الألفاظ

العربية والأجنبية التى استوعبتها اللغة المصرية، بعد تمصيرها ووضعها فى سياق تصاريفها اللغوية وكذلك التطورات التى لحقتها عبر العصور، فعلينا بالمستدرك الذى حرره العلامة الفرنسى دوزى والتذييل الذى وضعه المستشرق فانيان على هذا المستدرك، وكذلك كتاب: مد القاموس لإدوار وليم لين، منامات الوهرانى، والمجموع الصفوى لابن العسال، أخبار مصر لابن ميسر، أسفار البرديات العربية التى جمعها العالم الألمانى جروهمان وأصدرتها دار الكتب المصرية، وكتاب: تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل للدكتور أحمد السعيد سليمان، كذلك كتاب: فى علم اللغة التاريخى للدكتور البدراوى زهران، وكتب التاريخ التى وضعها ابن اياس وابن تغرى بردى وابن جبير والمقريزى والجبرتى، وإبداعات الأدب والشعر المصرى التى كتبها العديد من الشعراء والأدباء من أمثال ابن سناء الملك وابن سودون والوهرانى وابن دانيال وابن مماتى... الخ، وفوق كل ذلك كتاب ساويرس " تاريخ البطاركة ". وانتهاء بعبد الله النديم وعبد الحميد الديب وبيرم التونسى وصلاح جاهين وفؤاد حداد. ففيها الكفاية منعا للإطالة.

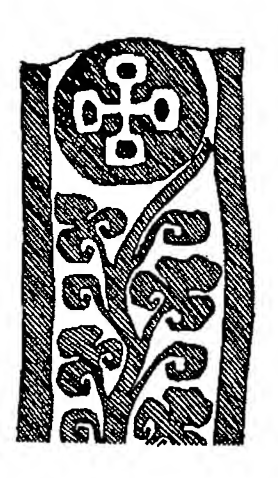


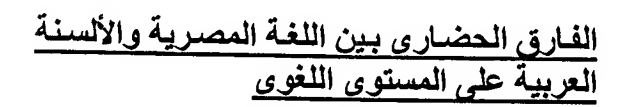
وفى هذا السياق يمكننا أن نذكر بعض ملامح لغة ساويرس ابن المقفع من خلال كتاب "تاريخ البطاركة":

بعض ملامح اللغة المصرية عند ساويرس بن المقفع

ففى مجال تمصيره للكلمات العربية الدخيلة، يستعمل كلمة "البطالة" بمعنى القبيحة، كما

يستعمل كلمة "تخلينا" بدلاً من "تتركنا" وكلمة "ختل" بدلاً من "جن" و"بحرى" بدلاً من "الشمال" و"قبلى" بدلاً من "الجنوب" و"مداس" بدلاً من "حذاء".
أما فى مجال الظواهر اللسانية: فنلاحظ قلبه "الذال" إلى "دال" مثال: سادج، أرتدكس. وقلب "الظاء" ضادا مثل "ينضف" وقلب "الثاء" "تاء" مثال "الأرتدكس".
وفى مجال الظواهر النحوية: استخدام "أبهات" من المفرد "أب"، بدلاً من "آباء" وتأنيث صفة كلمة "مركب" لتصبح "مركب صغيرة" وأحياناً تأنيث الصفة والمصوف "مركبه صغيره". الحاق "ياء" المخاطبة بالماضى، مثل "جرحتى" و"تركتى" و"مضيتى". وغير ذلك من التعبيرات المصرية الأصيلة مثل:
عاد بقلة حيا إلى اسكندريا، طول روحك عليا، كان كلامه كالعسل، وضع مقالات تجديف وكفر بلسانه المستحق القطع، لتوحله فى الزيجة، سقط على الأرض وانقطع حسه، طيب قلبك.





الفارق الحضارى بين اللغة المصرية والألسنة العربية على المستوى اللغوى

ولكى نكشف عن مدى الفارق الحضارى بين اللغة المصرية والألسنة العربية فى مجال استخدام بعض المفردات ذات الأصول العربية نسوق المفردات التالية :
(يتكلم): قد يتوقف معناها عند التحدث، ولكنها فى اللغة المصرية تحمل عددا من الدلالات، فأن قلنا (متكلم عليها) فأن الميم المضافة تتخطى مفهوم التحدث إلى دلالة أوسع، فهى تعنى أنه قد

اتصل بأهلها وتفاهم معهم فى أمر خطبتها لتصير زوجة له. وأن رفعنا الميم وصارت الجملة (يتكلم عليها) حمل التركيب دلالة مختلفة تماما إذ يكتسب صفة الذم والتشهير.

(دخل عليها): جملة تتوقف دلالتها فى العربية على فعل الدخول، بينما تنسحب فى المصرية على ليلة الزواج الفعلية وما يصاحبها من اجراءات وطقوس يثيرها هذا التركيب البسيط.

(يظرف): الظرف هو الغلاف الذى يختفى بداخله الخطاب، وقد اشتقت منه المصرية الفعل (يظرف) وهو فعل على بساطته يحمل دلالة اجتماعية مهمة إذ يطلق على المال الذى يوضع فى ظرف ويقدم كرشوة خفية عن العيون.



(امبارح): مشتقة من الكلمة العربية (البارحة) وهى أقرب ليلة مضت، لكن المصرية أصرت على أن تستخرج منها أسما مذكرا للنهار، إذ رأت أن النهار بالنسبة لها أكثر أهمية من الليل، فإذا ما احتاجت إلى أن تشير إلى الليلة السابقة ألحقتها بالإضافة إلى اليوم السابق وقالت (ليلة امبارح)، ليلة امبارح مجاليش نوم.

(بعض): لم تستسغ المصرية استعمال التركيب العربى (بعضه البعض) ولم تر داعياً لتكرار كلمة البعض نحو (يدخل فى بعضه البعض) ورأت أن فيه استطالة أو تكرار لا داعى له فاختصرته واكتفت ببعض واحدة لتصبح (يدخل فى بعضه).

(داس على طرف): الطرف من كل شئ هو منتهاه.. والمقصود من جملة (داس له على طرف) هو الاعتداء.. داس له على طرف يخصه. قد يكون طرف ثوب أو طرف أرض أو طرفاً معنوياً.. اغتابه أو نمه أو ما شاكل ذلك.

(شال) فى العربية يعنى رفع، والشائل تنطقها العامية شايل (وشايل منه) يعنى أنه غاضب يختزن له مضايقاته إلى حين فإذا ما استبدلنا بالميم فى (منه) للعين فى (عنه) كما نجد فى جملة (شايل عنه) لاختلف المعنى تماماً وأصبح يساعده بإخلاص أو يتكاتف معه فى المسئولية.

(طب): بمعنى سقط، وصوت الكلمة يرسم ويجسد صوت الفعل، وقد اعتدنا فى المصرية أن نقول (طب فى الامتحان) أى سقط و(طب ساكت) أى مات، لكن هناك استعمال متفرد إذ نقول (طبطب) بمعنى قام بمراضاته أو مصالحته بأن ضربه على ظهره عدة ضربات حانية متتابعة.. وقد انبثق الفعل من صوت هذه الضربات.

(الكوع) وهو جزء من الذراع ولكن المصرية تستخرج منه فعلاً هو (يكوع) بمعنى أن ينام بعض الوقت، فالفلاح الفقير الذى يفترش الأرض الجافة لا يجد غير كوعه ليتخذ منه وسادة يسند إليها رأسه عله يريح جسده المكدود.



(اليد) لها استعمالات كثيرة فى المصرية بخلاف استعمالاتها المتعددة فى العربية نقول (إيده فرطة) كناية على الكرم و(إيده ناشفة) للبخل (إيده والأرض) للفقر (إيده طارشة) أى مؤلمة (إيده طايلة) للنفوذ والسلطة (إيدى فى إيدك) للتعاون وغيرها.

(عينه فارغة) قد لا تفيد فى العربية أكثر مما تدل عليه الكلمتان: لكنهما فى المصرية تعنيان أن العين هى نفس الإنسان غير القنوع التى لا تمتلئ... والمعنى يكنى عن الطمع وعدم الاكتفاء.

(دماغه ناشفة) فى العربية نجد أن نشفت الأرض صارت نشفة على وزن (فعله) لكن المصرية تفضل الوزن (فاعل) فاشتقت لفظ ناشف بمعنى

جاف أى أن دماغه جافة لا تتقبل المناقشة ولا جدوى من وراء إقناعها كالأرض الناشفة إذا زرعت لا تنبت.

(ياكلها والعة) الوالع هو الكاذب والوالعة مؤنث والع فى العربية. ولكنها فى المصرية تعنى المشتعل.. يولع بمعنى يشعل.. يولع النور.. يولع على الطبيخ.. والمقصود بهذا التركيب هو الإسراع فى الالتهام وعدم الانتظار بغض النظر عن حالة الشىء الملتهم كناية عن الاستهانة وخراب الذمة ونقص الأمانة.

(خلع) بمعنى نزع.. وخلع دابته فى العربية أى أطلقها من قيدها، وفى المصرية مدلول غريب عن العربية، فالخلع هنا يعنى الانصراف السريع المفاجئ من المكان بما يشبه الخلع السريع والمفاجئ للضرس.



(صرع) صرع فلان أصابه الصرع فهو مصروع والصرع علة فى الجهاز العصبى تسبب التشنج وتستعمل الأم المصرية الفعل (يتسرع) لخوفها على طفلها حين يلجأ أحد غريب إلى مداعبته.

(قرش ملحته).. القرش هو الكسب والجمع فى العربية لكن الفعل (قرش) هو فى العامية بمعنى طحن بالأسنان ، وملحته من الملح.أى أنه قد فهم غرضه وتحمل مذاق ملوحته بما لا يسمح بمزيد..

(محدوف) تقابل فى العربية كلمة مقذوف.. تقول المصرية (بيته محدوف) أى بعيد .. وكأن أحداً قد حمل البيت وقذف به كما يقذف الحجر فيستقر بعيداً فى الخلاء.

(شبك) الشىء تشبك أى تداخل فى بعضه.. لكن (شبكها) فى المصرية تحمل عرفاً شعبياً بمعنى أنه قدم إليها ما يؤكد رغبته فى الزواج منها..

(والشبكة) هدية من ذهب أو خلافه يشترط أن يقدمها الرجل إلى المرأة كتقليد اجتماعى مصرى تمهيداً لأن تكون زوجة له.

(ينطلى) الطلاء هو الدهان الذى يستر ما خلفه.. وتشتق منه المصرية هذا الفعل فتقول (ينطلى عليه) بمعنى أنه سوف يصدق الكلام أو يتقبل الفعل دون أن يدرك غرضه كما يخفى الطلاء ما تحته.

(رن) رنيناً.. أى صاح وصوت.. ولما كانت العملة المعدنية إذا سقطت تظل ترن على الأرض حتى تستقر ويتوقف الرنين.. فقد اشتقت المصرية من هذه الصورة الصوتية (سيبه يرن) أى دعه ولا تسأل فيه فإن مصيره كالعملة إلى التوقف والسكون.

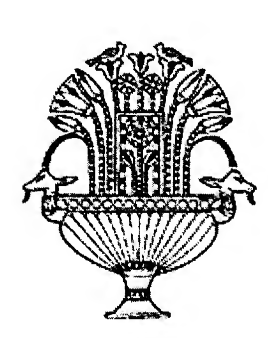
(النور) له استعمالات عدة.. (نورك كفاية) للتكريم بمعنى أن وجودك قد أضاء المكان بما يكفى.. و(أنت منور القعدة) بمعنى أنك ضياؤها وزينتها. أما ذلك التركيب الممعن فى الإيجاز (الشرط نور) فهو يحمل نصيحة بالغة الحكمة ويسنن تشريعاً مهماً.. فالشرط جوهرى عند الاتفاق حتى يستضاء به عند الاختلاف.



(العسل) معروف بحلاوته وقد اشتقت منه المصرية كلمة (تعسيلة) لتصور الشخص المرهق المستعبد دائماً كالفلاح وهو يأخذ تعسيلة، أى يخطف إغفاءة قصيرة سريعة يشعر أنها لفرط تعبه وإجهاده حلوة لذيذة بطعم العسل.

(ابن) أضاف المصريون إليها شىء ليست العلاقة بينهما أبوة أو أمومة، فسمت اللص "ابن طريق"، وسمت الليل "ابن الكروان". وكذلك ينسبون الابن إلى شىء له به اتصال وإن لم يكن الثانى ابناً للأول ، ولهم فى هذا ألفاظ كثيرة

متعددة مثل:
"ابن فن" و"ابن روحه" لمن كان عصامياً "ابن فتله" للمحتال النصاب "ابن سبعه" لمن يولد فى الشهر السابع من حمل أمه "ابن سوق" للبياع المتجول و"ابن غرام" لمن سار على هواه ودار على حل شعره، "ابن ساعته" لمن لا يستقر على حال فى رأى أو صداقته. "ابن بلد" وهى تعنى الشهم اللطيف المهذب، وغالباً ما يستخدم فى كلامه عبارات مثل: "بلا آفيه"، "عن إذنك "، "اسمحلى"، "لا مؤاخذة" ولأولاد البلد فن خاص يسمونه "التنكيت" يستخدمون فيه كلمة "اشمعنى" إلى جانب فنون الفكاهة الأخرى. ولهذه الفنون مساجلات كثيرة للغاية حتى أنها سجلت فى أوايل القرن العشرين على اسطوانات، كما كان لها أدبائها منذ أواخر القرن التاسع عشر مثل حسن الآلاتى الذى كان يجتمع مع أصدقائه بقهوة لطيفة فى حى الخليفة سموها "المضحكخانة الكبرى" يتندرون فيها بالنكات والتنكيت والأزجال والقصص والأفشات الظريفة. وكان يعاصر حسن الآلاتى ويجرى معه فى هذا المضمار عبد الله النديم المتوفى عام ١٨٩٦ م. الذى أصدر عدة جرايد ومجلات ترعى فنون الفكاهة مثل "التنكيت والتبكيت" و"الأستاذ" وتلى ذلك ظهور جريدة "حمارة منيتى" وغيرها كثير مما ساعد على تطور اللغة المصرية تطورا كبيراً. "ابن حظ" لصاحب المزاج والفرفشة وقريب منها " ابن كباية" و" ابن كيف"، "ابن نكتة" وفى مجال الشتايم كان حظ كلمة "الابن" أكثر من غيرها. كما استعملت فى الأمثال، فقالوا "ابن الوز عوام"، ومن الأمثال القديمة "ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكاس" . مع



ملاحظة أن كلمة "ابن" يمكن تحويلها فى بعض هذه العبارات إلى "بنت".

(أبو) فى اللغة المصرية تستعمل استعمالات مختلفة، فأحياناً يستعملونها بمعنى "ابن" فيقولون "أبو يوسف" لمن كان اسم أبيه يوسف، و"أبو سعيد" لمن كان اسم أبيه سعيد، وهكذا. وأحياناً يستعملونها بمعنى الكنية عندما يضاف إليها اسم الابن الأكبر فيقال "أبو مجدى". وللمصريين اصطلاحات خاصة فى هذه الكلمة فيقولون: "أبو على" للرجل اللطيف الكريم, و"أبو جبين" للدلالة على كرم الشخص, وقريب منها "أبو جيب مخروم" وإن كانت الأخيرة تطلق كذلك على الشخص المبذر المتلاف. "أبو طويله" للمفرط فى الطول مع بلاهة وغفلة. و"أبو الروس" الكبير الرأس. "أبو عين نايمه" للصامت الماكر، تطلق أحياناً على الشخص الخجول، وعكسه "أبو عين آرحه أو فاجره أو زايغه". "أبو رجل مسلوخة" وهو اسم للعفريت يخوف به الأطفال.

(أم) يستعملها المصريون كذلك بمعنى أب، بمعنى صاحبة مثل "أم الخلخال" و" أم العبايه" و"أم الشال" و"أم الشعور" و"أم على" وهو طعام يصنع فى الأساس من الرقاق واللبن والسمن ثم يوضع فى الفرن، ويضاف إليه أحياناً المكسرات. و"أم أويا" ويقصد بها البومه.

(أزرق) كثيراً ما يستخدم المصريون كلمة الأخضر محل كلمة الأزرق، وذلك تفاؤلاً بالخضرة وكراهية للزرقة. ولذلك سموا العتبة الزرقاء بالعتبة الخضراء. ويقولون "زرق المسمار فى الخشب". أى أدخله بسهولة، ويقولون، "زرق من وراهم" أى مرّ دون أن يشاهدوه، أو "زرق منهم" أى هرب منهم. كما



يقولون "نابه أزرق" لمن كان خبيثاً ماكراً.
(جاء) لا تنطق فى اللغة المصرية همزة جاء, بل تنطق مع الضمير المذكر والمؤنث، المفرد والجمع مثل: (جه) و(جت) و(جم). وفى الأمثال المصرية: (جت ع البهلى) و(جت ع الطبطاب) و(جه على ملا وشه) و(جه يكحلها عماها), (جت الحزينه تفرح ملأتلهاش مطرح).
(ضرب) تستعمل كذلك فى اللغة المصرية بعدة معانى مثل: "ضرب الطوب" أى صناعته و"ضرب ع العود" و"ضرب الدنيا طبنجه" و"ضرب ف المليان" و"ضرب كف على كف".
(طلع) مثال استخداماتها فى المصرية: "طالع نازل" للدلالة على الحركة المستمرة. و"طلع من هدومه" و"طلع فيها" و"طلعت عليه الغزاله" و"طلع يجرى" و"طلع راجل" و"طلع م المولد بلا حمص" و"طلع بوش" الخ...



(عين) فى المصرية يقال: "عينك ما تشوف إلا النور" و"على عينك يا تاجر " و"العين عليها حارس" و"عنيه مبظظه".
(لعب) يقال فى المصرية كذلك "لعبت نفسه", "لعب دور" و"يلعب موسيقا" و"لعب عليه أو عليها" , وقريب من ذلك "ملاعيب شيحه".
(صاد) تستخدم فى المصرية كذلك "يصطاد ف المية العكره" و" صياد فرص".

<u>النصوص التراثية المصرية كدليل على استمرار تطور اللغة المصرية خاصة فى مجال النحو</u>

ومما يجدر به التنويه هنا أن المادة التاريخية التراثية التى بين أيدينا بالرغم من قدمها، إلا أننا نحس منها بوقع حياة التاريخ وقوة تفاعله، وأكثر من ذلك أننا نلمس فيها مدى تأثير اللغة المصرية

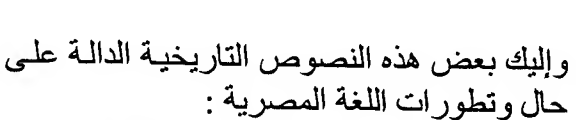
حينذاك فى كل المنطقة المحيطة بها، وذلك لعدة عوامل منها :

- أن الصلة وثيقة بين لغة هؤلاء المؤرخين وبين لغة الجماعة المصرية.

- التأثير والتأثر المتبادل بين مصر والبلدان المحيطة بها سواء فى مجال الثقافة أو اللغة.

- الدور السياسى البارز الذى لعبته مصر فى المنطقة، ويكفى أنها صاحبة أكبر انتصارين على المغول والصليبيين.. هذا الدور الذى ساعد على جعل اللغة المصرية، بل وحتى اللهجة القاهرية، على حد قول "يوهان فيك" هى لغة العصور الوسطى فى كل المنطقة المحيطة بمصر.





وإليك بعض هذه النصوص التاريخية الدالة على حال وتطورات اللغة المصرية :

"وفيها كثر فساد العربان بالوجه القبلى وعدى شرهم فى قطع الطريق الى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بسيوط ومنفلوط فرايض جبوها شبه الجالية (الجزية)، واستخفوا بالولاة ومنعوا الخراج.... وضرب الأمراء على الوجه القبلى حلقة كحلقة الصيد وقد عميت أخبارهم على أهل الصعيد فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، ووضعوا السيف من الجيزية بالبر الغربى، والأطفيحية من الشرق فلم يتركوا أحدا حتى قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل ما فيهم الا من أخذوا ماله وسبوا حريمه، فاذا ادعى أحد أنه حضرى قيل له: قل دقيق.. فان قال بقاف العرب قتل...ووقع الرعب فى قلوب العربان حتى طبق عليهم الأمراء وأخذوهم من كل جهة فروا

إليهـا وأخرجـوهم مـن مخـابئهم حتـى قتلـوا مـن جانبى النيل إلـى قوص، وجافت الأرض بـالقتلى واختفى كثير منـهم بمغـاير الجبـال فأوقدت علـيهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم، وأسـر منـهم نحـو ألـف وستماية لهـم فلاحـات وزروع وحصـل مـن أموالهم شيء عظيم جدا... وصار لكثرة ما حصل للأجنـاد والغلمـان والفقـراء الـذين اتبعـوا العسـكر يباع الكبش السمين من ثلاثة دراهم الى درهمين والمعـز بـدرهم الـرأس والجـزة الصـوف بنصـف درهم والكسا بخمسة دراهم والرطـل السمن بربـع درهم، ولـم يوجـد مـن يشترى الغـلال من كثرتهـا فـان الـبلاد طرقـت وأهلهـا آمنـون وقـد كسـروا الخراج ". (١١)



هكـذا أعطـى لنـا عمـدتنا المقريـزى فـى لغتـه المصرية السهلة المعبرة وصفا تصويريا تحليليا لمسرح دارت عليه أحداث امتدت من الشمال إلـى الجنوب ألقى الضوء فيه على الأمن الذى عاشت فيـه الـبلاد بعـد مـا أصـابها مـن فسـاد واضطراب اختل معه الأمان، فقطـع العربـان الطريق وتعدى شـرهم كـل حـد، وفـى ذلـك تعليـل لمـا كـان مـن الأمـراء مـن وقفـة متشـددة ضـدهم بـرر فيهـا توسيطهم وإيقـاد النيـران بمغـاير الجبـال علـيهم وامتلاء الأرض بجيفهم... وهـذا كلـه مـن وجهـة نظـر تحليليـة تعطينـا الضـوء الكـافى علـى حالـة المستجوب عند نطقه بكلمة "دقيق". ولا شك أن كثيرين منهم حاولوا أن ينطقوها بالقاف المصرية فكشـف أمـرهم فالعـادات النطقيـة أقـوى مـن أن يبدلها محاولة الخروج من موقف ذعر.

وهذا من ناحية ثانية يجعلنا نعطى تعليقا متصلا بما نحن بصدده وهو أمر "القاف" وكيف تنبه لها الأمراء الحاكمون للتفرقة بين صوتيات الألسنة

العربية وصوتيات اللغة المصرية، فالقاف البدوية الوافدة من الأصوات التى تستلزم مجهودا ضخما فى نطقها فهى تأتى من حبس الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما ورفع أقصى اللسان حتى يلتقى بأقصى الحنك وأدنى الحلق بما فى ذلك اللهاة، ولا يسمح للهواء بالمرور خلال الأنف وذلك بأن يرفع الحنك اللين ويضغط الهواء مدة من الزمن ثم يطلق مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا مع تذبذب الوترين الصوتيين أثناء النطق. (عملية عضوية شاقة تدخل فيها أكثر من عضو ليؤدى كل دوره) فالقاف البدوية العربية كما وصفها القدماء: صامت - مجهور - لهوى – انفجارى.

أنظر إلى صوت القاف فى لغتنا المصرية تجده مهموسا: صامت - مهموس - لهوى - انفجارى، هذا لمن أراد التحذلق، وتجده "آفا" للقفا و" ألم "للقلم كما تجده "جافا" و"كافأ"، جلم "قلم"، "برتكان "برتقان".

وهكذا نرى مدى قدرة اللغة المصرية فى التعبير بعيدا عن جفاف الألسنة الوافدة بحيوية صوتية دافقة وإبانة مسرحية تركيبية ما كانت لتتوفر لغيرها من اللغات فى حينه، وذلك فقط من خلال اعتمادها على التنغيم العالى العام، سواء فى موقف السرد أو فى مواقف الحوار أو فى الوصف والتحليل. وهذا فى حد ذاته فيه إشارة إلى سابقة هامة وخطيرة للغتنا المصرية ألا وهى: قدرتها على أن تكون وعاء للدراما الفنية ولمسرح لغوى بمفهومه الحديث، خاصة إذا كانت على صلة بلغة منطوقة مكتوبة سابقة - المصرية القديمة - ذات تراث ثقافى قوى الجذور.

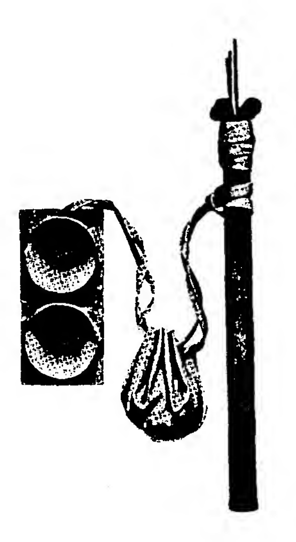
ودون أن نمهد أو نعلق نأتى بنص لعمدتنا

على اليسار هيراطيقى
واسفله ديموطيقى

المقريزى من كتابه السلوك وندع قدرات اللغة المصرية تكشف عن هدف كاتبها مع إطلاق العنان لخيال الدارس المتأمل حيث تحلق شخصياتها فى عالم وزمان مسرحها اللغوى.

ظاهرة التراص والتوازى فى الجمل (النظم والسرد فى الجملة)

وخير ما يوضح هذه الظاهرة أمثلتها :
وغضب السلطان عليه واعتقله وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان وسار السلطان الى الشام وقاضى القضاة شمس الدين الحنبلى فى الاعتقال بمصر فتسلط شبيب عليه وأدعى أنه حشوى وأنه يقدح فى السلطان، وكتب بذلك محضرا فأمر بدر الدين بيلك نائب السلطنة بعقد مجلس، فعقد فى يوم الاثنين حادى عشرة وحضر الشهود، فنكث بعضهم وأقام بعضهم على شهادته فأخرق النائب بمن شهد وجرسهم، وذلك أنه تبين له تحامل تقى الدين شبيب على القاضى، واعتقل شبيب ووقعت الحوطة على موجوده وأعيد القاضى الى اعتقاله بقلعة الجبل، فأقام معتقلا سنين ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا (١٢)".



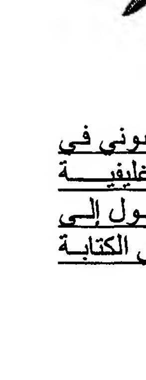
مقلمة للكاتب المصرى

وهكذا نرى الجمل تتراص ممتدة ترتبط كل واحدة منها بالأخرى بالواو أو بالفاء ، ونرى الواو تؤدى معانى متعددة وتقوم بوظائف متغايرة وهذا ما يعرف فى بناء الجمل بالتراص والامتداد يقابله نوع آخر من بناء الجمل يعرف بالتركيب، جمل بسيطة متراصة، وجمل مركبة معقدة.
والشىء الذى نلاحظه أن بناء الجمل على هذه الشاكلة يعطى مجالا للسرد وتعانق الأفكار

والمعانى فى يسر، فهو أسلوب ميسر بعيد عن التعقيد والتكلف. كما يرون أن بناء الجمل المتوازنة يمثل لغة الحياة العامة.

وعلى العموم فالعبرة بالإبانة عما فى النفس ووضوح الدلالة مع البعد عن الخلل والفساد، وذلك بأن تنظر فى الجمل التى تسرد فتعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، وتعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء) ، وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكن) من موضع (بل) وهكذا الشأن فى التصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله، وفى الحذف والتكرار والإظهار والإضمار فتضع كلا من ذلك فى مكانه وتستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له. نظم لم تتبعه الألسنة الوافدة، وهو لذلك نظم مبين عما فى النفس مطرد على الصحة بعيدا عن الخلل.





حرف (شا) الفرعوني في الكتابة الهيروغليفية (أسفل) وقد تحول إلى حرف الشين في الكتابة العربية (أعلاه).

ومعناه أن اللغة المصرية انتهجت نهجا من النظم خاصا بها سواء فى الجمل المتوازنة أو المركبة وسيتضح ذلك فى النوعين المتوازى والمركب، وإن كانت النظرة السريعة فى النوع الأول تظهره فإن التحليل هو الذى يكشف عنه فى التراكيب... أى فى الجمل المركبة التى ترمز إلى قضايا متعددة حيث تدخل فى هذه التراكيب ارتباط بعض ببعض ويبنى التالى منها على الأول، وذلك مثل القسم والشرط والجزاء والنداء.

وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره أو قانون يحيط به، فانه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة.
ولنقرأ القسم الآتى :
" وحق نعمة مولانا السلطان هولا الأقباط أكلوا الأموال " (١٣)
" والله ما ياكل السلطان غيركم " (١٤)
نوع من البناء فيه جملة قسم وجملة جواب وبينهما ارتباط وهو ارتباط تركيب ولكن يعد من أولى مراحله قريب من ارتباط التراص أو التوازى أو السرد، فلا نجد اتحاد أجزاء جمل ودخول بعض فى بعض باشتداد ارتباط ثان بأول - وهكذا ..نوع من النظم اختطته لنفسها اللغة المصرية منذ العصور الوسطى.


سلام عليك

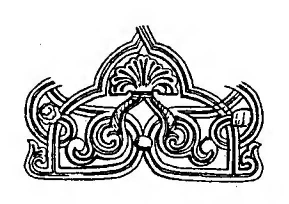
الشرط والجزاء

إن الشرطية:
"إن تسلمتهم لآخذن منهم للسلطان ثلاثمايه ألف دينار وأكتب بها خطى"
ومثل أخر فى نصوص الهدنة:
"أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزواده من عندهم ولا من حمل ماء، وإن ظفروا بأحد منهم يمسكوه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضايع فيمسكهم كفيل المملكة " (١٥)
هذا التركيب فيه "أن" وحدة صرفية علقت بين أجزاء الجملة وترتب عليها وجود وحدتى شرط (إن... أن) "وعلى أن شوانى السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض لأذية (١٦)". وهكذا نجد (أن) تقوم بدور الوحدة الصرفية الممهدة لجملة الشرط سواء كانت أداة الشرط (إن) أو (إذا):

"وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجه، وغيرهم من جوا البحر بقصد الحضور لمضرة السلطان وولده فى بلادهما المنعقد عليها هذه الهدنه فيلزم نايب المملكة والمتقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم الى البلاد الاسلامية الداخلة فى الهدنه بمدة شهرين وان وصلوا بعد انقضا مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمتقدمين بريين من عهدة اليمين " (١٧)

فوحدة (أن) فى هذا التركيب مهدت لوحدة الشرط وجاءت (متى) بعدها فى التركيب فى صدر الشرط.

وننتقل الى نوع آخر من أدوات الربط فى الجمل التركيبية استخدمته اللغه المصرية وهو (لما).



"فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه فخرج عليهم الأنبرور فذبحهم فى يده وسلخهم وحشا جلودهم تبنا وعلقهم على باب القصر فبينما هو عازم على ذلك إذ ورد الخبر بأن ملك الأنكتار وصل الى عكا" (١٨)

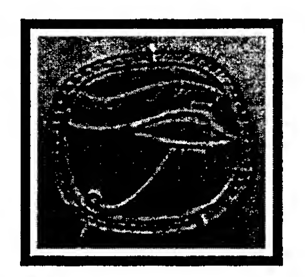
"ولما أسر الفرنج الأمير شجاع الدين والى سرميين أبقى السلطان إقطاعه بيد اخوته وغلمانه كل ذلك استجلابا للقلوب" (١٩)

فنجد الواو هنا مهدت لأداة الشرط "لما" ونجد أن الفعل الذى تبعها جاء ماضيا. بينما نجدها فى المثال الآتى ذات طبيعة مخالفة:

"فلما كان ذات يوم حضر إليه رجل من أجناد الأمير الصيقلى وأخبره أن أستاذه فرق مالا على جماعة من المعزية، وقررمعهم قتل السلطان، ومنهم الأمير علم الدين الغنمى، والأمير بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت فقبض على الجميع فى ثامن ربيع الأول" (٢٠)

تصرفت اللغة المصرية هنا تصرفا استفادت به من (لما) فقد جعلتها وحدة صرفية تقوم بوظائف متعددة التراكيب الممتدة على مستوى الجمل المتوازنة والجملة المركبة.

وعلى نحو ما استفادت اللغة المصرية من (لما) كوحدة صرفية ذات دور فعال فى بناء الجمل المركبة بكل طرق التعليق الممكنة، نجدها أيضا أحسنت استخدام الوحدة الصرفية (عندما) ببراعة مميزة على نحو ما يتضح من هذا المثل ومن غيره من الأمثلة رأيناها هنا مهدت لاستخدام وحدات صرفية أخرى مثل (الواو) و (الفاء) الى جانب أنها ربطت بين طرفى جملة أدت فيها وظيفة الظرف وأداة الشرط معا. واقتضى هذا أن تتبعها جمل أفعالها ماضية لفظا ومعنى.



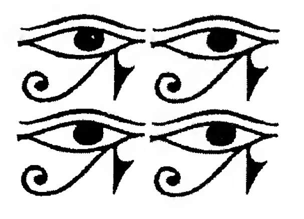
وهكذا وجدنا (لما) و (عندما) تستخدمان استخدام الأدوات الشرطية الظرفية.

فالجمل التركيبية فى اللغة المصرية ذات أنماط متعددة بتعدد أدوات الربط التركيبية، ومنه أدوات شرط تتعدد الجمل بتعددها، وأدوات تعليل تتعدد الجمل بتعدد أنواعها، وأدوات مصدرية...الخ، وغير هذه وتلك من الأدوات التى يتحدد دورها الصرفى بوظيفتها فى الربطين بين وحدات الجمل التركيبية.

فمن الاستقراء يتبين أن أساليب الشرط فى مصرية العصور الوسطى كان يمهد لها فى كثير من حالاتها بهاتين الوحدتين المتلازمتين (على أنه) أو (على أن) سواء كانت الأداة (إذا) أو (متى) أو (إن) ... سواء فى ذلك تصدرت أداة الشرط أسلوب الشرط، أو تقدمتها بعض أجزاء أسلوب الشرط:

على أن شوانى السلطان وولده إذا عمرت

على أنه متى تحرك
على أنه إن قصد البلاد
والجمل المركبة ذات طبيعة مخالفة فى بنائها.
فالجملة المركبة جملة متداخلة الأطراف يطول بناؤها وتتكامل عناصرها اللغوية لتعبر عن فكرة واحدة.
وهذا البناء اللغوى وما هو على شاكلته نوع قائم بذاته حيث يدخل فيه ارتباط بعضه ببعض، ويوضع فى نفس الوقت وضعا واحدا، وصورته لا تبين إلا بالبناء مكتملا، فوجب أن ينظر الى الصورة اللغوية نظرة كلية واحدة فكل ما بنى على طرفى الجملة الأساسيين له قيمته ويعطى جديدا ويلتحم بغيره فيتغير ويغيره. (٢١)
وهذا النوع من الجمل يختلف عن نوع آخر لا يتأثر بالبناء عليه ولا يصير بانضمام شىء إليه شيئا آخر.



ومما هو قريب من التراكيب المتراصة التى تؤدى فيها (الواو) وظائف صرفية مختلفة النماذج الأتية:
"أمر السلطان ألا ينزل أحد فى زرع الفرنج، ولا يسبب فرسا، ولا يوذى لهم ورقة خضرا، ولا يتعرض الى شى من مواشيهم ولا إلى أحد من فلاحيهم. ولم يترك أحدا من أمير ولا وزير ولا مقدم ولا مفردى ولا أحدا من خواصه ولا بزداريته ولا برداريته وساير حواشيه حتى عم الجميع بالخلع، وأحسن الى رسل الملك بركه، وكتب الى اليمن والى الأنبرور بالبشاره وأخرج جمله من الدراهم والغله والكساوى تصدق بها على الفقرا. (٢٢)
فى النموذج الأول استخدمت "لا، ولا" فى جملة مسبوقة بنفى وجاءت بهدف الربط بين

الجمل."ولا" هنا تعد حرف معنى للنفى. وكل الأدوات التى تقوم بوظيفة بين الجمل يعدها علماء اللغة حروف معان.

ومن الواضح فى النموذجين اللذين سقناهما من اللغة المصرية إن الاستعمال فيهما متطور وأنه مخالف لما عليه الألسنة العربية الوافدة، فقد ذكر ابن هشام: أن "لا" يجب تكرارها إذ دخلت على مفرد خبر أو صفة أو حال (٢٣)، ولم يذكر ابن هشام غير هذه المواقع بينما الموجود فى النموذج الأول والثانى مخالف لذلك.

ففى النموذج الأول نجد " لا " دخلت على فعل مضارع، وقد جاء فى نحو العربية أنها إن دخلت على مضارع لا يجب تكرارها، وفى ذلك يقول ابن هشام "وإن كان ما دخلت عليه فعلا مضارعا لم يجب تكرارها نحو: *لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، (٢٤) وقل لا أسألكم عليه أجرا. (٢٥)* ولكنها هنا دخلت على مضارع وكررت، ومعنى ذلك مناقضة الاستعمال لقواعد العربية الوافدة - فهذا متطور عن الاستعمال العربى- مناقض لما يجب أن يكون عليه، وكذلك ما جاء فى النموذج الثانى مخالف لما عليه الاستعمال ومتطور عنه.

ومن الأمثلة التى توضح تطورا فى استعمال بعض الأدوات فى اللغة المصرية استعمالهم (لا، ولا) بطريقة مخالفة للاستعمال العربى على نحو ما مر واستعمالهم أدوات الربط فى جواب الشرط بأن تقترن الفاء بجواب شرط (لما) و (لو) وتقترن اللام بجواب شرط (أن).

ونعطى أمثلة لنماذج مختلفة طورتها اللغة المصرية فى العصور الوسطى لاتعرفها ألسنة العرب.

الهوامش :

١- من الشواهد الآثارية على ذلك حجر رشيد وما كان ينسخ على منواله طوال الحكم البطلمى لمصر . فقد كتب هذا الحجر باللغتين المصرية واليونانية ، ونقشت اللغة المصرية بالحروف الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، ولقد استمر استعمال الكتابة الديموطيقية حتى القرن الرابع للميلاد خصوصا فى جنوب مصر وأسوان حيث تأخرت العبادات المصرية الى ذلك العهد. أما أحدث كتابة

أمثلـة لاسـتعمالات بعـض الأحـرف فـي اللغـة المصرية تغاير ما فى ألسنة العرب

الحرف عند العرب وبالأخص سيبويه ومن حذا حذوه هو ما ليس باسم ولا بفعل، والحروف من حيث التوزيع الموقعى لا تشغل مواقع الأسماء ولا الأفعال وإنما تؤدى وظيفة الربط بين وحدات الجمل.

وعلى الرغم من أن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض إلا أن هناك بعض الاستعمالات التى تشعرك فور سماعها بأن بها نوعا من التطور فى لغتنا المصرية ومن أمثلة ذلك :

" وأهانوا من امتنع من القيام للصليب " (٢٦)

ففور السماع تقول: لم لم يقل " امتنع عن"

ومثلـه: "وسـامح مـا تـأخر مـن البـواقى بـأرض مصر والشام" (٢٧)

فاذا كنت من العرب فانك فور السماع تقول: كيف عدت سـامح بنفسـها؟ لإنـك تنطقهـا (سـامح فيمـا تأخر..) وهذا مخالف للغة المصرية.

وأما نص "وفى ثالث عشرية رسم بمسامحة بنات الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزى بما وجب للديوان فى تركة أبيهم" (٢٨)

فاستعمل الباء محل (فى): فيما وجب للديوان فى تركة أبيهم، وقال أبيهم، دون أى التفات للعربية التى تصر على أن أبيهم هو "أبيهن".

ومثله فى استعمال حرف جر مكان آخر. مثال ذلك قول الوهرانى فى المنامات ص ٣٩: (ما أنت غريب من هذا الرجل، و لا أنت جاهل به) فأحلّ "من" محلّ "عن" مخالفاً فى ذلك العربية.

و مثال ذلك قول أبو صلح فى تاريخه ص ٤: (بناها عوضا من الكنيسة التى كانت). فاستعمل

هيروغليفية وجدت فى مصر فيرجع تاريخها الى عهد الامبراطور داكيوس أي الى منتصف القرن الثالث الميلادي "أنظر قواعد اللغة المصرية القبطية للدكتور جورجى صبحى-مطبعة المعهد الفرنسى-١٩٢٥ ص ٦، القاهرة ". وقد حدد الدكتور " ورل " التاريخ الذى أبطل فيه استعمال الكتابة الهيروغليفية والديموطيقية بقوله " استمر استعمال النصوص الهيروغليفية الى سنة ٣٩٤م ، والنصوص الديموطيقية الى سنة ٤٥٢م ".
Worrel : A short Account of the Copts, Michigan,1945 pp.8.9.
وان كان من المعروف ان الديموطيقية ظلت قائمة حتى قرب نهاية الاحتلال الرومانى فى ٤٧م عندما منعت رسميا، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت قائمة بين الشعب المصري حتى قضى عليها تماما عندما استعملت الكنيسة المصرية الحروف القبطية وتطوراتها اللغوية، وكان من الطبيعى ان تتعدد لهجات اللغة المصرية القبطية على نسق لهجات اللغة المصرية السابقة لها، فكان هناك حوالى ست لهجات هى: ١- اللهجة المنفية نسبة الى مدينة منف وتسمى حاليا البحيرية، وهى

"من الكنيسة" محل "عن الكنيسة" ومثله قول المسبحى فى كتابه "أخبار مصر" ص ٥٦: (عوضا من أبى طالب).
كما تبدل "عن" مكان "بعد" كما فى قول ابن ظافر فى كتابه "أخبار الدول المنقطعة" ص ٩٦: (فقالوا نحن نقتله عن أذنك)، فاستخدم "عن" بدلاً من "بعد". و فى السياق أستخدمت "على" بدلاً من "عن" كما فى قول المسبحى كتابه السابق ص ٤١: (وأعرض على الذين يتوصلون إلى الخدم بالتسويق والسعاية) فأستعمل "على" بدلاً من "عن". و قد تبدل "على" مكان "فى"، فيقول أبن ظافر فى كتابه السابق ص ٥٦: (وصار الناس على غاية الاضطراب).
"وكان الأمير جمال الدين... يكره قاضى القضاة.. ويضع من قدره ويحط عليه عند السلطان" (٢٩)، فالاستعمال العربى "يحط من قدره" أما قوله "يحط عليه" فهو مصرى بحت.
ومثله "وكان التكفور هيتوم ملك سيس لم يزل يسأل فى إطلاق ولده ليفون ويعرض فى فداه الأموال والقلاع "، العربية تقول "يسأل عن".
وقد يقال فى العربية "سأله العطاء" أما "يسأل من أو فى" فذلك من اللغة المصرية.
ومثله: "وسأل السلطان أن يحضر فامتنع من الحضور مالم يحضر قاضى القضاة".
العربية تقول: "امتنع عن" ويأتى التركيب هكذا... وامتنع عن الحضور إن لم يحضر.

كما تستعمل اللغة المصرية عدد من الوحدات اللغوية بطريقة غير متوفرة فى الألسنة العربية :

اللهجة التى أصبحت فى القرن ١١ بعد نقل الكرسى البطركى الى القاهرة، لغة الكنيسة المصرية ولا تزال تستعمل حتى الأن فى خدمة القداس. ٢- اللهجة الصعيدية "الطيبية": ولا تستخدم الأن إلا فى بعض الألحان الكنيسية بالقاهرة والوجه القبلى. ٣- الفيومية. ٤- الاخميمية. ٥- الاسيوطية. ٦- الواحية: لهجة الواحات الداخلة والخارجة والبحرية، وهى فى الغالب خليط من الفيومية والصعيدية. وليس من شك فى أن معرفة لهجات المصريين الحالية ووضع خرائط لغوية لها يمكن أن تلقى ضوءا كبيرا على الاختلافات الأصلية فى اللهجات المصرية فى الفترة القبطية.
وقد أدى استبدال الحروف الديموطيقية بالحروف القبطية الى عدة تغيرات فى اللغة المصرية وكتابتها منها:
أ-إدخال كلمات يونانية وأجنبية الى اللغة المصرية خاصة فى ظل الاحتلال اليونانى والرومانى.
ب-استبدال بعض الحروف أو تغيير موقعها فى الكلمة حتى تبعد عن أصلها المصرى وتخضع للمعتقد الدينى المسيحى مثل " نتر " التى تعنى " اله " فى اللغة المصرية، أصبحت فى القبطية "نوتى" بعد حذف

كما جاء فى الاستعمال الآتى:
"فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضا بمثله إلى ساير نوابنا"
لم ترد حين فى الاستعمال العربى مسبوقة "بمن".
ونجد أن "حين" التى وردت فى نص اللغة المصرية تصلح أن تكون شرطية: (حين بلغنا.. تقدمه) وهى مسبوقة "بمن" وكل هذا تطور فى استعمالها مخالف ما عليه فى اللغة العربية.

بالإضافة الى هذه توجد فى مصرية العصور الوسطى ظواهر لغوية لم تعرفها ألسنة العرب ومنها: ظاهرة حذف نون الأفعال الخمسة، هذه الظاهرة نجدها فى معظم مصنفات ذلك العصر، ومن الأمثلة عليها:

"يا أمراء المسلمين.. لكم زمان تأكلوا أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون". (٣٠) فقد حذف نون تأكلون فى حالة الرفع. ومثلها قوله:

"فصار إليهم السلطان وأختلط بهم فى السوق وهم لا يعرفوه (٣١)، و العربية تقول " لايعرفونه " فلم يتقدمها ناصب ولا جازم. كما جاء:

" وصار يكتبان للأعيان بطلب شى من إحسانهم ويوصلوها إليهم".

وقواعد اللسان العربى تقول "يوصلونها إليهم" ومثلها: "كيف مسككما هذه بمفرده، وأنتم لا تهابا رجالا كثيرة؟. (٣٢) وفى العربية "لاتهابان"، وجاء أيضا:

الراء و "نس" بمعنى لسان فى الديموطيقية أصبحت "لس" فى القبطية.
ج-استخدام كلمات أجنبية بدلا من المصرية مثال كلمة " نى فى " المصرية التى تعنى "نفس أو روح" فقد استبدلت بكلمة " بنوما " اليونانية التى تعنى الروح القدس، لأن مسيحيو مصر كانوا يعتقدون أن تسمية الأشياء المقدسة فى دينهم تتدنس إذا ما اتخذت أسماء مصرية "وثنية". كذلك استبدلت كلمة زواج المصرية بكلمة يونانية أخرى، وأبقيت الكلمة المصرية "زواج" لتعنى "الزنى" باعتبارها كلمة وثنية تدل على وضع وثنى فى علاقة الرجل بالمرأة.
د- اندثار بعض الكلمات الديموطيقية بسبب تعارضها مع الايمان المسيحى " أنظر رسائل مارمينا- الرسالة رقم ١٥ - ص ٩. وما بعدها.

٢- الخط القبطى: عرفت اللغة المصرية المكتوبة بالخط القبطى منذ أواخر الحكم البطلمى لمصر وبدايات الاحتلال الرومانى. وهى محاولة لاستبدال الأبجدية المصرية الديموطيقية بالأبجدية اليونانية .. ولا علاقة لهذه المحاولة بالمنطوق الشفهى الفعلى للغة المصرية. وقد أستمرت هذه المحاولة فى مصر فترة طويلة جدا بلغت ما يزيد عن ١٠٠٠سنة .. بدأ

"وكتبوا الى الملك الصالح نجم الدين يستدعوه" والعربية تكتبها "يستدعونه". ومثلها:

"وبعث يطلب تنقيص القطيعة التى حملوها لبيت المال بدلا مما كانوا يحملوه الى الفرنج. (٣٣) وفى العربية "يحملونه" وجاء: "وجلس شيخ الشيوخ نظام الدين بالمدرسة العادلية وعتب الناس لعدم ترددهم إليه، ووعد بالدخول فى صلح أمورهم مع غازان، وطلب الأموال وتعاظم الى الغاية واستخف بقبق وقال: خمسماية من قبق ما يكونوا فى خاتمى. (٣٤) وفى العربية "ما يكونون".
أنظر كذلك إلى هذه القصيدة التى كتبت فى عهد الملك الأشرف الأيوبى و نسبت إليه هاجياً فيها وزيره "فلك الدين المسيرى (نسبة إلى "المسير" و هى بلدة من بلاد محافظة الغربية، توفى عام ١٢٤٥ م.)، و قد ذكرها ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى:

ايش هو فلك — و ايش هى مسير
حتى يجى — منها وزير
و الله و لا — راعى حمير
كنت أجعلك
اسمك معار — ما تعرفه
و المال بالفول — تحسبه
و السرج بالصاد — تكتبه
ما أجهلك

من عام ٣٣٠ ق.م .. وحتى عام ٦٤٠ م. يقول أنطون ذكرى .. عالم اللغات القبطى الشهير .. فى كتابه المعروف (مفتاح اللغة المصرية القديمة) تحت عنوان (اللغة القبطية وكتابتها) ص ١٢٠: (فى سنة ٣٨٩ م. حرم الإمبراطور ثيودوس الديانات المصرية وأغلقت معابدها تنفيذا لأمره وأصبحت الديانة الأرتودكسية هى الديانة الرسمية للحكومة.. و أبطلت نهائيا الكتابة الهيروغليفية و الديموطيقية .. .. واقتبست الحروف الهجائية اليونانية لأستخدامها فى الدواوين و الكتابات الدينية بعد أن أضيف لها سبعة أصوات من اللغة المصرية بالخط الديموطيقى لعدم وجود ما يماثلها لفظيا فى الأبجدية اليونانية) ولم يكن لهذا الخط أى تأثير على اللغة المصرية الشفاهية التى كان يتكلمها المصريون فى كل بقاع مصر البعيدة عن مجال الدواوين الرسمية. وهكذا عرفنا.. أيها السادة هذا الخليط الوليد المحدود بالدواوين الرسمية.. و الذى رفضه الشعب المصرى لشذوذه الشديد مما أدى لمحدودية انتشاره. كما يقول أنطون ذكرى ص ١٢٤: (اندمج كثير من الكلمات اليونانية فى هذا الخليط الوليد

المسمى بالقبطية لأن أغلب الكتابات القبطية ترجمت من اليونانية فكان من السهل نقل الكلمات اليونانية إلى القبطية، نظراً لأن الكتبة الأقباط لم يكن في لغتهم المصرية كثيرا من الاصطلاحات الدينية للتعبير بها عن الأفكار الجديدة التي أدخلتها المسيحية في عقائدهم).

وعلى ذلك نستطيع أن نعرف ما يسمى باللغة القبطية على أنها : اللغة اليونانية المتداولة بين الجالية اليونانية في مصر (أنظر طريقة كلامهم حتى اليوم عندما يتلفظون الكلمات المصرية على قواعد اللغة اليونانية) وبعض المصريين الذين عملوا في دواوين المحتل الأجنبي ولا علاقة لها باللغة المصرية السائدة في ربوع الأراضي المصرية كافة على مر التاريخ.

و تحتوى الكتابة القبطية على ٣٢ حرف هي عبارة عن ٢٥ حرف يوناني أبجدي .. تم إضافة ٧ حروف أبجدية قيل أنها حروف ديموطيقية ! وإليك هذه الحروف الـ ٣٢ التي قيل أنها تمثل صوتيات اللغة المصرية القديمة ..

alpha - bita - gama - delta - epsilon (son) - zeta - ita - theta - iyota - kappa - lambda (laoula) - miu (mi) - niu (ni) - exi -

لو كان ف الـ   دنيا خبير
كان يركبك   فوق الحمير
و البوق خلـ   فك و النفير
و أنا أركلك
خلى القيا   دة و الفضول
كم ذا تخا   صم كم تصول
و تدعى   أنك رسول
من أرسلك
لو كنت أمـ   لك يا قبق
أمرك جعـ   لتك فى الحلق
عريان و فى   عنقك شلق

ظواهر لغوية تتصل بالمثنى وبجمع المذكر السالم

تعميم حالات المثنى وجمع المذكر السالم وجعله بالياء فى كل حالاته:

من الأمثلة على ذلك النص الآتى. جاء فى كتاب الاعتبار: "قالوا نريد ستماية دينار فضرط لهم وقال: أنا سرجندى، ديوانى كل شهر دينارين، من أين لى ستماية دينار. وفى العربية "ديناران" ومثلها: "وفيه خرنقين" وفى العربية "خرنقان". وظاهرة تعميم حالات المثنى هكذا ومثلها جمع المذكر السالم وجعله بالياء هو ما عليه الحال فى اللغة المصرية، كما أن المؤرخون والكتاب فى

الاستعمالات اللغوية لمصرية العصور الوسطى يجعلون جمع المذكر السالم بالواو في كل الحالات، ومن الأمثلة على ذلك النص الآتي: "المظفر صاحب حماة كان منتميا الى الصالح نجم الدين ومهتما بنصرته ويخطب له في بلاده وكان الحلبيون والمجاهد صاحب حمص معاندون له ومساعدون عليه، وفي العربية "كانوا... معاندين له ومساعدين عليه" ويعد هذا وما هو على شاكلته أيضا مناقضا للعربية الوافدة.

واتصالا بما نحن بصدد الحديث عنه وجدناهم يثبتون نون المثنى وجمع المذكر السالم في حالات الإضافة ومن الأمثلة على ذلك:

"ثم استقر ابن صصرى ناظر الدواوين بدمشق فانتدب النجيب أحد مستوفين الدولة" في العربية "أحد مستوفي الدولة".

ومن أمثلتها "ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها، فلولا نبادرهم كانوا خلصوا الوزة وقصوا أجنحة الصقور بمناقيرهم" والعربية تقول: "ستة طيور يضربن الصقور بأجنحتهن، فلولا نبادرهن كن خلصن الوزة وقصصن أجنحة الصقور بمناقيرهن".

استعمال فعل الجمع بدلا من الفعل المثنى مع وجود الفاعل

ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب السلوك:

"وخربوا التتر الجوامع والمساجد والمشاهد". (٣٥) وفي العربية "وخرب التتر". كما جاء في الاعتبار أيضا: "فلما زاد رأونا الحرامية" وفي العربية "رآنا الحرامية" وهذه الظاهرة موجودة

omikron (ou) - pai - rho - sigma (sima) - tau - hehou - yopsilon - fai - ki - epsi - : omega

وتنطق كما يلي : ألفا - بيتا - جاما - دلتا - إبسيلون (سو) - زيتا - إيتا - ثيتا - إيوتا (يوتا) - كابا - لمبدا (لولا) - مي - ني - إكساي - أوميكرون (أو) - باي - رو - سيجما (سيما) - تاو (تاف) - هيهو (هيه) يوبسيلون - فاي - كاي (كي) - ابساي - أوميجا (أوو) . ثم سبعة حروف :

shai - fai - khai - hori - guanga - tshima - ti

شاي - فاي - خاي - هوري - جنجا - اتشيما - تي

سنلاحظ هنا أن حروف اللغة القبطية لا تحتوي على الكثير من الحروف المميزة للغة المصرية القديمة التي وردت في كافة المراجع الهيروغليفية والتي اتفق على صحتها كافة علماء المصريات مثل :

حرفي العين (ع) و حرف الحاء (ح) و غيرهما .

وكمثال : كيف نكتب بالحروف (القبطية) الأسماء التالية :

عزيز / حبيب / هاني / خليل / غالي / شكري / داوود /

بوفرة فى كتب التراث ومطردة حاليا، لأن فى هذه الظاهرة مرضاة للعقل حيث أنها تتفق مع المنطق العقلى ومخالفة لألسنة العرب.
وفى هذا المجال يطالع الدارس مناقضات لألسنة العرب فيما ينبغى أن يكون عليه تمييز العدد حيث نجد تميز أعداد الألف بالمفرد نحو عبارة: "أربعة ألف دينار" وعبارة "ستة ألف دينار مصرية" وعبارة: "أربعة ألف مجلد من الكتب الفاخرة".

دلالة العبارة و الجملة فى اللغة المصرية

إن النشاط الكلامى ذا الدلالة الكاملة لا يتكون من مفرداتها فحسب، و إنما من أحداث كلامية أو امتدادات نطقية تشكل جملاً تتحد معالمها بسكتات أو وقفات أو نحو ذلك. من هنا فإن علم المعنى لا يقف فقط عند معانى الكلمات المفردة القاموسية لأن الكلمات ما هى إلا وحدات يبنى منها المتكلمون كلامهم، ولا يمكن اعتبار كل منها حدثاً كلامياً مستقلاً بذاته بل العبرة بالعبارة الكاملة المشكلة من المفردات. لهذا يرى الكثير من علماء اللغة أن العبارة هى أصغر وحدة لغوية ذات معنى، لأن معانى العبارات هى التى تحقق الوظيفة الأساسية الثانية للغة، وهى الاتصال بالآخرين (فضلاً عن وظيفة التعبير). فمعنى اللفظ لا يحقق اتصالاً مع الآخرين إلا إذا استخدم فى سياق العبارة مع غيره من المفردات.
ولهذا تعد العبارة الصيغة اللفظية ذات المعنى، وهى تحقق ذلك (أى المعنى) حين :
١ـ تتكون من مجموعة من المفردات ذات معنى.
٢ـ وحين يتم الربط بين هذه المفردات فى سياق العبارة بناء على قواعد صياغة اللغة أى بناءها.

رياض / سمير / ويصة / عطية / تادرس ؟.
عند محاولة كتابة هذه الأسماء بالحروف القبطية نفشل فشلا ذريعا ! لسبب بسيط جدا هو أنه لم يوجد حروفا قبطية مناظرة لهذه الحروف.
ومازالت نفس المشكلة قائمة حتى اليوم عندما ننطق أسماء آباء الكنيسة المصرية القبطية.
هكذا نرى بوضوح تام من خلال المقارنات الصوتية الواضحة للأبجديات المصرية القديمة والقبطية أنه لا يوجد علاقة قوية بينهما..
وإنما هى كانت محاولة لمحو اللغة المصرية من جذورها واستبدالها بلغة المحتل الأجنبى تحت مسميات مختلفة. فى الوقت الذى ترى فيه أن أبجدية اللغة العبرية (التى تسبق اللغة القبطية والمستمدة من العلامات الصوتية الهيروغليفية) تحتوى على الكثير من أصوات الحروف المصرية كما يلى: ألف - بيت - جيمل - دالت - هه - واف - زاين - حيت - طيت - يود - كاف - خاف - لمد - ميم - نون - ثمخ - عاين - فه - صدق - قوف - ريش - شين - سين - تاف ـ أل
ونلاحظ أن اللغة العبرية تحتوى على كثير من الأصوات المصرية القديمة مثل :

وهذه القواعد توضح لنا كيف يمكن صياغة عبارات مختلفة من أنواع من الكلمات والمفردات المتعددة.

من هذا يتضح أن لمعنى الكلمة مراتب تتضح من سياق التراكيب التى تستخدم فيها، وكلما كان النص الفنى جيداً ازدادت طبقات المعنى فيه تعدداً.

ولكن إذا كان هذا حال المفردة التى قد يتحدد معناها بتعدد التراكيب والصياغات التى ترد فيها، فإن هناك شيئاً هاماً يجعل معنى المفردة يختلف عن معناها القاموسى، أى معناها منفردة أو داخل السياق بشكل عام، بل لمعناها فى داخل سياق محدد وتركيب مخصص لتكوّن لنا ما يعرف بالعبارة، وهى التى تتسم بدلالة خاصة لاتكتسبها من معانى مفرداتها بل من ذلك التركيب الخاص الذى يعطيها معناها المحدد كعبارة مستقلة. ولذلك كان تعريف العبارة دلالياً هى تلك التى لا يفهم معناها الكلى بمجرد فهم معانى مفرداتها وضم هذه المعانى بعضها إلى بعض. فى هذه الحالة نصف المعنى بأنه تعبيرى Idiematic. و يدخل تحته (أى تحت أنواع دلالة العبارة) الأنواع الثلاثة الآتية:

١- التعبير Idiem.

٢- التركيب الموحد Unitary Complex.

٣- المركب و التعبير المركب، Compesite، Compesite Expressien.

مثال النوع الأول كل التعبيرات المكونة من تجمع من الكلمات تملك معانى قاموسية، ومعانى غير قاموسية مثل التعبير "ضرب كف بكف" الذى يحمل معنى "تحير". أما التعبير الموحد فمثاله "بيت الفرعون" الذى يعنى فى المصرية عاصمة

(العين - القاف - الصاد - الحاء - الطاء) والتى تفتقر إليها اللغة القبطية !

وهذا يعنى أن الكتابة القبطية لم تكن منتشرة فى كل أرض مصر. أما الدليل القاطع على أن اللغة المصرية القديمة هى نفس اللغة التى نتكلمها الآن .. هو أننا رفضنا التخلى عن الأسماء المصرية القديمة المتوارثة جيلا بعد جيل .. مثل أسماء:

عزيز - أمجد - منير - غالى - جميل - مجدى - سمير - ويصة - سامى - يسرى - ميلاد - سعيد - نخلة - سمعان - أمين - غالب - فؤاد - نسيم - حلمى - محب - عطية - سيدهم - زاهى - حنا - حبيب - شاكر - وفيق - فوزى - رياض - يوسف - موسى - داود - نعيم- خليل - شكرى - لبيب - سيد - فايق - وهبة - وهيب - فرج - بشرى - إلخ

كل هذه الأسماء كانت سائدة فى مصر بين المصريين مئات السنين قبل الاحتلال العربى ورفضت معظم العائلات المصرية التخلى عنها لأنها أسماء مصرية خالصة .. مما يؤكد صحة أن اللغة المصرية لم تتغير شفهيا منذ القدم وحتى يومنا هذا.

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن إشكالية ما يسمى باللغة العربية هى ذاتها إشكالية ماسمى باللغة القبطية مع

الملـك، فهـو هنـا لايشـير إلـى مبنـى، ولكـن إلـى العاصـمة والمؤسسـة السياسـية المصـرية، وعلـى هذا لا يمكن وضـعه مع الكلمات التى تدل على الاقامـة مثـل: فيلا، كـوخ، قصـر، ولا حتـى بيت، ولكـن يجـب وضـعه ضـمن مجـال المؤسسـات الحكومية.

أما المركبـات أو التعبيرات المركبـة فتختلف عن التركيبات الموحدة فى أن الكلمة الرئيسية فيها ما تزال تنتمـى إلى نفس مجالها الدلالى مثل "بيت الطلبة" و"ثكنات الجيش" و "عجلة السيارة"... الخ.

هـذه الأنــواع الثلاثـة نجـد نماذجهـا فـى اللغـة المصرية و شاعت على عهد الفاطميين و فترة الحروب الصليبية كما يلى:

أولاً: التعبير Idiom: مثالها تعبير مازال وارداً حتى اليوم وهو "أطيّب قلبك" فقد ورد فى تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع: (والآن فأنا أطيب قلبك بالأسرار الجليلة) وكذلك قوله: (فقالو طيب قلوبنا كما تعلم لأجل ميلاده) وقوله: (حتـى ظهر لـه مـلاك اللــه وطيـب قلبـه). وفـى "منامـات الـوهرانى ورد قولـه: (طيبـى قلبـك مـن جهتـى). وفى أخبار مصر لابن ميسر: (و نفذت المكاتبات إلـى أعمـال مصـر بتطيب قلـوب النـاس) وقولـه: (وطابت نفوس أهل البلد بذلك). و كل من هذه المعانى تختلف عن المعنـى فـى معظم القواميس التى بين أيدينا للكلمة "طيب" و التـى تعنـى فـى هذه العبارات معنى واحد هو "ترضية النفس، أو النـاس، أو "القلـب". وهنـاك دلالـة أخـرى لهـذه الكلمة ترد فى "منامات الوهرانى": (قد عاقونى عن دخول الجنـة لأجلـه فقلت لـه: طيب واللـه طيب) وهذه العبارة تعنى التوعد والتهديد.

بعض الإختلافات البسيطة . ولعل أحد الأسباب الأساسية التـى أدت الـى تحـول اللغـة المصــرية الــى الكتابــة بالحروف القبطية- اليونانية ، ومـا تبـع ذلـك مـن بعـض التحـولات اللغويـة يعـود الـى هذه الفترة . ففى الوقت الذى حـارب فيـه الرومـان، ومـن قبلهم المقدونيون، هذه اللغة الوطنيــة كانــت المؤسســة الدينيـة القبطيـة و كنيتها فـى حاجـة الـى هـذه اللغـة لنشر معتقدها المسيحى بين الشعب المصرى الذى لم يكن يعرف لغـة سـواها، واعتمـدت هـذه المؤسسـة فـى عملهـا علـى كتابـة عدد من المخطوطات الدينيـة باللغـة المصـرية ذات الحروف القبطيـة – اليونانية هروبـا من الكتابـة بـالحروف الديموطيقيـة المصـرية لأنهـا حروف الكتابات الوثنية، أى الفرعونيــة، وكانـــت هـــذه المخطوطــات تحتــوى علــى النصوص الإيمانيـة ورسـائل الآباء البطاركة، لتلقى شفاهة علـى المـؤمنين الأميـين فـى الكنايس أما ما عدا ذلك من إبـداعات اللغـة المصــرية - سـواء فــى مجــال الفنــون، والآداب والعلـوم والفلسـفة - فقد تم تجاهله. (٣)

وقــد أدت سياســة التعلــيم الشفاهى هذه ، والتى اعتمدت على التلقين والحفظ ، وعدم وجـــود مـــن يحمـــى المخطوطـــات والمؤلفـــات المكتوبة باللغة المصرية، إلى

ومن العبارات التى شاعت فى هذا العصر ما ورد فى "تاريخ البطاركة": (فأتفق رأيهم ... على رجل مختار خايف من الله) وقوله: (وكان رجل خايف من الله). وقال ابن العسال فى كتابه "المجموع الصفوى": (و يربى أولاده بخوف الله). ونحن إذا رجعنا إلى المعنى القاموسى للكلمة سنجد أنها تعنى الخوف والذعر، ولكنها هنا استخدمت فى العبارة السابقة بمعنى التقوى والصلاح.

وهناك تعبير آخر ورد فى تاريخ البطاركة: (وقال لهم السيد يسوع المسيح يسهل طريقى) وقوله: (ان الرب سهل طريقى) وقوله: (أنت الذى تسهل طريقى). وفى منامات الوهرانى ورد قوله: (أن يحكى حكاية الفقير الذى طلب من الهراس لقمة فقال: (يسهل الله لك) و التى صارت متداولة الآن على النحو التالى: (ربنا يسهل لك). و فى المجموع الصفوى للعسال: (... وكن كرجل الله طويل الروح و لا تتسهل)، و"سهل" هنا وردت فى هذه العبارت بمعانى مختلفة لا ترد فى القواميس. و"لا تتسهل" عند العسال تعنى عدم التساهل.

ومن تلك العبارات أيضاً ما قاله ابن العسال: (فليس لهم أن يحلو و لا يربطو فى سنن الكنيسة)، فهذه العبارة تعنى أنه ليس لهم أى شأن بأمور الكنيسة، أما "الحل و الربط" فمعناها القاموسى هو فك الحبل أو ربطه.

ثانياً: التركيب الموحد Unitary Complex:

وهو تعبير يحتوى على كلمة أولى وكلمة متصلة بها وهما لايشيران إلى معنى الكلمة الأولى مطلقا. من هذه العبارات التى تعد من التركيب الموحد تلك التى تحمل معنى واحداً لا تعطيه كل

طمس العديد من مظاهر الحضارة المصرية وثقافتها، وأصبح من النادر أن نجد بين المصريين - بوجه عام - من يتقن كتابة لغته ويفقه محتواها الثقافى. مما سهل على العرب، بعد غزوهم مصر، احلال الحروف النبطية محل الحروف القبطية فى كتابة اللغة المصرية الحالية.

هكذا اتبع وتابع الحكام العرب والمسلمون فى مصر سياسة الرومان. ففى السنوات الأولى من حكم العرب لمصر لجأوا الى كتاب الدواوين الذين كانوا يعملون فى ظل الادارة الرومانية البيزنطية ليديروا لهم شئون البلاد. ولما كان هؤلاء الكتاب يمارسون عملهم على أساس استخدام اللغة اليونانية الى جوار اللغة المصرية المكتوبة بالحروف القبطية، فقد أمروا فى أول الأمر بكتابة الألسنة العربية بالحروف القبطية. (٤) ومع الوقت أمروا باستبعاد الحروف القبطية وأحلوا محلها الحروف النبطية. (٥) وتطلب ذلك من كتاب الدواوين أن يطوروا كتابة الألسن العربية واللغة المصرية بالحروف النبطية - وهى الحروف التى طورها المصريون لتكون آخر أشكال كتابة اللغة المصرية - ذلك ان العرب بعد غزوهم لمصر توجسوا من استخدام

المصريين للغة المصرية فى حديثهم اليومى وممارسة شعائرهم الدينية، وقلقوا من حالة الإبهام المسيطرة عليهم، (٦) فأجبروا المصريين على استخدام كل وسائل الترجمة المتاحة لنزع ستار الإبهام المستغلق بينهم وبين المصريين. حتى أنهم أجبروا الباعة فى الأسواق على المناداة على بضائعهم وسلعهم باللغة المصرية واللسان العربى، فكان البائع المصري ينادي على المدمس بمرادفه القريب من فهم البدوى العربى وهو "الفول" وعلى "الحلوم" مع مرادفها العربى "الجبن" .. وهكذا شأن بقية الألفاظ.

وبالتدريج اندثرت حروف الكتابة المصرية القبطية وسادت الحروف النبطية التى ابتلعت بعض صوتيات اللغة المصرية(٧) وظلت قاصرة عن استيعاب بقية أصواتها حتى اليوم. و هذا هو الوضع الذى تحولت بموجبه اللغة المصرية إلى الكتابة النبطية، كما كان الحال بالنسبة للغة الفارسية التى تكتب حتى اليوم بنفس الحروف وكذلك اللغة التركية التى كانت تكتب بهذه الحروف حتى قيام الدولة التركية الحديثة وإلغاء الخلافة الإسلامية بها فى أوائل القرن العشرين.

كلمة منفردة عن العبارة مثل "قويت شوكته"، فالمعنى الآتى من هذا التركيب هو زيادة قوة ذلك الشخص، ولا يعنى اطلاق المعنى المباشر للفظ، فالشخص ليس له شوكة لتقوى. ومن أمثلة ذلك ما ورد فى "أخبار مصر" لابن ميسر: (فيها قويت شوكة الأتراك و طمعوا فى المستنصر، وقلّ ناموسه عندهم)، وقوله: (وفيها ابتدت الوحشة بين ناصر الدولة وبنى حمدان وبين الأتراك من أجل أنه قويت شوكته). فهذه العبارة لاتحمل غير معنى واحد نتج عن عن تجمع الكلمتين "قويت" و"شوكة"، والمعنى الظاهر غير المقصود. ومثلها أيضاً قول ابن ميسر: (سعى فى قتل ابن حمدان ليتنفس خناقه)، فعند قتل ابن حمدان لا يتنفس الهواء، بل يحصل على حريته، وهو المقصود بالعبارة. و مثال آخر ورد فى " تاريخ البطاركة": (بخلاص نفسه من شباك الموت) بمعنى أنه تخلص من الموت فجعل للموت شباك ثم أضافها إلى الموت ليشير إلى خطورة هذا الشىء. وهذا التركيب لا يشير إلى المعنى الأولى المباشر للكلمات بل يشير إلى معنى جديد هو حيل الموت فى اصطياد الإنسان بشباكه.

وهناك عبارة أخرى فى المنامات هى: (يقلب عليهم الأرض) وهى تعنى شدة البحث عنهم، ولاتعنى انه يقلب الأرض، فهذا المعنى غير مقصود مطلقاً.

ثالثاً : التعبير المركب Composite أو Composite Expression: وهى عبارات تحمل معنيين يصح اطلاقهما عليهم، أى أنها تعنى المعنيين فى وقت واحد، مثل ما ورد فى منامات الوهرانى: (أنا ما أقدر أوقع عينى فى

عينيـه) فهـى تعنـى عـدم القـدرة علـى مواجهـة الشخص الآخر، كما تعنى شدة الخجل منه، ولهذا فهذه العبـارة تحمـل معنيـين يصـح أن يقصـدهما المتكلم فى وقت واحد.
وعند الوهرانى كذلك نجد عبارة: (ولم يظهر لها حس ولا خبـر)، هـذه العبـارة تعنـى اختفـاء هـذه المرأة و انعدام أخبارها، فعبر بكلمـة "حس" عن أختفـاء صـوتها، أى لـم يعـرف عنهـا شـىء و هـذا مقصـد العبـارة، وإن كـان هـذا لا ينفـى المعنـى الظاهرى للعبارة.
وقد ورد فى المجموع الصفوى لابن العسـال: (ما هذا يهمنـى فيفترقـا، ويكـون كلاهمـا محـرومين)، فعبارة "ما هذا يهمنى" تحتوى علـى كلمـة "الهم" أى الحـزن أو القلـق، وعنـد تركيبهـا مـع "مـا" أصبحت تعنى عدم القلق أو الحزن و كذلك عدم المبـالاة أو السـخرية كمـا وردت فـى عبـارة ابـن العسال السابقة، فهى تحمل المعنيين. وقد تطورت عبارة أخرى من هذه العبارة هى "ما يهمنيش".
وفى عبارة أخرى يقولها ابن العسـال: (فـى وقت صياح الـديك)، وهـو يعنـى بصـياح الـديك طلـوع الفجـر، فجعـل من هـذا الحدث إشـارة إلـى ميقـات محـدد وهـو الفجـر، وهـذا لا ينفـى معنـى العبـارة الظاهر.

يهمنا أن نشير لما ذكرناه فى السياق السـابق إلـى أهميـة تحليـل العبـارات فـى الأمثـال الشـعبية المصرية وما شابهها من العبـارات السـائرة، لأننـا سنجد فيها نماذج هائلة على ما سبق وذكرنـاه فـى دلالة العبارة فى اللغة المصـرية ومـدى خصـوبتها ومساهمتها فى تطوير هذه اللغة الحية التى سـادت المنطقة لعهود طويلة ومازالت.

٣- أنظر مقال تحت عنوان "المصريون اخترعوا المقاومة الشعبية" للكاتب فى جريدة الدستور القاهرية فى ٩٦/٢/٢٨ يدور حول أدب الشهداء المصريين قبل المسيحية.
٤- كان ذلك بناء على أوامر الإمبراطور ثيودس فى عام ٣٨٩م. أنظر مقال للكاتب فى جريدة الدستور القاهرية فى ٩٦/٥/٢٢ تحت عنوان "المصريون دافعوا عن المسيحية قبل أن يؤمنوا بها".
٥- يلاحظ فى هذا الشأن أن البابا جريجور الكبير وجه تعليمات الى رجال الدين التابعين له يقول فيها : "لتكن كلمتكم هى الكتاب".
٦- بعد استيلاء المسيحيون على المعابد المصرية وتحويها إلى كنايس- كما حدث فى مكتبة ومعبد سيرابس/أوزير باسكندريا والاستيلاء على مكتبات هذه المعابد، تمكن بعض المصريون من إنقاذ بعض هذه المخطوطات ودفنها تحت الأرض. وقد اتبع نفس أسلوب الدفن هذا مع المؤلفات التى كتبت كمحاولات لوضع رؤى دينية مختلفة تحت تأثير الفلسفات والمعتقدات المصرية وبخاصة الأوزيرية وبشرت بمسيحية لا توراتية كما الحال فى المريمية، وحاربتها الدولة الرومانية المسيحية على أساس الحجة التوراتية

التي تعتبر أن هذه المعتقدات وثنية. فقد عثر في عام ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات التي تحتوي على تعاليم "ماني" محفوظة الآن في متحف برلين، وفي عام ١٩٤٦ عثر في مدينة نجع حمادي على خبيئة من البرديات تحتوي على العديد من مخطوطات الفلسفة "الغنوصية" و"الهرمسية"، هذا الى جانب المئات من برديات "أعمال الشهداء المصريين" قبل المسيحية وبعدها التي سرق معظمها وتوجد في مكتبات الدول الأجنبية.

٧- من المعروف أن القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية كانت تستخدم لغات ذات صوتيات ومفردات مختلفة ومتعددة وغير موحدة. وذلك بسبب الروح القبلية الشديدة الرافضة لفكرة الدولة، مما أدي إلى عدم قدرتهم على إبداع حروف للكتابة قادرة على استيعاب هذه اللغات ومفرداتها. وقد واجه عثمان بن عفان الخليفة الثالث هذه المشكلة عندما حاول جمع القرآن في كتابة واحدة. يقول ابن خلدون في مقدمته "إن الكتابة هي المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية، وهي تابعة في نموها وتطورها بتقدم العمران والحضارة، والكتابة لهذا السبب تنعدم مع البداوة وتكتسب بالتحضر، ولا

لغة الجبرتي في سلسلة تطورات اللغة المصرية

ولعل من المناسب هنا أن نلقى الضوء بشكل من التفصيل على خواص لغة الجبرتي في مستوياتها المختلفة، أصواتها ونحوها ومعجمها وذلك من خلال كتابه "عجايب الآثار" لكي نستدل منها على استمرارية تطور اللغة المصرية باعتبارها دليلا على استمرار حيوية الشعب المصري ومقاومته الحضارية للغزوات الثقافية الأجنبية:

ولنبدأ بالأصوات: تشترك الألسنة العربية مع اللغة المصرية عند الجبرتي في نطق بعض الأصوات المهموسة (وهي مجموعة في قولك "حثه شخص فسكت") باستثناء أصوات "السين" و"الذال" و"الظاء" و"القاف"، حيث تختص الألسنة العربية باستعمال هذه الأصوات. في الوقت الذى تنفرد فيه مصرية الجبرتي بأصوات الجيم، والجيم المعطشة مثل "بيجامة" و"اباجورة". والهمزة المنقلبة عن القاف العربية مثل: ألت = قلت، و"الظاء" المنقلبة عن "الضاد" في مثل ظابط = ضابط. وقد ساعدت صوتيات هذه الحروف المصرية الجبرتي على استيعاب كثير من الألفاظ الدخيلة للغة المصرية من الألسنة واللغات التركية والفارسية والفرنسية والإيطالية والألمانية واليونانية والأسبانية وغيرها.

ففي لغة الجبرتي ثلاثة أصوات للجيم، هي الجيم التراثية، والجيم المعطشة التي استخدمها في الكلمات المقترضة من التركية والفارسية مثل : (ينكجرية)= انكشارية و(جراكسة) = شراكسة (جاهين) = شاهين، (لاجين) = لاشين، (جلبي) = شلبي الخ .. والجيم المصرية الموجودة في الكلمات (حجنه) وتعني النباتات الشائكة التي تنمو

علـى حـواف المجـارى المائيـة. و(جفيط) صـفة اللحـم الـردئ، و(جـوخ) نـوع مـن القمـاش، و(جوابـات) بمعنـى الخطابـات، و(كرباج) بمعنـى سوط، و(خُرج) بمعنـى وعـاء كبيـر توضـع فيـه الأشـياء، و(جنابيـه) بمعنـى وعـاء يوضـع علـى جانبى الدابـة يحمل فيه بضائع الباعـة الجوالين.. الخ..

كما توجد فى لغة الجبرتـى صـورتان للقاف همـا: القـاف التراثيـة وتستعمل فـى الكلمـات المقترضـة مـن التركيـة مثـل "قليونجيـة" بمعنـى بحـارة، و"صـنجق" بمعنـى أميـر، و"قـابجى" بمعنـى رسول، والقـاف التـى تنطـق فـى المصـرية همـزة مثل "قفـاطين" و"قهوة" و"رقاصـة" و"عرقانـة" و"عراقـى" بمعنـى غطـاء للـرأس و"غلقـان" و"ققف".

ولا يستعمل المصريون فى لغتهم "الثاء" ويحلون محلهـا "التـاء" فـى مثـل "تلاتـة" محـل "ثلاثـة" و(أتـر = أثـر) و(أتنـين = أثنـين) و ارتـودكس= أرثـوذكس، ونلاحـظ هنـا اسـتبدال الثـاء بالتـاء وكذلك استبدال الذال بالدال، وينطبق ذلك على بقية الأصوات (مابين الأسنانية) (الذال والظاء).

كما استعمل الجبرتي صوت (الياء) بديلا لصـوت "الهمـزة" يسـيرا=أسـيراً، ومايـة= مائـة، كمـا تستوعب لغـة الجبرتـى المصـرية نطـق أصـوات الحركات فى اللغـة التراثيـة وتزيد عليهـا أصـوات الحركة الناتجة عن: الكسرة التى يتولد من نطقهـا "ياء" كما فى نطق الكلمات (محمدين، عوضين، الاتنين، حسنين. الخ ..) والضمة الطويلة كما فى الكلمات (هون، يوم، عوف).

وخلاصـة هـذا الكـلام أن لغـة الجبرتـى المصـرية فـوق أنهـا تحتـوى علـى أصـوات الألسـنة العربيـة

يصـيبها البـدو عـادة إلا المقيمين على تخوم المدن.

٨- وهـو مـا عـرف بسياسـة تعريـب الـدواوين علـى أيـام الوليـد بـن عبـد الملـك ابـن مـروان سـنة ٧٠٥ وذلـك بتطـوير حـروف الكتابـة النبطيـة. وفـى هـذه الفتـرة أضيف "الجنكم" وهو نقطـة أو شـرطة توضـع فـوق الحروف لإعطـاء صـوتيات إضـافية للحـروف النبطيـة. أنظر فى ذلك أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية لأدولف جروهمـان، السفر الأول حيـث نلاحـظ أن صـوتيات اللسـان العربـى كانـت تكتـب بحـروف قبطية/يونانية، ثم انقلب الأمر فـى فتـرة تاليـة لتكتب اللغـة المصرية بـالحروف النبطيـة المطورة بدلا من الحـروف القبطيـة (ويرجـع ميـل البـدو العرب إلى استخدام الحروف النبطيـة لعـدة أسـباب منهـا أسواق الأنباط التجارية التى كانـت منتشـرة مـن جنـوب فلسطين و سيناء حتى يثرب حتـى القـرن الخـامس الميلادى، ومن المعروف أن هذه الكتابة مشتقة من الكتابة السينائية المصرية.

٩- نظرا للمستوى الحضاري والثقافى الضعيف الذى كـان يسـود بـين قبائـل الجزيـرة العربيـة وجهلهـم بحـروف الكتابة وعزوفهم عن التعلم لأنهم أهل حرب وغزو، فقد تركـت الـدواوين الرسـمية

والحكومية في يد المصريين الذين تعلموا الكتابة بالحروف النبطية/العربية، ووضعوا لها مصطلحاتها الحضارية والثقافية والإدارية والمالية التي كان يجهلها العرب، وقد ساعد ذلك بشكل مباشر على تطوير اللغة المصرية الحديثة ووضع أشكال كتابتها الجديدة - المتأثرة بالحروف النبطية القديمة - والتي لم تعرفها الجزيرة العربية من قبل فأدخلت النقاط فوق الحروف بالجنكم المصري- وتحتها، ووضعت علامات للدلالة على الحركات الصوتية القصيرة، وتشديد الساكن، والسكون والهمزة والأصوات الحلقية وعدم التلفظ عند توصيل الكلمات، وألف المد وتنوين أواخر الكلمات وتغير شكل ووضع الإشارات بالنسبة لجسم الحرف.

وقد أدت عمليات التطوير هذه على يد المصريين إلى نتيجة هامة للغاية، فقد تضخمت واشتملت على أنظمة ثقافية عالية حتى أن العرب انقطعت صلتهم بهذه اللغة الجديدة وصاروا عند الحاجة يتعلمونها على يد المصريين قديما وحديثا.

ومازالت الجهود لتطوير هذه اللغة مستمرة حتى اليوم، حتى أنه في مجال كتابة الصوتيات المصرية بالحروف ذات الأصول النبطية محاولات مثل إضافة

تتفوق عليها في أصوات خاصة وأنماطا من المقاطع لا نجدها في هذه الألسنة.

وفي مجال الصرف: أحلت لغة الجبرتي المصرية صيغتي "انفعل" و"تفعل" محل المبنى للمجهول التقليدية في ألسنة العرب، وذلك بعد تحويرهما صوتيا بما يتلاءم معهما، فصارت صيغة "فعل" فيها "انفعل" مثل:

إنضرب= ضرب، وإنطعن= طعن. وصارت صيغة "تفعل" منها "اتفعل" مثل: اتكسر= كسر في لغة التراث، اترمى= رمى، انجر= جر، انحط= حط، انحصروا = حوصروا، انحلت= حلت، انفصل عن القضاء= فصل، انجرح= جرح، انهرس = هرس، انهبط= هبط، انغرز= غرز.

ويتحتم علينا أن نتعرض كذلك لموضوع البناء للمعلوم والبناء للمجهول لنوضح أن الجبرتي في لغته المصرية استعمل صيغتي (اسم الفاعل واسم المفعول) استعمالا متميزا، فالصيغة الأولى تدل في ألسنة العرب على الحدث ومن أوقعه، والصيغة الثانية تدل على الحدث ومن أوقع عليه هذا الحدث، بيد أن الجبرتي في لغته يستعمل اسم الفاعل للتدليل على الحدث ومن أوقع عليه وليس من أوقعه مثل: (وكان هو المتعين في الإفتاء) ويعني: المعين، و(سافر محمد باشا المنفصل) ويعني المفصول من نيابة مصر، و"انقطع الجالب" ويعني المجلوب.

أما صيغة اسم المفعول فقد استعملها الجبرتي في لغته المصرية استعمالات غير معروفة في ألسنة العرب مثل (مكسوف البال) بدلا من كاسف، ومثل (اوراق مدشته) لا يوجد فعل لهذه المادة في ألسنة العرب، و(التخيلات على المتهومين)

ويعنى المتهمين.
كما يستخدم الجبرتى فى لغته المصرية جمع صيغة اسم المفعول على "مفاعيل" مثل (مجاريح، معاليم، مساتير) وهذا غير معروف فى ألسنة العرب.
وفى مجال التراكيب النحوية: سنلاحظ على لغة الجبرتى المصرية ما يلى:
(١) استخدامه المعادلة التركيبية اسم + فعل (ماض أو مضارع) بدلا من الشائع فى لسان العرب فعل + اسم .
مثل: المراكب وصلت.
ـ عبد العال الأغا طلق زوجته
ـ أهل الأرياف القريبة تأتى بالميرة.
ـ أفرنج أحمد يلبس حكم قانونهم.
ـ وعلى بك الوزير قتلوه أيضا وهو داخل يظنوه مصطفى بك.
وفى الجملة الأخيرة لا نجد لها أى تشابه فى لغة التراث سواء من ناحية المستويات الصوتية والصرفية والنحوية وعدم مراعاة إعراب أواخر الكلمات. بدليل استعمال صيغة المضارع المرفوع (يظنوه). مجردة من علامة الرفع وهى النون (يظنونه).
ويتخذ الجبرتى فى استعمالاته للجمل التى تقع أحوالا أو صفات سلوكاً لا صلة له على الإطلاق باللسان العربى حيث لا تتحقق لهذه الجمل ما تحدده لها ألسنة العرب من وظائف لغوية معينة.
ومن الأمثلة على ذلك:
(فأغرى به رجلا كان عنده بناحية طلخا يضرب نشابا).
فألسنة العرب تورد هذه الجملة هكذا:
(١) فأغرى به رجل.

حرف ال "ج" المعروف بالقاهرى وحرف ال "ض" لصوتية مصرية مجهولة تماما عند البدو العرب، حرف "ب" وحرف "ف"...الخ، وأن كان البعض قد ذهب إلى نبذ تطوير الكتابة المصرية على أساس الحروف النبطية بسبب قصورها الواضح فى استيعاب صوتيات اللغة المصرية واستبدالها بالحروف اللاتينية أو الروسية -التى أخذت بعض حروفها من الديموطيقية- أو العودة الى الحروف الديموطيقية والقبطية أسوة بالشعوب التى ما زالت حتى اليوم تحتفظ بحروف كتابتها الأصلية مثل الصينية بالرغم من صعوبتها الشديدة التى لا تقارن بسهولة الحروف الديموطيقية القبطية- أو الاستمرار فى جهود تطوير الحروف القائمة الآن حتى نتمكن من التعبير عن صوتيات اللغة المصرية والحصول على نظام كتابى مناسب. أنظر فى ذلك " أصوات جديدة لحروفنا العربية " فى كتاب " معجم الألفاظ العامية " وضع د. عبد المنعم عبد العال مكتبة الخانجى ١٩٧١ .
١٠ -يقول المقريزى عند كلامه عن دير موشة " وتغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدي وهى أصل اللغة

(٢) كان عنده بناحية طلخا.
(٣) يضرب نشابا.

وينتج لنا تتابع الجمل انساقا من الأفعال غير مألوفة فى ألسنة العرب مثل: (كان أراد محمد بك تلبيس مصطفى اغا) و(وهو أخو على باشا الذى كان يسيرا) و(أرسل الباشا إلى مراد بك الدفتردار يعمل جمعية فى بيته) و(طلبوا يركب معهم يأخذون بثأره).
وفى أزمنة الأفعال تقتصر ألسنة العرب على الماضى و المضارع و الأمر ولا نجد عندها ما نسميه بالأفعال المستمرة (cotinuous tenses) ولكن لغتنا المصرية تقدم لنا هذه الأزمنة بإضافة حرف الباء فى أول الفعل كما فى الأمثلة التالية:
زهدى بياكل. للمضارع (المستمر).
زهدى كان بياكل. للماضى (المستمر). الخ ...
فإذا ما انتقلنا إلى استعمال أدوات العطف عند الجبرتى وجدنا فى استخدام بعضها، وعلى الأخص (الفاء، الواو). مثال ذلك: "أشيع انتقال الأمراء المصرلية من جهة البحيرة وقبلوا (أى ساروا للوجه القبلى) إلى ناحية الجسر الاسود".
حيث عطف الجملة الفعلية (وقبلوا) على المصدر (انتقال) غير ملتفت إلى ما تقتضيه لغة التراث من تجانس العطف بين الصيغ المتعاطفة.
فإذا ما انتقلنا إلى استعمال الجبرتى للعدد نجده قد ترك صيغ لغة التراث تماماً فى معظم مؤلفه مثل (وصل واحد قبجى) وهو فى ذلك ملتزم باللغة المصرية. كما كان للجبرتى فى لغته المصرية استعمالات خاصة مثل (فى حادى عشرينه) وليس (وفى الحادى والعشرين) كما فى ألسنة العرب. كما لا يلتزم الجبرتى فى ذكره للأعداد

القبطية. وبعدها اللغة القبطية البحرية ومعظم نصارى الصعيد أولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية "وقول ماسبيرو" ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر". هذا من جانب ومن جانب آخر يجب أن نتذكر أن اللغة ليست حروف الكتابة و لكنها الأصوات و نظم النحو و الصرف و المحتوى الحضارى. والأصوات التى نحاول كتابتها بحروف تدل قدر الإمكان عليها و التى لم تتبدل (لأن الأمر مرتبط بالصفات التشريحية للحنجرة عبر التاريخ إلا فى النادر القليل) يمكننا أن نكتبها بالحروف اللاتينية أو حروف كتابة أخرى دون أن تصبح لغتنا المصرية هى اللغة اللاتينية أو غيرها. و لنا فى كتابة الحروف التى يستخدمها المتعاملين مع الكمبيوتر اليوم مثال لمحاولة الخروج من هذا المأزق.

١١- السلوك ص ٩٢٠-٩٢٢ ج١ قسم ٣. ١٢- السلوك ص ٦٠٣ ج١ قسم ٢ . ١٣- السلوك ص ٩٥٢ ج١ قسم ٣. ١٤-المرجع السابق ٩٥٣ ج١ قسم٣. ١٥- السلوك ص ٩٩٣ ج١ قسم ٣ . ١٦- السلوك ص ٩٩٢ ج١ قسم ٣ .

بالإفراد والتثنية والجمع وكذلك التعريف والتنكير.

وفيما يختص بالمطابقة: ونعنى مراعاة القواعد المقررة فى ألسنة العرب بالنسبة للتذكير أو التأنيث من جانب، أو بالنسبة للأفراد أو التثنية أو الجمع من جانب آخر، أو بالنسبة للأبواب النحوية المختلفة، نجده فى حالة التذكير أو التأنيث يستخدم استخدامات نوعية غير مألوفة فى ألسنة العرب بالنسبة للفاعل ولاسم الإشارة وللاسم الموصول وللنعت بنوعيه، وللعدد.

ففى بعض استعمالات الجبرتى تراه لا يلحق "تاء" التأنيث بالفعل المسند إلى الفاعل الجمع للمؤنث العاقل، مثل: "فتضرر المحترفات منهن"، وتنص قواعد ألسنة العرب على إلحاق "تاء" التأنيث بالفعل هكذا: (تضررت)، وفى الوقت نفسه نراه يلحق هذه التاء بالفعل المسند إلى الفاعل جمع المذكر السالم مثل: (وجلت الفلاحين من بلادهم) و(هجت القبليون على المتاريس).

وفى استعمالاته لأسماء الموصول يستعمل صيغة "التى" وهى فى ألسنة العرب للمفردة المؤنثة لتكون عائدة على جمع المذكر، مثل: (وفى سابع عشرينه رجعت العساكر التى كانت توجهت إلى جهة الشرق بحمولهم).

وفيما يختص بالإعراب: فإنه يمكننا أن نقول بأن لغة الجبرتى المصرية قد تخلصت فى مجملها من الإعراب، وعلى أساس ذلك فمن الظلم تحكيم المقاييس الإعرابية على لغة الجبرتى المصرية بكافة مستوياتها.

إما من حيث الدلالة: فللجبرتى مستوى خاص به وللغته المصرية، يتمثل فى عبارات مثل: (كبسهم على حين غفلة) = هاجمهم، (يركب على بيته) =

١٧- السلوك ص ٩٩٢ ج١ قسم ٣ .

١٨- عقد الجمان للعينى ص ٢٩٩ .

١٩- السلوك ص ٥٠٩ ج١ قسم ٢ .

٢٠ - السلوك ص ٤٩٩ ج١ قسم ٢، فرق المال بمعنى وزعه، مستعملة حتى اليوم فى لغتنا المصرية فهى ممتدة الجذور.

٢١- عبد القاهر الجرجانى لغويا. د. البدراوى زهران. ص ١٧٤ . دار المعارف. القاهرة.

٢٢- السلوك ص ٥٣٤ / ٥٣٥ ج١ قسم ٢ .

٢٣ - مغنى اللبيب لابن هشام ج١ ص ١٨٢ / ١٨٣ اقرأ الأسئلة التى ذكرها.

٢٤ - سورة النساء آية ١٤٨ .

٢٥- سورة الشورى آية ٢٣ .

٢٦ السلوك ص ٤٢٥ ج١ قسم ٢ .

٢٧- السلوك ص ٧٥٩ ج١ قسم ٣ .

٢٨- السلوك ص ٥٠٨ ج١ قسم ٢ .

٢٩- السلوك ص ٥٣٨ ج١ قسم ٢ .

٣٠- السلوك ص ٤٢٩ ج١ قسم ٢ .

٣١- السلوك ص ٥٧٥ ج١ قسم ٢ .

٣٢- السلوك ص ٦٧٣ ج١ قسم ٣ .

٣٣- السلوك ص ٥٨٦ ج١ قسم ٢ .

٣٤- السلوك ص ٨٩١ ج١ قسم ٣ .

٣٥ - السلوك ص ٤١٠ ج١ قسم ٢ .

....

يهاجمه ويحاصره، (قارشه) = نادمه، (انجمع عنه) = نبذه، (يسلكونهم للخروج) = يسهلون لهم الخروج، (الضوى) = حامل المشعل للسياف، (العرقانه)= السجن، (احترق بحر النيل) = جف ماؤه فى التحاريق. إلخ..
مع ملاحظة أن بعض هذه الكلمات تطورت الى أشكال أحدث فى الكتابة والى بدائل لفظية أخرى.
أما على مستوى معجم لغة الجبرتى: فإن الثروة اللفظية للغة الجبرتى المصرية تفوق اللغة التراثية بمراحل كبيرة بفضل استيعابها لمفردات الحضارة الحديثة وتأثرها باللغة القبطية والتركية والإيطالية وغيرهم من اللغات الأخرى، وهى ألفاظ لم تعرفها ألسنة العرب. وإن كان الجبرتى لم يستطع أن يستوعب معانى الأجهزة العلمية التى وردت مع الحملة الفرنسية، كما لم يستوعب فهم معنى النوادى ولا المطاعم والمصطلحات السياسية كالتمثيل النيابى وكلمة المواطن التى كان يكتبها (ستوين) والاستقلال والدولة وحرية المرأة فهذا كان لزمن قادم تتطور فيه اللغة المصرية بناء على تطور مفاهيمها السياسية والاجتماعية. وإن كان صديقة الشيخ حسن العطار ومن بعده الشيخ رفاعة الطهطاوى قد بذلا فى سبيل ذلك جهوداً عديدة لا يمكن أن تنكر، وتستكملها لغتنا المصرية حتى اليوم خاصة إذا رجعنا إلى المصطلحات التى جاءت لتستوعب التكنولوجيا الحديثة واستخدام الكمبيوتر.
ونضيف إلى كل هؤلاء الرواد كوكبة من الأدباء والشعراء المصريين الذين ساهموا بقدر كبير فى تطوير لغتنا على مستوى المقال و المسرح والأغانى منذ أديبنا النديم والشاعر العظيم أحمد شوقى وبديع خيرى وبيرم التونسى وعبد الحميد

المصادر والمراجع:

١- حول كتابة اللغة المصرية الحديثة - بيومى قنديل-مجلة مصرية العدد التاسع - أكتوبر ١٩٨٦ .

٢- مدخل الى اللغة العامية المصرية - بدر نشأت - مجلة القاهرة - العدد ١٦٣ - يونيو ١٩٩٦ .

٣- حول اللغة المصرية الحديثة - بيومى قنديل - مجلة القاهرة - العدد ١٦٣- يونيو ١٩٩٦ .

٤- فى علم اللغة التاريخى - د. البدراوى زهران - دار المعارف ١٩٧٩ .

٥- المقدمة لابن خلدون- تحقيق على عبد الواحد وافى - ط٢ - القاهرة ١٩٦٧ .

٦- أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية - أدولف جروهمان.

٧- السلوك لمعرفة دول الملوك - للمقريزى - نشره د/ محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٣٤-١٩٤٢ .

٨- عقد الجمان للعينى - دار الكتب المصرية .

٩- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب - لابن هشام- تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد- القاهرة.

الديب وفؤاد حداد وصلاح جاهين و فؤاد قاعود وسيد حجاب و أحمد فؤاد نجم والأبنودى والعديد من الشعراء الذين يصنفون خطاً على أنهم شعراء العامية.

والذى يهمنا ذكره هنا هو أن اللغة المصرية على مر تاريخها كانت ضمن أشكال المقاومة الثقافية التى كانت تواجه الدخيل و الأجنبى و تستوعبه فى سياقاتها دون أن تترك نظامها وبطريقة أكثر قوة. و هى الآن تسعى لكى تتخلص من مشاكلها القائمة والمتمثلة فى ازدواجية لغتنا التى نتعلمها واللغة التى نتكلمها وحروف كتابتها.

فى النهاية يجب أن ننبه إلى المعركة التى يخوضها الآن مدعى العروبة فى ساحة ثقافتنا المصرية من أجل إعادة القواعد التى وضعها العروبيون الأول من أمثال سيبويه وغيره إلى لغتنا القومية المصرية لتكبلها وتضيق الخناق من حولها ودفعنا إلى التخلف.

١٠- المستدرك العربى الفرنسى - للعلامة الفرنسى دوزيه وتذييل المستشرق فانيان عليه.

١١- تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل - د/ أحمد السعيد سليمان- دار المعارف.

١٢- تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع . إعداد و تحقيق : عبد العزيز جمال الدين . مكتبة مدبولى . القاهرة ٢٠٠٦ .

المعتقدات المصرية

فى سياق التدين المصرى

كشكل من أشكال المقاومة الثقافية

تقديم

فى نهاية العصر الحجرى لحق مناخ الكرة الأرضية تغيير جوهرى غيّر معه البيئة الطبيعية فى شمال أفريقيا. فالصورة العامة التى يتفق عليها أغلب علماء المناخ آنذا كتقلبات مناخ يمكن تبسيطها فى أن ما هو اليوم نطاق الصحارى فى

وسط العالم كان يعيش فى ذلك الوقت فى ظل عصر مطير، و كان وجه هذه الصحارى، بما فيها صحارى شمال أفريقيا و مصر، تغطيه حياة نباتية غنية و حيوانية وفيرة، عليهما عاش الإنسان صياداً و جامعاً للثمار. بينما كانت أودية الأنهار، بما فيها نهر النيل ، كثيفة بالمستنقعات والأدغال الموبوءة بالملاريا و الحيوانات المفترسة، لذا كانت خالية من البشر.

ولكن أعقب ذلك تقلبات مناخية أدت إلى سيادة الجفاف فى هذا النطاق الصحراوى، فلجأ النبات والحيوان و من خلفهما الإنسان إلى **مواضع** الماء. و هكذا كان **الموقع** الجغرافى فى الفترات المطيرة هو الذى يتحكم فى انتشار الإنسان ونشاطه، ففى العصور المطيرة التى تكلمنا عنها كان الإنسان ينتشر فى كل المواضع لا فرق بين موضع و آخر فكلها تنال حظها من المطر، ولهذا كان البشر يعيشون فى مساحات واسعة دون أى تزاحم و بالتالى دون أى ترابط، مما انعكس على شكل حياته الإجتماعية والاقتصادية حيث لم تظهر الروابط الأسرية القوية ولا المسكن الثابت، ولا التجمعات البشرية فى أبسط أشكالها، ولا الملكية الخاصة للأرض أو غيرها بسبب عدم الاستقرار الناتج عن حياة الترحل.



هرمس المصري في المخيلة اليونانية

وعندما كانت الأمطار لا تسقط بعض السنوات يرتحل البشر إلى المواضع الأوفر مطراً. و لكن عندما سادت ظروف تذبذب الأمطار ثم تلتها ظروف الجفاف، فقد صارت **المواضع** التى تتوفر فيها المياه و بالتالى الحيوان والثمار هى التى تتحكم فى نشاط و تجمع البشر، وبالتالى استقرارهم و ظهور المساكن الأولى المستقرة، مع اهتمام بدائى بملكية مشاعية للأرض و إنتاجها

من نبات و حيوان بين أفراد الجماعة المستقرة، من هنا كانت المواضع الأولى لاستقرار البشر فى كل نطاق شمال أفريقيا فى فترات التحول و الجفاف هى الواحات و وديان الأنهار.

من هنا برز نهر النيل ، المحمل بالمياه طول العام، كأقوى قطب، فى شمال أفريقيا، جذب إليه أعداداً هائلة من البشر تحلقوا حول واديه و أقاموا قراهم الضخمة التى مارسوا فيها الزراعة المنظمة الأولى، تلك الثورة التى أبدعت لنا الذاكرة البشرية و بعدها التاريخى من خلال متابعة نمو النبات و فيضان النيل.



هرمس المصري في المخيلة الرومانية

المصرى و النيل:

مابين موضعى الصحراء و النيل تم الجدل الذى لابد منه على يد المصريين الأول الذين شقوا قلب الوادى ليصلوا إلى لبه و مجراه، من أجل انتزاعه من فوضى الطبيعة و زراعته، عن طريق ترويضه و استئناسه وخلق الوادى الجديد، واد من صنع أيدى البشر، من أجل البشر، وعلى نظامهم.

هكذا كان العمل (وما يصاحبه من تكنولوجيا وعلوم) هو الأساس الذى قامت عليه الثقافة المصرية التى وحدت كل الشعوب التى هاجرت للوادى فى شعب واحد شعاره العمل و المحاسبة، ومن هنا قامت الدولة لتنظيم العمل حول النيل وتقنع بما يقدمه لها هذا الشعب من هبات و هدايا وقرابين سواء لها أو للكهنة الذين يشكلون القاعدة العلمية للشعب و الدولة.

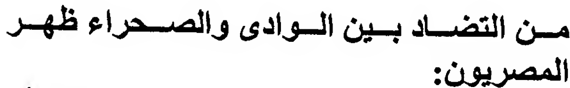
و لقد قام الإنسان المصرى من خلال كده و عمله المستمر، باستغلال نصف العام الفارغ فى إقامة الجسور والسدود و الترع و المصارف الكبرى، بل وقام بتحويل مجرى النيل ذاته عند أسوان

ليتدفق فى سلاسة و يسر بعيداً عن الجنادل، فتمكن من ترويضه و انتزاع أنيابه و مخالبه، أو كما قيل: إن النهر الذى كثيراً ما فقد عقله عند تحاريقه، أو عقاله عند استبحاره، منح لأول مرة عقلاً بل و ضميراً بشريين، النهر الذى طالما تحكم فى رقاب المصريين، قديماً قبل التاريخ، قد تحكموا فى رقبته وجعله تابعاً له، كما استفاد من منخفض الفيوم ليحوله إلى أعظم خزان مائى فى وادى النيل.

هكذا وقر فى ذهن المصرى قدسية العمل و البناء عبر تاريخه المديد. ومن خلال هذه القيمة المقدسة للعمل حرّم سلب و نهب عمل الغير، أو استعمار البلدان الأخرى من أجل سلبها و استعبادها كما حدث بالنسبة لقبايل الفرس و الهكسوس و اليونان والرومان و العرب و العثمانيين ..الخ، فظلت حضارته بعيدة عن هذا النزوع الاستعمارى. بل انصرف إلى تشييد أعظم صروح البشرية كالأهرامات، وشق الجبال، وطوّع النيل لأغراضه.



هرمس (تحوت) المصرى



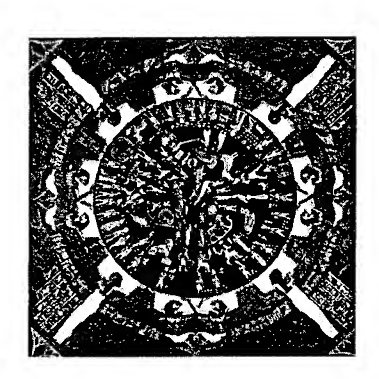
من التضاد بين الوادى والصحراء ظهر المصريون:

هنا فى مصر بين الوادى و الصحراء عليك أن تختار بين النقيضين لتمارس جدلك مع الآخر، عليك الاختيار بين الصحراء أو الوادى، و لحسن حظ الجنس المصرى أن صحراوات مصر تعتبر من أشد صحراوات شمال افريقيا جفافاً، فكان لزاماً على من يسكنها إما أن يستقر فى الوادى مزارعاً أو يُمضى حياته فى الصحراء يقوم بالسلب و النهب حتى يقضى عليه. و بات الحد الفاصل بين سكان الوادى و سكان الصحراء هو

ذاتـه العامـل الـذى أدى إلـى انصـهار الشـعب المصرى فـى بوتقـة ثقافيـة واحدة طـوال تاريخـه، فيما عدا بعض الهوامش المتطرفة و البعيدة عن قلـب الـوادى. فكانـت الصـحراء هـى الضـد الـذى أبرز ندها في الوادى.

جدل الأمكنة و الاستراتيجية

إن تكـوين مصـر وحضـارتها كانـا مـن صـنع المصـريين، تأمل النيل مجتـازاً آلف الأميـال من خط الاستواء إلى البحر المتوسط، هل تجد على طول مجراه إلا مصر واحدة ؟ ... إن هبات النيل، أى فيضـاناته، كهبـات الطبيعـة سـواء بسـواء، طائشة عمياء، إذا ما تركت دون ضبط فإنها تدمر كـل شـيء وتخلـف مسـتنقعات الملاريـا الوبيلـة، والإنسان المصرى وحده، هو الذى استطاع أن يجعل من هذه الهبة نعمة لا نقمة، لتصبح مصر هبة المصريين، و على طول ساحل شمال أفريقيا ولمسـافة ١٠٠٠ ميـل مـن الصـحراء لا نجـد موضـعاً معموراً مثل وادى النيل فـى مصـر، بل إنـه بحجمه الذى يحمل اليوم نحو أكثر من ٧٠ مليوناً من البشر يعد أكبر و أضخم رقعة معمورة فى شمال أفريقيا و غرب آسيا ابتداء من المحيط الأطلسى حتـى حدود الهند، و لعل وزنـه النسبى فـى التـاريخ القديم كـان أكبـر و أضـخم. فمصـر بواديهـا الغنـى وسـط محيط الصـحراء الآسـيوية الأفريقيـة تبدو قطـب جاذبيـة شديد الإغـراء وهـو إغراء لا يعرفه إلا من عرف معنى الوصول إلى أى واحـة بعد رحلـة قاسية فـى الصـحراء. ولهذا كـان "اهبطـوا مصـر" هـو الحلم والشعار العملى لكل رُحل الصحارى المحيطة.

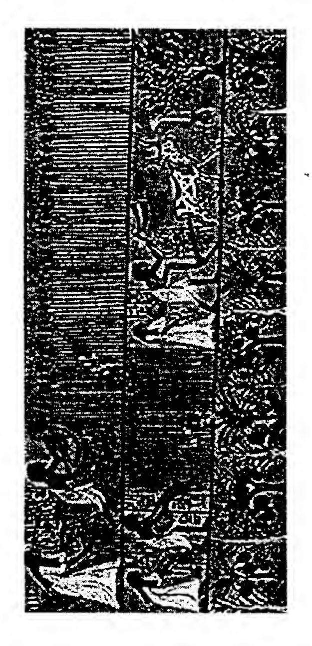


أقدم قبة سماوية فى العالم بمعبد دندرة

والموقـع – هو الآخر – لم يكن أقل جاذبيـة لكل رواد البحـر مـن تجـار أو مغـامرين مـن وراء

البحار منذ اليونان والرومان، فكان قبلة وبوصلة للأساطيل. وعن هذا عبر " ليبنتز " بوعى فى مشروعه للويس الرابع عشر حين قال: " لا يوجد بين أجزاء الأرض جميعها بلد يمكن التسلط منه على العالم كله، وعلى بحار الدنيا بأسرها غير مصر".

لهذا تعرضت مصر لأخطار وتعديات الصحراء والبحر معا ، لقراصنة السهوب من هكسوس وفرس – وقراصنة البحر – من يونان ورومان الخ ... هنا يمكننا أن نضع أيدينا على الملمح المفتاح ، لقد عاشت مصر دائما أو غالبا فى تحديات وخطر، ويكاد الخطر والتعديات الخارجية تتناسب طرديا مع خطورة الموقع وأهميته وغناه، ومع الاثنين يتناسب الثمن أيضا تناسبا طرديا، فمن يكسبه يكسب الكثير ، ومن يخسره خسر أكثر.



كانت الزراعة حلم المصري حتى في جنته.

ونبادر على الفور فنقول إن هذه الحقيقة – الحياة فى ظل الخطر والتحديات – لم تكن شرا مطلقا، بل هى أساسا ظاهرة صحية رغم كل التضحيات والثمن الباهظ الذى دفعته مصر من حريتها أحيانا كثيرة. وهى ظاهرة صحية لأنها أبدا ومنذ وقت مبكر شحذت الوعى القومي وأرهفت الحساسية واليقظة الوطنية واستبعدت احتمالات الانغلاق على الذات واللامبالاة بالعالم الخارجي.
حقيقة أخرى نضيفها هنا وهى أن الموضع والموقع، أى الوادى والصحراء، صارا معا موضعا لمصر التى وعت بعد ذلك موقعها الجديد فى قلب العالم القديم والجديد، ودورها الحضارى تجاه البشرية.

مـن تعدديــة المعتقـدات ظهـرت الدولــة والأمــة المصرية :

من خلال المؤسسات العلمية والإدارية ثم الثقافية والدفاعيـة التـى أقامهـا المصـريون تشـكلت أول دولـة فـى التـاريخ ظهـرت كتعبيـر تـاريخى مـن الوادى فى مواجهة الصحراء التى تمثل الفوضـى والتوحش والأنانية واللانظام . فالدولة هكذا تعبير عن تناقض الوادى والصحراء، كذلك عن حقيقة أن الوادى يشكل بيئة نهرية فيضية لا تعتمد على المطر الطبيعى فى حياتها وإنما علـى مـاء النيل، وقوامهـا هـو زراعـة الـرى، ومـن هنـا تبـرز كـل الفروق فى حياة المجتمع النهرى وطبيعتـه، ففـى البلاد التـى تعيش علـى الأمطـار مباشـرة يختـزل المجهود البشرى إلـى حده الأدنـى، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر يتوقف العمل أو يكـاد حتـى الحصـاد، وبين هذا وذاك فليس هنـاك مـن يحفـر التــرع والمصــارف أو يقـيم الجسـور والسـدود ويرعاها ويطهرها الخ.

.. أمــا فــى بيئــة الــرى فــالأمر مختلــف كــل الاخـتلاف. فـالوادى فـى فجـر تاريخـه لـيس لـه مصرفا طبيعيا ولكنه مستنقع إسفنجى مـلارى، لا زراعـة ولا تعمير إلا بعد التصـريف "والتنقيـل" لابد للمجهود البشرى الجماعى التعاونى حتى تعد الأرض مجـرد إعداد لاستقبال البذرة، وبعد هذا فلا بذر حتـى توصل المياه إلـى الحقول، أى لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتـداء مـن قنـوات الحمـل وقنـوات التغذيـة إلــى مساقى الحقول. حتـى تـزرع لابد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة وتخطط أرضـها، ثم مـا جدوى كل ذلك دون أن تسيطر على هذه الشبكة بـالنواظم والقنــاطر والسـدود؟ أعنـى أى جـدوى فيهـا بغيـر

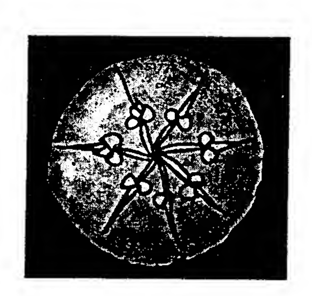


كـان الكاتـب المصـري هـو أساس الدولة المصرية فهو مختــرع الكتابــة وصــائغ كتاباتها ومراسيمها وحـافظ تاريخها.

ضبط النهر. وأكثر من هذا، ما جدوى الجميع بدون ضابط للناس ، لتقوم بجهودها الجماعية وينظم العمل والمصالح فيما بينها. ومن تلك الحقائق جميعا يتآلف فى النهاية المجتمع الهيدرولوجى النموذجى، وتأتى الدولة الأولى.
فعلى أساس هذه الوحدة الطبيعية وعلى أساس التجانس الثقافى كان من الضرورى أن تظهر جرثومة الوحدة السياسية فى مصر باعتبارها الرد البشرى للوادى على نقيضه الصحراوى. هنا تبدأ مرحلة تكوين الأمة المصرية وهى مرحلة لم تعرفها دول أخرى إلا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين، بل ما زالت تعانيها حتى اليوم العديد من الدول من حولنا. فالتاريخ يسجل لنا مرحلة سابقة للتاريخ كانت تتقاسم مصر فيه كوكبة من تلك المقاطعات المتميزة بحضارتها ومعتقداتها، وهى فى ذلك تشبه – مع الفارق – مرحلة الإقطاع السياسى ودول المدن التى لم تعرفها أوربا إلا فى العصور الوسطى وما بعده، أو هى أشبه ما تكون بال Pays والكوميونات فى فرنسا حتى الثورة. وقد كانت تلك الوحدات فى الحقيقة وحدات رى حوضية تعتمد على ماء النيل وأساسها مخزون الحبوب المركزى المشاعى كما يرى "بترى" فى كتابه: " Social Life in Ancient Egypt "
فهو يجد أن عواصم هذه المقاطعات – الكوميونات – فى الدلتا بالذات، كانت تتباعد عن بعضها البعض بفاصل منتظم إلى حد بعيد مقداره نحو ٢١ ميلا، ويعتقد أن السبب هو صعوبة نقل الحبوب والغلال لمسافات أبعد فى ذلك الوقت، فكان اقتصاديا أن

كانت المسلة المصرية رمزا لنشأة الكون وفى نفس الوقت كانت إبداعاً فنياً راقياً.

تتحدد الوحدات السياسية بهذه الأبعاد.
كما يجب أن نذكر هنا أن الامتداد الطولى لموضع الوادى فى مصر عبر الصحراء كان له تأثيره كذلك على نشأة وشكل الحياة السياسية. فبالرغم من أن الدولة المركزية قامت هنا إلا أن نشأتها قامت فى الأساس على التعددية المضادة للاستبداد.
فهذا الشريط الطويل للوادى والذى ليس له طريق غير النيل، كان يعمل فى اتجاه مضاد للاستبداد المركزى ويساعد على استمرار الاستقلالية والتفرد، فمن الصعب على أى حاكم أن يمارس بنشاط أى سلطة محلية فى مناطق تبعد أكثر من ١٠٠٠ ك.م عن العاصمة المركزية، فالوصول إلى تلك الأقاليم البعيدة كان يتطلب إبحار فى النهر لعدة أيام. لهذا نرى منذ البداية أن تأرجح مصر كان يتردد بين التعددية اللامركزية فى الأساس ومركزية الدولة المتقطعة.



وهكذا عاشت مصر سياسيا ودينيا وإداريا فى ظل تعددية حتمها الامتداد الطولى لنيل مصر من ناحية وقيام نظام للرى يعتمد على الأحواض، فقد مثلت الأحواض وما أحاطها من جسور وحدات اقتصادية ودفاعية، ثم سياسية وإدارية مستقلة. ذلك أن رى هذه الأحواض من النيل كان يتم بالاتفاق بين السكان مما خلق بينهم علاقات اقتصادية واجتماعية متعددة ساعدت على قيام اتحادات بين سكان هذه الأحواض بهدف تنظيم حياتهم واستخدام مياه الرى. ونشأت من هذه الاتحادات القرى الكبرى وتكونت الأقاليم مطابقة فى حدودها لحدود الجسور والترع والأحواض، وهذا ما يلاحظ من قوائم الأقاليم التى انقسمت

إليها مصر. ومن هذه الأقاليم ظهرت مدن كبرى كعواصم ظل يتردد اسمها طوال التاريخ المصرى. ومن هنا نشأت أيضا أهمية الأقاليم فى الحياة الفكرية والسياسية للمصريين، فقد كان لزاما على كل إقليم أن يعيش ويتمتع بنوع من الحكم الذاتى فى ظل الحكم المركزى، وهذا ما انعكس منذ البداية على المعتقدات المصرية التى تعددت، بالرغم من وحدتها مركزيا حول النيل = حابى = أوزير، وهدفها المشترك الواحد القائم على رعاية الخصوبة وتنميتها. وأيا ما كان فإن هذه الأقاليم تجمعت سياسيا وإداريا فى وحدتين رئيسيتين هما الوجهان البحرى والقبلى، تداران من عاصمتين متطرفتى الموقع بوضوح هما "بوتو" و "طيبة" على الترتيب. ولقد قام الوجه القبلى فى الأساس بإنجاز توحيد الدلتا والوادى معا فى الدولة الواحدة الأولى.



ولكن لماذا الوجه القبلى؟ .. لأنه كان الأكثر عمرانا وثراء فى ذلك الوقت من الدلتا التى كانت المستنقعات تشغل أجزاء كبيرة من شمالها. والواقع أن مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط، وإنما هى أطول دولة حافظت على وحدتها القومية عبر التاريخ. ولعل أوضح مثال على قوة الجاذبية السياسية للوادى أنه صهر كافة البدو القائمين على أطرافه فى حياة الزراعة، وبالتالى فى جنس واحد مع زراع الوادى من المصريين، ومن أسباب ذلك أن الوادى بصفته واحة صحراوية طولية حادة الأطراف كحد الموسى، حتى أنك عند هذه الأطراف يمكنك أن تضع قدما على الطين والثانية على الرمل، والنتيجة أن البدو والرعاة النازحين كانوا يفتقدون مواضع لرعيهم ولا يجدون مجالا حيويا لمعيشتهم، وسرعان ما

تعجز الهوامش الفقيرة عن تحملهم فيضطرون تدريجيا إلى التوطن فى الأرض الزراعية والتحول من الرعى إلى الزراعة و الاندماج فى الثقافة الواحدة.

الصحراء والوادى.. تناقض الأمكنة ونشأة الفكر والعلوم والفنون:

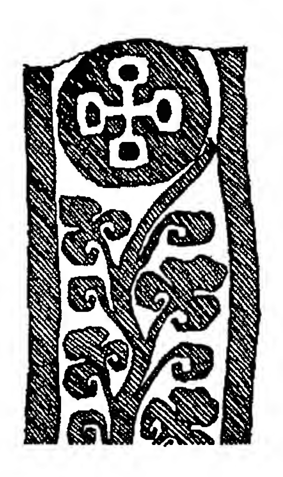


عاش الشعب المصرى وسط الوادى الزاخر بالتنوع والاختلاف فى غلاته وحيواناته وعناصره الطبيعية فكان لابد له من أن يضع لهذا العناصر وتنوعاتها تصانيف وجداول حتى يسيطر عليها ويسخرها لاحتياجاته وأهدافه المباشرة والغير مباشرة. وأى تصنيف له مرتبة أرفع من فوضى الطبيعة، ومن هنا يصح القول بأن التصنيف حتى فى مرتبة المحسوس يكون مرحلة من التقدم نحو عقلنة وفهم الأشياء والعناصر الطبيعية.

وبالرغم من أن التصنيف القائم على الحدس قد يجانب العلم الحالى لاختلاف اهتمامات كل منهما، إلا أن التصنيف حتى ولو كان تعسفيا يمكنه أن يحافظ على تنوع وغنى عملية الجرد والحصر، ناهيك عن عظمة المبدأ ذاته، مبدأ التصنيف، كابتداع بشرى حدسى فى الأساس. ذلك أن الإصرار على أخذ كل شىء بحسبان يساعد على تكون " الذاكرة " فى العقل وتمكن عمليات الفكر من استعادة المعلومات والخبرات وإجراء عمليات التراكيب والتأليف والدمج والابتداع.

وكان لابد لهذا العلم بالمحسوس أن يقتصر، من حيث ماهيته، على نتائج تختلف عن تلك التى تهدف إليها العلوم الحديثة، إلا أنها لا تقل عنها مصداقية. ولم تزل هذه النتائج والكشوف

والإبداعات التى تأمنت قبل غيرها بعشرة آلاف سنة أساسا لحضارة العالم الحديث.
ولعل فى التقاء الفنى بالعملى فى الإنجازات المعمارية والفنية المصرية قفزة هائلة إلى ما تصبو إليه البشرية فى يوم ما عندما يصبح كشف الطبيعة وتثويرها بالفن والعلم معا هو قهر واستثمار أوسع لها. فالإنسان المصرى فى حضرة الفن كان يبتكر ويؤسس لمناهج فى الفكر تجمع بين الفن والعلم لم تزل حضارة اليوم قاصرة عن إدراكها وتجاوزها، وإلا فأين حضارة اليوم من إبداعات المصريين حول الضمير والاستشهاد والفداء والحساب والصوفية والعمارة والفنون والتحنيط الخ ...
مفاد القول أن هذه التنويعات والاختلافات وبروز العقل والفكر والفن فى حياة المصريين عبر تاريخهم الطويل، شكلت سبلا إضافية للحياة تتفتح لمن تنضج حواسه. وبعبارة أخرى فإن فضيلة الفن، باعتباره إبداعا تم فى الوادى، هى فى أنه يعوض التخلى عن بعض الأبعاد المحسوسة بإدراك أبعاد ذهنية إضافية.



إن الفن والحدس يعتبران شكل من أشكال التطور المعرفى هذا إلى جانب أنهما يسبقان ويعادلان العلم فى مرحلة المغامرات الأولى للعقل البشرى، فليس الفن أو الحدس جزء من كل لم يكتمل بعد، بل أنه نظام شديد التماسك مستقل، منذ فجر العقل المصرى، عن النظام العلمى الجاف الذى سيتشكل فيما بعد. ومن الأفضل إذن بدل أن يقام نوعا من التضاد الوهمى بين النظامين أن يوضعا كمتوازيين، أى بوصفهما نسقين معرفيين غير متساويين من حيث النتائج النظرية والعلمية،

ولكنهما يتساويان من حيث نوع العمليات الذهنية التى ينطلقان منها.
لقد استطاع العقل المصرى فى عصوره تلك أن يتحكم بالفنون الحضارية الكبرى: الخزافة .. الزراعة .. الهندسة .. الحياكة .. التدجين .. التهجين .. العمارة الخ ... ولا أظن أن أحدا يفسر اليوم هذه الفتوحات الكبرى بتراكم عشوائى لسلسلة من الاكتشافات كانت وليدة الصدفة، أو بوصفها إيحاءات أو إيحائيات متأتية من مشاهدات سلبية هى بمثابة انعكاسات للظواهر الطبيعية، فقد خضعت هذه التقنيات والأفكار للمعاينة المنهجية النشطة خلال قرون وأسندت قبل إقرارها أو رفضها إلى فرضيات محكمة أقيمت بناء على تجارب جرى تكرارها دون ملل من خلال مؤسسات علمية ثابتة.



أسس الفكر الدينى المصرى المؤمن بالتعددية:

ومن هذا الجدل أيضا كان اعتقاد المصرى بأن الآلهة هى التى خلقت مصر وأن هذه الآلهة فى الأساس هى النيل = حابى = أوزير إلى جانب أجداده الأول الذين عمروا مصر، فى تضاد مع إله الصحراء ست = شطان. لم تكن هذه الآلهة و تعددها سببا فى قيام مشاحنات أو حروب بينها، بل كان أتباع كل إله يحترمون معتقدات الآخرين بل ويشاركون فيها كما يفعل المصريون الذين يشاركون بعضهم البعض لاحتفالاتهم الدينية حتى وقت قريب دون أى تفرقة بين قبطى ومسلم.
وقد لخص المصريون هذا الصراع قديما بشكل

فنـى فـى ملحمـة الثـالوث المقدس (أوزير، أيزى، حـور) ضـد (سـت)، فكـان أوزيـر هـو النيـل الـذى يخصب بمائه الحياة فى أرض مصـر – ايزت – فتـورق خصـبا وتلـد النمـاء. أمـا سـت فقـد سـعى لوقف فيضـان النيـل وحـبس مياهـه – حـبس سـت لأوزير ثم قتله - ، ولكن أوزير الشهيد الحى يعود للحيـاة والفيضـان علـى يـد "إيـزى" ويلـد منهـا "حور" ، هذا الفارس المقاتل الذى لعب دوره كل المصريين كحراس وحماة للنيل و مصر.

لقـد أبـدع المصـريون هـذه الملحمـة لأنهـم كـانوا ينظـرون إلـى أحـداث الكـون ومكوناتـه ومـدى تأثيرهـا فـيهم بحركتـه، وكـان إدراكهـم هـو فـى الأسـاس إدراك للحركـة وتحولاتهـا باعتبـار أنهـم جـزء منهـا وجـزء مـن الكـون. فكـانوا يضـعون أحداث الكـون فـى قالـب جمـالى، وبعبـارة أخـرى، كـانوا يقصـون سـيرة أحـداث الكـون عوضـا عـن القيـام بتفسـيرها والكشـف عـن أسسـها العلميـة، فالعالم لم يكن قد كشف بعد عن قوانينه المادية. ولم يكن معنى هذا التوقف عن التعامل معه. فنحن مثلا نفسر فيضان النيل بسقوط الأمطار الموسمية فـوق هضـبة الحبشـة والأمطـار الاسـتوائية فـوق هضبة البحيرات. أما المصريون الأقدمون فكانوا يفسرون ذلك بالصراع بين أوزير وست فى قالب قصة فنية درامية، وهم بذلك لا يقصدون التسلية بقدر ما كانوا يسردون أحداث هم جزء منها قد تتهـدد حيـاتهم نفسـها إذا انتصـرت قـوى الشـر الصـحراوية – سـت – ومنعـت فيضـان النيـل – أوزيـر – فكـانوا هكذا فـى حلبـة الصـراع وسـاحة الحرب ذاتها. وحقيقى أنها أفكار خيال وتأمل ذات صـيغة دراميـة يشـكلها الصـراع بـين قـوى الخصـوبة والفنـاء، ولكنهـا ليسـت مجـرد وهـم،



فضـروری جـدا أن نميـز الـدراما الحقيقيـة عـن الأقاصـيص الخرافيـة، فالتصـوير الشـعرى فـى الدراما الأوزيرية ليس مجرد سرد لقصة رمزيـة، إن هى إلا ثوب اختير بعناية فائقة للفكر فى سعيه نحو التجريد، فالصورة هنا لا يمكن فصلها عن الفكر، إنها تمثل الشكل الذى أصبحت التجربة والأحداث فيه واعية بذاتها.



وتتجلى الناحيـة النفعيـة فـى الـدراما الأوزيريـة عنـدما نتـذكر المواكـب الاحتفاليـة والغنائيـة والتمثيليـة لقصـة أوزيـر. فمـن الواضـح أن المصـريين لـم ينظـروا إلـى قصـتهم عـن الخلـق والفصول ونمو الزرع وفيضان النيل كما ننظر الآن إلى نفس المظاهر، فالمصريون الأقدمون لم يفكروا فى جواب معين على كل ذلك، فقد انكشف لهم الجواب فى أثناء العلاقات المتبادلة بينهم وبين مظاهر وأحداث الكون. فإذا كان هناك سؤال قد أجيب عليه، فهم لم يطرحوه ولكنهم اشتركوا مع الطبيعة فى الإجابة عليه، ولهذا أقام المصرى مع الطبيعـة والكـون علاقـات جماليـة كـان هـو الـذى أسسها ليتبادلا فيها طرح الأسئلة والإجابة عليها. لذلك فإن المصرى عند قيامه باحتفالية التمثيلية والغنائيـة كـان يعلـن علـى المـلأ المعرفـة التـى يشارك فيها قوى الطبيعة والكون لكى يورطها ثانيـة فـى حقيقـة تلـك المعرفـة وميلادهـا الجديد المسـتمر، فقـد كـان عنـدما يعتقـد أن الصـحراء ورمالها والمستنقعات ووحوشها حلفاء لإله الشر – ست – فإن جهاده الأعظم نحو مصر وإلهه أوزير هو وقف نشاط إله الشر – ست – ونشاط أشياعه من اللصوص البدو، فقام بغزو الصحراء ومدها بالماء الحى لأوزير ليخصبها ويزرعها فتصبح ملكا له ولأوزير ولمصر، ويقلص فى

ذات الوقت من نفوذ ومساحة مملكة – ست .
وهكذا قام المصريون بشكل مكثف منذ أيام رمسيس الثانى بغزو الصحارى وتعميرها وزراعة الواحات وإقامة المعابد لأوزير فيها والانقطاع إليها والعيش عيشة النساك والرهبان حتى تعلو كلمة أوزير ومصر – إيزى. وبهذا تم من خلال دراما أوزير الإيمان الشديد بتعمير مصر وتجفيف مستنقعات النيل وزراعة الصحراء ووقف رمالها الزاحفة نحو الوادى.
كذلك اتحدت كل المعتقدات المصرية فى رؤية واحدة آمنت بالبعث فى جنة الخلد. لقد كانت الحياة فى الجنة عند المصرى القديم نموذجا لما يجب أن تكون عليه الحياة فى الأرض والسماء معا، ومشروعا للحياة الجديدة والجيدة اجتمعت عليه الأمة المصرية لتنجزه فى الأرض والسماء.
من هذا المنطلق كان سعى الإنسان المصرى لإنجاز حياة مادية راقية على الأرض يوازى طموحه فى إنجاز جنة أبدية للمصريين تقوم على المسئولية الأخلاقية والعمل البناء. لقد كان مشروع الجنة المصرية حلم ما زال على البشرية أن تنجزه وليس أى جنة أخرى ابتدعت بعد ذلك.



لقد اكتسب المصرى حب وطنه من ذلك الجهد والعمل المضنى والشاق الذى بذله هو وآباؤه وأجداده فى إصلاح أرض واديه حول النيل لأجيال عديدة. كما كان المصرى يقدس آباءه وأجداده قدسية العبادة حتى أنه دفعهم إلى مصاف الآلهة المقدسة، لأنه عرف أنه نتاج لثمار جهدهم وكدهم، وأنه بفضل الخبرات التى تركوها له أمكنه أن يأمن غوائل الفيضانات وأن يستمتع بخيرات الوادى.
وإذا كانت عادات الدفن قد ظهرت فقط مع

الاستقرار حول نهر النيل فإن الاحتفاء بهذه الشعيرة كان عرفانا بالجميل لهؤلاء الآباء والأجداد وبالمواضع التى دفنوا فيها، كما كان فى نفس الوقت مبعثا ومحورا لأهم عناصر المعتقدات المصرية المرتبطة بعمار الوطن وحبه. كان الموت فى حد ذاته أحد تحديات الكون التى واجهها المصرى فى سعيه نحو آفاق أوسع من الحرية والازدهار، ولكن العقل الفنى هو الذى سيكشف عن هذا الرد من خلال الفكر التأملى للحياة فى الطبيعة من موت النبات ثم ازدهاره واختفاء الشمس ثم عودتها مرة أخرى فى حركة دائمة دائبة وفى فيضان النيل وانبعاث الحياة من البذور وتوالد الحيوان والإنسان الخ .. وكذلك من خلال التنمية المستديمة للعلوم و الفنون والآداب.



ومن حب الوطن جاء الدفاع عنه والاستشهاد فى سبيله:

كان الجهاد ضد " ست " فى معاقله الصحراوية من المهام الكبرى التى سعى إليها المصريون حيث انتشر النساك والمتعبدون فى الصحارى والواحات ليؤسسوا أديرتهم وينقطعوا فيها للعمل والعبادة والجهاد ضد ست مما أدى إلى تشكيل أقدم وأعرق حركة ديرية صوفية فى العالم انتقلت فيما بعد إلى المسيحية وانتشرت فى كل أنحاء العالم.

ولعل التشابه الواضح بين الأوزيرية والمعتقدات المسيحية المصرية الأولى يفسر لنا التسامح الذى لقيته هذه المعتقدات من الأوزيريين المصريين، ذلك أنه فى الوقت الذى كانت فيه عبادة ثالوث أوزير سائدة بين المصريين كان المسيحيون الأول لا يفرقون بين ما يمثله أوزير من بعث

نماذج من صنج السك في العصر الاموي:

امر الا
مير قره
بميزان دينر
واف

وقيامة وبين قيامة المسيح . فقد كانت المسيحية المصرية فى بداية عهدها تقوم فى أحد أشكالها على تقديس الأم " مريام " = إيزى ، حتى عرف أتباعها باسم المريميين.

وليس أدل على احتفاظ المسيحيين فى مصر والعالم بالمعتقدات الأوزيرية من انتقال الثالوث الأوزيرى إليها، والقيامة والبعث والحساب، والجنة ، والشهيد، والديرية. إلا أن هناك بعض الاختلافات خاصة فى مجال الديرية والرهبنة حيث قامت الديرية المسيحية على أساس دعوة أتباعها للخروج من الوادى حيث الاضطهاد الرومانى إلى الصحراء ، ونبذ الوادى (الوطن)، فإن السعى الحق عندها هو إلى ملكوت السماء، فتركو بذلك وطنهم، بعد أن تركوا معتقداتهم المرتبطة بعماره وقوته، نهبا للمحتل الرومانى الذى سرعان ما تحول إلى المسيحية التوراتية وشجع اتباعه من المصريين على اضطهاد إخوانهم أصحاب المعتقدات الدينية المخالفة لهم وخاصة الأوزيريين، و هكذا فتت الرومان وحدة المصريين و تمكنوا من السيطرة عليهم و استغلالهم ، فصدقت مقولتهم: " لقد هزمناهم عندما أنسيناهم دينهم ".

فى مصر، إذن – لأول مرة فى التاريخ – استيقظت الذات المنزهة منذ دهر لا يخضع لمقاييسنا. أيقظها الزمن الغفل لتوقظ الزمن الناجز. وقبل مصر كانت الكينونة البشرية عرجاء، مثقلة بفجاجتها المعرقِلة لوثباتها الفتية. ومع مصر صار الإنسان – صار التاريخ – شاباً يانعاً مترفاً بمنجزات روحه.

أن ضمير الإنسانية قد تأسّس فى مصر على أرفع نحو معروف. أجل، على ضفاف النيل، وقبل سبعة آلاف سنة من الآن، كان الإنسان ينسج حرير ضميره النقى. وبينما الإنسان يومذاك يفلح فى تزكية نفسه ويخرج من عدوانية الهمجية وشرها فقد كان يؤسِّس ويطور الحضارة التاريخية العالية، ويرقِّى مشروعه البشرى المتقدم ويدفع به إلى الأمام. فما كان فى الميسور قط أن تبدأ الحضارة إلا من جَوّانية الإنسان التى لا تخضع للقياس. أما الإنتاج، وأما نمط الإنتاج، فهو بالضبط الشرط الأول، الحامل المطلق لكلّ وجود بشرى؛ ولكنه الشرط الذى لا يكفي قطعاً، أو السبب الذي لا يسبب إلا إذا شَرَطَه ورافقه وتفاعل وإياه الفعل الجَوّانى الأصيل والهدف الإنسانى النبيل.



امر
اسامه بن
زيد ميزا
ن ثلث وا
ف

فبين حضارة نقادة وبين الملك مينا، مؤسِّس التاريخ، لا بدّ لاكتشاف الذهب من أن يكون قد تم بالفعل؛ إذ لا محيد عن حامل ثابت للقيم المادية، وإلا تعذر الوصال بين المتنائيات. بيد أن الزعم الربوي القائل بأن الفرعون ينبع من الذهب لا ينمُّ إلا عن رغبة عارمة فى التقاعس عن الذهاب إلى البعيد والعميق. إنه الشوط القصير والأمد القريب، المعبِّر عن نضوب الطاقة النظرية والنقص المريع فى الحكمة والتعشق المرهف بالحقيقة، على نأيها وطول مسافتها.

ألم تملك روما من الذهب أكثر مما امتلكت مصر؟ ولكن من ذا الذى يحترم روما ويحترم نفسه فى آن واحد؟ إما أن ترى الذات التى لا تُرى، والتى من أحشائها يولد كل شىء، وإما أن تعلق الحكم، حتى يُقيّض لك أن ترى بالبصيرة لا بالبصر؛ إذ لا يملك البصر أن يرى غير القليل.

إن مصر قد جاءت من سريرة الإنسان، ولم تأتِ من الذهب. فمصر اندلاع فذٌ لوجدان يرعش فى أعماق الروح، يرعش ويرعش حتى العياء. إذ ما من روح بشرى يثقله عبء الكينونة، عبء الظهور والتوارى، جدل الحياة والموت، كالروح الفرعونى. فههنا يتجلّى الإنسانُ مأساةً وفجيعة تحرق الكبد. وههنا – ولأول مرة فى التاريخ البشرى – يظهر المسرح المأسوى قبل سوفوكليس بآلاف السنين. ولولا هذا الرعش المتوتر، الأمين على المحتويات الأصلية للوجدان، والمنهمك أيّما انهماك بالمصير والزمان والتحاور مع الفراغ، لما كانت الحضارة البشرية اليوم على ما هى عليه، ولما عرف التاريخ يوناناً أو روماناً على الإطلاق. فمِن أغمض رفات النفس، لا من الذهب والفضة ونمط الإنتاج، ينبدلق التاريخ البشرى برمّته وكامل محتوياته.

فإما أن يكون الضمير المصرى، ضمير الفرعون العادل والطيب، وإما أن لا يكون التاريخ البشرى على الإطلاق. ومن المستحيلات أن يكون الجور المتطرف هو الحضور الأطغى على التاريخ، لأن الناس يدافعون عن أنفسهم بالانقراض – الشىء الذى حدث فعلاً فى الدولة الرومانية المتطرفة فى جورها، بحيث لم يبقَ من السكان فى كثير من الأقاليم سوى القليل. فالعدالة فى أساس المجتمع الفرعونى اليانع السامق، وإلا لما كان له أن يكون؛ ولو لم يكن لما كنّا. والحق أنه لو لم تكن العدالة هى القيمة المثلى لمصر الفرعونية لما طعن الطاعنون بعدالة الفرعون، ولكانوا قد رموه بمثلبة أخرى تتناسب مع القيمة الأولى لمجتمعه.



امر اسا
مه بن زيد
بميزن نصف
دينر واف

وما من شيء أدل على إنسانية الفرعون وخيريّته من ظاهرة التزام الفرعون بحدود مصر أو بما يزيد عليها بقليل (وذلك لأغراض الدفاع المبكر وحسب). فقد دلت الدراسات الحديثة على أن جيش الفرعون فى الدولة الوسطى قد كان يتألف من ستمائة ألف جندى، لأن التجنيد قد كان إلزامياً، ولأن عدد السكان قد بلغ اثني عشر مليوناً يومذاك. وهذا يعني أن مصر قد كانت قادرة على اجتياح جميع البلدان المجاورة لها، ولا سيما منطقة الهلال الخصيب. ولكن مصر تعبد السلام والعدل. وذلك ما يتبيّن لنا بوضوح من خلال النصوص الفرعونية المقدسة.

لا أذكر البتة أن لفظة "السلام" قد وردت فى جمهورية أفلاطون، أو فى كتاب *السياسة* لأرسطو. أما انهماك أفلاطون بالعدالة طوال حياته، أما أن يدور كتاب *الجمهورية* على العدالة، فتلكم علامة (ولكنها علامة واحدة وحسب، وقد تكون أصغر العلائم على الإطلاق) على أن أفلاطون ما كان إلا تلميذ مصر، تلميذ الفرعون، مؤسِّس العدالة فى التاريخ. فلقد صدق من قال بأن أفلاطون مصري، سواء أكانت خلايا جسده مصرية أم يونانية. فما من عاقل إلا ويستطيع أن يدرك، أن معظم أفكار أفلاطون، ولا سيما ما كان منها غيبياً وغموضياً وصوفياً، هي أفكار مصرية قطعاً.

قد يقال بأن سومر أسبق من مصر، وأن مصر قد تحضّرت ابتداء من سومر، إما بالحفز وإما بالاقتباس. والحق أنه لا بدّ من التسليم بوجود حضارات سبقت الحضارة الفرعونية؛ بل لقد ثبت بما لا يقبل الريب بأن مصر نفسها قد عرفت حضارة قبل الحضارة الفرعونية، وهي حضارة

بسم الله
مما امر به عبيد
الله بن الحبحاب
مثقال فلس ستة و
ثلثين قيراط و
اف

نقادة الأولى ونقادة الثانية. على أن هذا ليس الشأن الأهم؛ إذ ليس الشأن الأهم سوى القفزة النوعية.
فلا ريب فى أن مصر التي بنت الهرم وحنطت الجثة منذ مطالع الألفية الثالثة ق م كانت قد طورت العلمين الطبيعى (وبخاصة الكيمياء) والرياضى (وبخاصة الهندسة). ولا يعرف العراق مثل هذا المستوى من النهوض العلمى قبل ابتداء العصر الهرمى فى مصر، أى زهاء عام ٣٠٠٠ ق م؛ أو قُلْ إن المستندات التي فى حوزة المؤرخين لا تؤكد أى نهوض علمى فى بلاد الرافدين السابق على العصر الهرمى.
وبداهةً، ما كان فى الميسور على الإطلاق أن تشب الثقافة البشرية (في طورها الأرقى) من الجسمانية الإغريقية، من الرياضة والشبق (وهذا مما يشجع المرء على الذهاب إلى أن فيثاغوراس وأفلاطون طارئان على اليونان، وإلى أن فلسفتيهما ليستا من سوس النفس اليونانية). وفى قناعتى الخاصة – وهى قناعة برهانية أكثر مما هى حدسية – أن الكثير مما يبدو يونانياً إنما هو مستورد من مصر، ولكنه كان قد خضع فى اليونان لهضم وتمثل عميقين طوال مئات السنين. وإني لأخصُ بالذكر بضعة أشياء لا يساورنى أى ريب فى أنها مستوردة من خارج اليونان.
فالحديث عن "معجزة إغريقية"، أو عبقرية فذة فى العالم اليونانى، لم يكن إلا نتاجاً لهوس الشوفينية البائسة وحسب. إن حضارة اليونان لا ترقى البتة إلى مستوى حضارة الفراعنة. ولئن كانت متقدمة على هذه الحضارة فى إيقاع ثقافى واحد فهى متخلفة عنها فى عشرين مضماراً آخر على الأقل.
وأما الوصايا العشر، بلاءاتها المتكررة، فلا

بسم الله
امر الله بالو
فا و امر بصنعه
مثقال دينر واف القا
سم بن عبيد الله على
يد ظفار بن شبه
سنه ثنتين و عشر
ين و مائه

تخرج عن كونها تلخيصاً عامياً ساذجاً لـ"الاعتراف السلبي" الذي يؤدّيه المتوفى أمام الأرباب يوم الحساب فى الدار الآخرة (وهو ما تجده كاملاً فى كتاب الخروج للنهار). ولست أستغرب أن تكون هذه الوصايا البسيطة من مقررات المدارس الابتدائية فى مصر، يلقِنها المعلِمون لصغار الأطفال لتكون مبادئ أولية للحياة والسلوك. وأغلب الظن أن التوراتيين قد كانوا، فى بادئ أمرهم، من أتباع الإله آمون (أو "آمين") – فكلمة *آمون* فى العبرانية تعني "المؤمن"، وفي صلواتهم تراهم يستعملون كلمة "آمين" التي أرجّح أن الفراعنة قد كانوا يستعملونها فى صلواتهم أيضاً.



ويتركز يوم الحساب. وأهم ما فيه الوصف المستفيض للميزان، رمز العدالة الدقيقة، وأداة صيانة الأفعال والأقوال وحفظها من الضياع. إن على الفؤاد البشرى أن يتوازن بدقة مع ريشة ماعت، ريشة ربة الحق والعدل والصدق والحكمة، وإلا فإن عم-ميت، أو ملتهم الموتى، سوف ينقضُ على ذلك الفؤاد الخاسر فيلتهمه، فيكون الدمار مصير صاحبه إلى الأبد. وما هذا الوحش إلا رمزاً للقوة التى تنقِى وتصفِى، القوة التى تنفى كل خبيث لكى لا يظل إلا كل طيب.

ههنا، إذن، فى قاعة الربة ماعت يحق الحق ويزهق الباطل، مرة واحدة وإلى الأبد. فمن خلال هذه الربة وقاعتها ذات الميزان راحت مصر ترسّخ الضمير البشرى الذى من دونه لن تكون هنالك بشرية على الأرض، بل وحشية مطلقة. ومن خلال هذه الربة، أو الصورة المجسمة للضمير، راحت مصر تدشِن كل أخلاق على الإطلاق، بل قُلْ راحت تصوغ نويّات الأبدية

الإنسانية؛ إذ من دون العدل والحق سوف يتعذر على المشروع البشري أن يتأسّس أو يبدأ، ناهيك بأن يستمر ويدوم. فالشيء لا يكون إلا بإيجابياته، أو حتى بالسمات الإيجابية لأساليبه الخالصة.
وفي المقام الأول، يركز على شيئين:

١. وصف الجنة الفرعونية (ولكنه يكاد أن يسكت عن الجحيم الفرعونى، ولو أنه يؤشر إليه من خلال بحيرات النار).
٢. الرحلة التي يجتازها الميت بعدما ينجح فى الحساب على الميزان. وهى للحق رحلة طويلة شاقة، بل مريرة؛ غير أن أهم ما فيها أنها تؤشر إلى السفر فى قاع النفس البشرية.
فالحقيقة أنك إن لم تفهم التراث الفرعونى كله فهماً رمزياً فإنك لن تفهمه على الإطلاق. فالرحلة بعد الموت ليست شيئاً سوى ارتعاشات النفس المحزونة أمام المصير القاهر الذى لا رادّ لقضائه على الإطلاق. إنها فعلاً رُهاب الما بعد، ولكنها فى الوقت نفسه انتصار الروح المظفرة على هذا الرُهاب الخانق. وأخوف ما يخاف منه المتوفى الجوع الطويل الأمد فى رحلة طويلة الأمد؛ ولهذا تراه يتوسل إلى الآلهة كي يتداركوه، فلا يضطر إلى تناول القذر. بيد أن المسافر المنهك يبلغ إلى بغيته الختامية فى نهاية المآل، فينجح فى أن يحوّل كلّ عضو من أعضائه إلى إله، أو فى أن يصير كل عضو من أعضائه عضواً فى أحد الآلهة. وهكذا تنتهى النفس الظافرة إلى الانصهار فى السرمدية. وبذلك تؤشر العقيدة الفرعونية إلى *النيرفانا* الهندية وتوشك أن تقول بها صراحة وجهراً.



بسم الله
امر الله بالو
فا و امر بصنعه
مثقال دينر واف القا
سم بن عبيد الله على
يد ظفار بن شبه
سنه ثنتين و عشر
ين و مائه

فلا ريب عندى فى أن الديانات اليونانية التى أثرت فى اليهودية، مصرية الأصول، مادام هيرودوت نفسه يصرح فى الكتاب الثانى من *تواريخه* بأن ديونيسوس قد جيء به إلى اليونان من مصر، ومادام فى المنطقى أن كل حلقة تاريخية جديدة إنما جاءت من حلقة تاريخية تليدة، بحكم النمو العضوى للأشياء الحية طراً، بما فى ذلك التاريخ نفسه. فكما يأتى الشباب من الطفولة، والكهولة من الشباب، فإن اليونان قد خرجت من مصر ودون أدنى ريب.

ولا بأس فى أن أختم هذه المقدمة بالتعرض الوجيز لبعض العناصر الشعرية فى كتاب الخروج للنهار، أو لأهمِّها وأجلِّها شأناً، لأن فى ميسور الانتباه إلى هذه العناصر الرفيعة أن يرسخ معرفتنا بالروح الفرعونى الأصيل.

لعل الروح الشعرى، أن يكون من أبدى سمات هذه النصوص. وهو فى الحق روح ترميزى ينبثُ فيها بحضور غزير لا يخلو من فتون ولا من أبهة، بحيث يمكن القول بأن الترميز هو الوظيفة الأولى للعقل الفرعونى، على عكس يونان المفتونة بالوظيفة الشبقية للجسم البشرى.

فالنص ههنا مزود بطاقة تخييلية تكاد تضاهى أرقى الطاقات التخييلية فى أىّ شعر حديث، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن الصوفية (الغنوصية) الفرعونية لم تكتفِ بترويض الحجر من أجل التعبير عن محتوياتها الغنية والعميقة، بل إنها قد طوعت الكلم أيضاً واتخذت منه ملهجاً أصلياً به يلهج الباطن فيتكشف. فللحق أن هذه النصوص،

العهدة العمرية

أوّل مَن ذكر العهدة العمرية كان اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤ هجرية، وكانت نصّاً مختصراً:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس: إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم، لا تسكن ولا تخرّب، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً. وأشهد شهودا". وأمّا ثانى من أوردها فهو أفتيشيوس (ابن البطريق) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، فى صيغة تشبه صيغة اليعقوبى جاء فيها:

"بسم الله، من عمر بن الخطاب لأهل مدينة إيلياء، إنهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم، لا تهدم ولا تسكن. وأشهد شهودا"،

بينما نجد أنّ الأمر قد تغير تماماً عند ابن حزم الأندلسي) ت ٤٥٦هـ (،"حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الوَارِثِ، حدثنا عَبْدُ الرَّحْمَانِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ النَّحَّاسِ، حدثنا أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّفَّارُ، حدثنا أَبُو الفَضْلِ الرَّبِيعُ بْنُ تَغْلِبَ، حدثنا يَحْيَى بْنُ عُقْبَة، عَنْ أَبِي العَيْزَارِ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ غَنْمٍ قَالَ : كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى الشَّامِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ فِيهِ :

أَنْ لاَ يُحْدِثُوا فِي مَدِينَتِهِمْ، وَلاَ مَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلاَ كَنِيسَةً وَلاَ قَلِيَّةً، وَلاَ صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ، وَلاَ يُجَدِّدُوا مَا خَرِبَ مِنْهَا، وَلاَ يَمْنَعُوا كَنَائِسَهُمْ أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاَثَ لَيَالٍ يُطْعِمُونَهُمْ، وَلاَ يُؤْوُوا جَاسُوسًا، وَلاَ يَكْتُمُوا غِشًّا لِلمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُعَلِّمُوا أَوْلاَدَهُمُ القُرْآنَ، وَلاَ

بما تتمتع به من قدرة على التخييل، ومن طاقة على الابتكار ، إنما هى تشبه الشعر الحديث إلى حدٍ بعيد؛ بل إنها تحتوى على عناصر الحداثة كلِها، ولا سيما التغريب، والاقتصاد اللفظي، والإيحاء، والتخييل، والتصوير الرامز، الخ، بحيث لا يصح القول بأن الحداثة من مبتكرات العصور الحديثة على الإطلاق. فلا مراء عندى فى أن جوهر الحداثة (الذى هو، بإيجاز، تغريب اللغة عن مألوف عادتها) إنما أنجزته مصر يوم أنجزت الأهرام. بل لا مبالغة فى أن يقال بأنه ما عاد ثمة شيء جديد كل الجدة بعد بناء الأهرام.

هذه الرموز الفذة لفحاوٍ جمّة قد لا ترضخ للسبر المُمَنْهَج، بل ربما تعنو للتفرس والتوسُم وحسب. فالأهرام عندى تفصل المشروع البشرى إلى فصلين كبيرين: ما قبلها وما بعدها. ومع الأهرام وحدها تبدأ الحضارة الرفيعة.

وكثيراً ما شعرت، لدى قراءة هذه النصوص، بأنها تشبه شعر ت. س. إليوت، بل هي تشبهه إلى حدٍ ملحوظ. وفى تقديرى أن إليوت قرأ الكثير من النصوص الدينية الفرعونية. فمناخ "اليباب" لا يبعد كثيراً عن مناخ هذه النصوص الرفيعة الصوغ. ومن شأن مثل هذه الملاحظة أن تؤكد ما فحواه أن "الحداثة" ليست حديثة على الإطلاق!

ومما لا بدّ منه أن يرى المرء تلك الصبغة الواحدة التى تلون كلاً من النصوص والفنون الفرعونية بلون واحد أصلى. وإذا ما علم المرء أن السمة الأولانية للفن الفرعونى هي التخبئة، أو تستير المضمون، بحيث يتوافق مع النفس

المستترة والآمون الخفى؛ إذ إن دائرة الفرعون هى دائرة الاستتار والكتمان والتنقيب فى باطن الذات وفى ما وراء المرئيات. وإذا ما أدرك أن العمل الفنى الفرعونى، بنزوعه إلى التكتم على منطوياته وفحاويه، لا يعطيك ذاته دفعة واحدة، شأنه فى ذلك شأن كل ناضج أصيل، بل هو دوماً يصون ويستر معناه، بحيث لا تراه يقدم شيئاً إلا برسم البصيرة وحدها، عند ذاك فإنه سوف يعرف أن عناصر الحداثة برمّتها هى إنجاز فرعونى حكماً، لأن الحداثة لا تطمح فى البلوغ إلى أى مبلغ يقع وراء هذا الأفق.

إن العمل الفنى الفرعونى لا يعني للبصر إلا القليل، وذلك على نقيض العمل الفنى اليونانى تماماً. فالناظر إلى الهرم يحسبه مجرد كومة من الحجارة، اللهم إلا إذا أُوتِى الفطنة الباطنية والقدرة على التفرس. وما لم يؤتَ المرء مثل هذه الفطنة وهذه القدرة فإن تمثال أفروديت سوف يتبدّى له أكثر قدرة على الجذب من تمثال نفرتيتى. هاهنا، كل شىء لا برسم النخبة وإنما برسم خلاصة النخبة وحدها، وقفٌ على الأكابر من دون الناس.

إن مصر، إذن، بلد الأرستقراطية بامتياز، ولا سيما أرستقراطية العالم الداخلى. فلا أحسب أن فى الأرض كلِها دائرة حضارية يمعن أكابرُها فى احترام أنفسهم وميز شخصياتهم عمّن سواهم كما فعل أكابر هذه الدائرة الصحراوية على مدار التاريخ. ولهذا صار رجل النخبة عندنا ضرباً من ضروب السر، فتواترت فى أوساط الصوفية عبارة "قدّسَ الله سره".

يُظْهِرُوا شِرْكًا، وَلاَ يَمْنَعُوا ذَوِى قَرَابَاتِهِمْ مِنَ الإِسْلاَمِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ يُوَقِّرُوا الْمُسْلِمِينَ، وَيَقُومُوا لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِهِمْ إِذَا أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلاَ يَتَشَبَّهُوا بِالْمُسْلِمِينَ فِى شَىْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ :فِى قَلَنْسُوَةٍ، وَلاَ عِمَامَةٍ، وَلاَ نَعْلَيْنِ، وَلاَ فَرْقِ شَعْرٍ، وَلاَ يَتَكَلَّمُوا بِكَلاَمِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يَتَكَنَّوْا بِكُنَاهُمْ، لاَ يَرْكَبُوا سُرُجًا، وَلاَ يَتَقَلَّدُوا سَيْفًا، وَلاَ يَتَّخِذُوا شَيْئًا مِنَ السِّلاَحِ، وَلاَ يَنْقُشُوا خَوَاتِيمَهُمْ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلاَ يَبِيعُوا الْخُمُورَ، وَأَنْ يَجُزُّوا مَقَادِمَ رُءُوسِهِمْ، وَأَنْ يَلْزَمُوا زِيَّهُمْ حَيْثُمَا كَانُوا، وَأَنْ يَشُدُّوا الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، وَلاَ يُظْهِرُوا صَلِيبًا، وَلاَ شَيْئًا مِنْ كُتُبِهِمْ فِى شَىْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُجَاوِرُوا الْمُسْلِمِينَ بِمَوْتَاهُمْ، وَلاَ يَضْرِبُوا نَاقُوسًا إِلاَّ ضَرْبًا خَفِيفًا، وَلاَ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْقِرَاءَةِ فِى كَنَائِسِهِمْ فِى شَىْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُخْرِجُوا شَعَانِينَ، وَلاَ

يَرْفَعُوا مَعَ مَوْتَاهُمْ أَصْوَاتَهُمْ، وَلاَ يُظْهِرُوا النِّيرَانَ مَعَهُمْ، وَلاَ يَشْتَرُوا مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ خَالَفُوا شَيْئًا مِمَّا شَرَطُوهُ فَلاَ ذِمَّةَ لَهُمْ، وَقَدْ حَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ ."ولا يكاد ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) وابن عساكر (ت ٥٧١هـ) يختلفان، عن جوهر ما ذكره ابن حزم الأندلسي، وإن كانت عند ابن قيم الجوزية، غير مرفوعة السند، وهو يعترف أنّ شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، وهذا كلام لا يصمد أمام شروط البحث العلمي، فالسند شرط أساسي عند أهل الحديث، وأمّا مَن يحكمون العقل، فالسند حتى لو كان صحيحاً في نقل أي رواية، لا قيمة له إن لم يتطابق المتن مع القرآن والعقل وسماحة الإسلام التي ما زال يتبجّح بها مَن يرى فيما سطرته أقلام فقهاء القرن الخامس

ولئن أمعن المرء فى تأمله للعمل الفنى الفرعونى (ولاسيما للهرم والكرنك) وجده مصوغاً بحيث يمثل للباطن ما يمثله الكون للعقل المتذهِّن. فكما لا يدرك العقلُ هذا الكون إلا على مستويات وعلى دفعات – أى أن العقل يتعمق الكون على الدوام من التعمُّل فيه واستخلاص حقائقه بالتدريج – فإن الباطن، أو قوة التوسُّم الباطنية، يستوحى العمل الفنى الفرعونى استيحاء.

وهو للحق عمل يتأسَّس أصلاً على هذه المزية، بمعنى أنه لا يستمد قيمته إلا من حيث هو قدرة على الإيحاء، لا على الإفصاح. فهو لا يعطيك من ذاته إلا بقدر ما لديك من استعداد باطنى للأخذ، تماماً مثلما يأخذ ذهنك من حقائق الكون ما هو أهل له وحسب؛ وهذا يعنى أنه لا يسمح لأحد بأن يأخذ أكثر من حقه. وعند ذاك تبتسم الربة ماعت لتنمّ عن ابتهاجها بالتطبيق الطبيعى للعدل. وهذا يعنى أن العمل الفنى الفرعونى ديموقراطى بقدر ما هو أرستقراطى؛ أو قُلْ إنه لا يقيم أيما وزن لغير معناك الذى هو أنت بالضبط. فلئن أحببت أن تعرف مدى نضجك وماهية باطنك فلتجهد نفسك فى استبار ماهية الهرم وهتك أسراره المستورية الغنية والعميقة. وعلى قدر ما تستطيع أن تهتك من مكنونات وفحاوٍ مستبطنة تكون طاقتك الاختراقية.

وأياً ما كان جوهر الشأن، حبذا لو تذكر المرء، لدى التعامل مع منجزات الدائرة الفرعونية، أن هذه الدائرة هى المجال التاريخى الوحيد الذى استطاع فيه الوحى أن يقود الناس طوال آلاف السنين. فكل شيء هاهنا قد كان مربوطاً بالوحى،

ومصوغاً بحيث يكون الوحى جاسداً، وبحيث يؤدي وظيفة ما من وظائف الوحى. وهذا ما عجزت اليونان عن استيعابه واقتباسه. ثمة حقاً، فى كل حضارة، برهة جوهرية لا تقبل الاقتباس ولا تذعن للتمثل من قبل الأغيار.

إن ما نلقاه فى المنجزات الفنية الفرعونية من تمجيد للمستور والرامز نلقاه بأمّ عينه فى النصوص الدينية والأدبية لمصر القديمة. وهكذا يمكن للمرء أن يلاحظ ما فحواه أن النصوص فى كتاب الخروج للنهار تكثر من استعمال كلمة "المخبوء" أو ما يشير إلى اللامرئى والسرى والمجهول. وهى تكثر كذلك من التطرق إلى العميق والظلام والهاوية والإعصار وشتى الرموز الدالة على الغبش، أو على حدس المابعد، أو استشعار المغيبات؛ إذ الكلف بالغياب والغائب، المبهج أو الراعب، هو جوهر النزعة المستورية، أو الفاعلية الرمزية القادرة على تغييب الفحاوى والمنطويات. وللحق أنه ما من حضارة اقتننت من حدس الغياب أو الاستسرار كما فعلت مصر الفرعونية.

ولا مراء فى أن رعشة الموت والحياة بعد الموت هى الينبوع الأغزر الذى انبثقت منه هذه اللغة الموحية الرامزة، بل هذه الفاعليات الباطنية كلها. فما من شيء قد طور الخيال والأسلوب والفن فى مصر بقدر ما طوّرته شهوةُ الحياة بعد الموت. بل كثيراً ما يبدو لى أن تاريخ الحضارة البشرية ليس شيئاً آخر سوى تاريخ التغلب على رهاب الموت والتناهى، وأن ***تدجين الموت هو الصانع الأول لإنسان التاريخ.***

الهجري – الحادي عشر الميلادى وما تلاه، أنه هو الإسلام الحقيقيّ، بينما تمّ شطب عصر الأنوار الإسلاميّ، إن جاز لنا أن نطلق هذه التسمية على القرن الرابع الهجري وما سبقه. وفى النسخة المعتمدة حالياً لدى كنيسة القدس الأرثوذكسية التى نشرتها بطريركية الروم الأرثوذكس عام ١٩٥٣م فى القدس نقرأ:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذى أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات وألف قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، ومكن لنا من البلاد، وجعلنا إخواناً متحابين، واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة. هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق أعطى إلى البطرك المبجل المكرم وهو صفرونيوس بطرك الملة الملكية فى طورزيتا بمقام

القـــدس الشـــريف فى الاشـتمال علـى الرعايـا والقســوس والـرهبـــان والراهبـات حيـث كانـوا وأيـن وجـدوا، وأن يكـون عليهم الأمـان، وأن الذمى إذا حفـظ أحكـام الذمــة وجب لـه الأمـان والصـون منا نحن المؤمنين وإلى من يتولى بعدنا وليقطـع عنهم أسبـاب جوانحهم بحسب ما قد جرى منهم من الطـاعة والخضـوع، وليكن الأمـان علـيهم وعلـى كنائسـهم وديـارهم وكافـة زيـاراتهم التى بيدهم داخلا وخارجاً وهى (القمامة) القيامـــة وبيـت لحـم مولـد عيسـى عليـه السـلام كنيسـة الكبـراء، والمغـارة ذى الثلاثـة أبـواب، قبلـى وشمالى وغربى، وبقيـة أجنـــاس النصـــارى الموجـودين هنـاك، وهـم الكـرج والحـبش، والـذين يأتون للزيـارة من الإفرنج والقبـــط والسـريـــان والأرمـــن والنســاطرة واليعاقبة والموارنـة تـابعين للبطـرك المـذكور، يكـون متقدما عليهم لأنهم أعطوا

ومن الواضح فى النصوص التى بين أيدينا من كتاب الخروج للنهار أن المصير بعد الموت قد تطور بتطور الخيال البشرى؛ وهذه هي العلاقة الجدلية بين الصانع والمصنوع، بين الموت والخيال الذى هو من نتاج رعشة الموت.

فالأرجح أن العقيدة الأولى فى مصر، ربما فى عصر نقادة، قد كانت تعلِم ما فحواه أن الإنسان بعد الموت سينال حقلاً فى إقليم ما يشبه مصر ويخترقه نهرٌ يشبه النيل. وهذه – لا ريب – عقيدة مجتمع زراعي بسيط لم يكن يعرف الدولة ولا الكتابة. أما بعد بناء الأهرام وتشكل الفرق السرية النخبوية فقد اختلف طموح الإنسان الفرعونى، لأن خياله قد صار أنضج بكثير مما كان عليه قبل الدولة والكتابة والذهب. فالنصوص التي بين أيدينا من كتاب الخروج صريحة فى تحديدها للمصير على أنحاء متباينة، ولكنها جميعاً تنم عن خيال متطور رفيع:

- سوف يكون المصير خلوداً سرمدياً على هيئة إله.
- سوف يستحيل كل عضو من أعضاء المرء إلى ربٍّ قائم بذاته.
- سوف يصير كل عضو من أعضاء المرء عضواً فى جسد إله معين.
- سوف يكون للمرء موضع فى زورق رع، بحيث يبحر على الدوام فى الفضاء اللامتناهي.

والأرجح أن هذه العقائد قد تشكلت بعد بناء الأهرام؛ والأرجح أنها عقائد المجموعات السرية. ولعل العقيدة الأولى – عقيدة الفلاح العامل فى حقل يشبه حقله فى الدنيا – قد استمرت حتى عهود الانحلال. بيد أن أهم ما فى الأمر هو الدور

الجبار الذي لعبته هذه الأخيولات المصقولة، وأمثالها فى تأسيس الحضارة الفرعونية – وهى الحضارة التى أطلعت كل ما هو رفيع فى التاريخ البشرى، وذلك من خلال الحفز والحوار والاقتباس.

ما من شيء عظيم فى حياة البشر طوال القرون الخمسين الأخيرة إلا ويمت بصلة نسب إلى الهرم، إلى ضريح الفرعون ابن الشمس. وهذا يعنى أن الفرعون ما انفك حياً بالفعل، وأنه قد انتصر على الموت حقاً، وأنجز رغبته فى البقاء، وراح من رمسه ينجب بالحياة.

المؤثرات الفرعونية فى عذاب القبر ونعيمه :

وحساب القبر ونعيمه وعذابه من أهم مقررات العقائد الدينية الفرعونية، ويؤكد الأستاذ سليم حسن فى بحثه عن الحياة الدينية المصرية القديمة أن كل شيء فى الشعائر الدينية كان يشير إلى الاهتمام بمصير جسد الإنسان عند الموت أكثر من نفسه أو روحه، وإن ذلك الاهتمام بمصير جسد الميت ازداد بعد طغيان عقيدة إيزيس وأوزوريس حيث كان أمل الميت أن يعود جسده للحياة السوية كما حدث فى أسطورة أوزوريس الذى عاد للحياة بعد الموت .

وفى العقائد الجنائزية لما بعد الموت هناك ثلاث روايات مختلفة عن مصير الميت بعد دفنه وحسابه أمام أوزوريس الذى كان إله الموت والموتى وكان الإله العظيم لعالم الموتى وسيد القضاء للموتى فى قبورهم. ويقرر (إرمان) فى

من حضرة النبى الكريم والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريم، وأمر بالنظر إليهم و الأمان عليهم، كذلك نحن المؤمنون نحسن إليهم إكراماً لمن أحسن إليهم، ويكونوا معافاً (معافيين) من الجزية والغفر (الخفر) والمواجب، ومسلمين من كافة البلايا فى البر والبحور وفى دخولهم للقمامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منهم شيء، وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القمامة، يؤدى النصرانى إلى البطرك درهم (درهما) وثلث من الفضة، وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً كان أم حاكماً والياً يجري حكمه فى الأرض، غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات. وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام، عبد الله، وعثمان بن عفان وسعد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وبقية الأخوة الصحابة الكرام. فليعتمد على ما

شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به، وأبقاه في يدهم، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وأصحابه، والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل .في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خامس وعشر للهجرة النبوية. وكل من قرى (قرأ) مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن وإلى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضاً.

نكتفي بهذه النماذج التي تدلل على اضطراب واضح في الرواية. أمّا بخصوص ما ذكره ابن حزم وابن قيم الجوزية وابن عساكر، فيمكن إجماله في ما يأتي: الثلاثة ومن هم على شاكلتهم من فقهاء لم يكن لهم هذا الحضور لولا انتصار النقل على العقل، وتغييب الأخير بحجج الحفاظ على بيضة الإسلام من البدع والضلالات. لغة العهدة التي ذكرها الثلاثة وكذلك نسخة بطريركية الروم

كتابه ديانة مصر القديمة أن الميت يصحو فى القبر فى بعث متجسد، أى يصحو بجسده وهى نفس الفكرة التى لا يزال يكررها فقهاء الأرياف عند إلقاء الخطبة التقليدية عند الدفن.. ولا يزال المصريون يعتقدونه.

ونقرأ فى الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى مشهداً لمحاكمة الميت فى قبره حيث يجلس أوزوريس على عرشه وأمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس وآكل الموتى وهو حيوان مرعب يتشكل من تمساح وأسد وفرس النهر، ويجلس قضاء أوزوريس، قضاة المحكمة وهم على أشكال مخيفة ولهم ألقاب مفزعة وعددهم اثنان وأربعون قاضياً بعدد مقاطعات مصر القديمة، ويتم حساب الميت بوزن قلبه فى الميزان ويسجل (تحوت) كاتب الآلهة النتيجة على لوحة ثم يخبر بها أوزوريس .
ويتقدم الميت مخاطباً أوزوريس بالتمجيد ثم يبدأ بالدفاع عن نفسه وينفى وقوعه فى شىء من المعاصى.. والناجحون فى الامتحان يدخلون مملكة أوزوريس وجنته أما الراسبون العصاة فيظلون فى مقابرهم جوعى وعطشى بل أن القضاة يحملون معهم أدوات لتعذيب الموتى العصاة، والحيوان المخيف الواقف أمام أوزوريس يلتهم الميت ويمزق أعضاءه، واسم ذلك الحيوان آكل الموتى "عم ـ ميت".

وفى رواية أخرى يكون الميت فى قبره بين ثلاث فئات.. فئة تفوق سيئاتهم حسناتهم، ومصيره إلى الحيوان الوحشى الذى يأكله، وهنا يحدث تحوير صورة ذلك الحيوان، إذ يكون فى تلك الرواية

كلبة متوحشة وليس الحيوان الخرافى عم ـ ميت.. وقد يكون الميت من فئة تفوق فضائله رذائله، وحينئذ ينضم إلى جنة الآلهة، وقد تتعادل حسناته وسيئاته وحينئذ توكل إليه مهمة خدمة الآلهة ..

فى رواية ثالثة يتحول الحيوان الخرافى الذى يعاقب الميت العاصى إلى ثعبان أفعى ضخم رهيب المنظر، وإذا أفلح الميت فى حسابه أمام أوزوريس يقال لذلك الثعبان الهائل يا أفعون لا تأكله ..

وانتقلت تلك الأسطورة الأخيرة إلينا فى شكل جديد بعد عدة تحويرات.. أصبح أوزوريس فيها يتسمى باسم عزرائيل.. وأصبح الثعبان الضخم ثعباناً أقرع، وأصبح القائمون على محاسبة الميت فى قبره اثنين فقط من الملائكة أطلق عليهما لقب منكر ونكير.. ندخل بذلك إلى التفصيلات.. وجذورها التاريخية ..

أشار أدولف إرمان فى كتابه "ديانة مصر القديمة" إلى انتقال عقيدة إيزيس وأوزوريس إلى أوروبا واستمرارها إلى العصور الوسطى، وكان تأثيرها شديداً فى الشام خصوصاً فى اليهودية والنصرانية.. وأكد هذه المقولة باحثون أمثال "ويلز" فى كتابه "موجز تاريخ العالم" و"شارل جينيير" فى كتابه عن تاريخ المسيحية ..

وفيما يخص موضوعنا عن القبر حسابه وعذابه فإن القرآن يشير إلى أن اليهود عبدوا (عزير = أوزير) زاعمين أنه ابن الله وأنهم بذلك يسيرون على نهج السابقين (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

الأرثودكس، لا تتفق وأساليب العربية فى بداية الإسلام، كما أنّ المواثيق التى كتبها قادة الجيوش مع المدن كانت مقتضبة جداً. الاختلاف فى السند، فبينما ابن حزم ينسبها متسلسلة، يكتب ابن قيم الجوزية: حدّثنا غير واحد من أهل العلم قالوا. وحين أشار الطبرى ومجير الدين الذى نقل عنه، إلى أنه أعطى لأهل القدس فى الجابية، نرى ابن حزم يذكر أنّ العهدة كتبها " نصارى الشام " وكذا يفعل ابن عساكر، بينما ابن قيم الجوزية يجعل كتبتها "أهل الجزيرة"، ويضيف "إن شهرتها تغنى عن إسنادها لأنّ الأئمّة تلقوها بالقبول، وذكروها فى كتبهم، واحتجّوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفى كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء، وعملوا بموجبها " هذا الكلام التلفيقى لا يستند إلى أى حجة، فلم يذكرها بصيغتها التى ذكرها الثلاثة أى مصنّف خطته

أنامل الفقهاء الأوائل، ولو كانت وردت على ألسنتهم وفى كتبهم وأنفذها الخلفاء، فلماذا لم تحوها هذه الكتب، ولم تذكر لنا مصنّفات وعّاظ السلاطين وفقهاء النور على السواء أن الخلفاء عملوا بها، بينما أخبرتنا عما فعله الخليفة العباسى المتوكل وسواه ؟ إنّ شروط الملبس والاسم وغيرها، إنما هى شروط متأخّرة، فعلى سبيل المثال كانت أسماء المسيحيين لا تختلف عن أسماء المسلمين، ولكننا بدأنا نلاحظ من خلال تتبعنا للتاريخ أنّ أسماء مثل حسن وحسين وعلى بدأت تختفى، لأنّ المتوكل أمرهم بذلك، بل إنّ هذه العهدة تقترب من قرار الخليفة المتوكل، فحيثياتها موجودة فى قراره. كما أنّ العهدة اشتملت على تنظيم أمور وأحوال لم تكن موجودة، إذ أنّ الدولة الإسلامية فى ذلك الحين كانت شبه بدائية قياساً لما صار عليه الأمر بعد مرور نصف قرن وأكثر،

(التوبة ٣٠).
أوزوريس اسمه المصرى وباللغة المصرية القديمة عزير.. حرف العين يوجد فى اللغة المصرية القديمة ولا يوجد فى اللغة اليونانية ولذلك فإن الأوروبيين حين نطقوا (عزير) باللغة اليونانية القديمة قالوا (أوزوريس) أى (أوزير).

وأضافت اليهود إلى (عزير) تحريفاً آخر تحول به من إله الموتى عند قدماء المصريين إلى ملك الموت، وأصبح اسمه (عزرائيل).. وتوارثنا منهم الاعتقاد بأن "عزرائيل" هو ملك الموت ولقد ذكر القرآن أسماء بعض الملائكة مثل جبريل وميكائيل، وتحدث عن الروح وملك الموت ولكن لم يذكر اسما لملك الموت. فإن "عزرائيل" المشار إليه على أنه ملك الموت لا أصل له فى الإسلام ..أما ما يرد فى القرآن فهو (عزير)" (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) (التوبة ٣٠)

وهذا يدلنا على أن المؤثرات الفرعونية ظلت حية فى مصر والشام والعراق بعد ظهور الأنبياء من بنى إسرائيل وإلى ما بعد ظهور الإسلام ..

والعقائد المرتبطة بالموت وعذاب القبر وحسابه مأخوذة من أصول فرعونية ولكن تحولت لبعض التحوير الذى أشرنا إليه.

وقد أحيا القصاص تلك العقائد الدينية القديمة فى العصر الأموى وما تلاه .. خاصة فى مصر و منها انتقلت إلى العالم الإسلامى كله. والقُصّاص هم مجموعة من الناس احترفوا الوعظ فى المساجد وغيرها بعد أوقات الصلاة.

دوافع الاعتقاد في الحياة الآخرة :

كان عند المصريين القدماء مجموعة دوافع واعتبارات جعلتهم يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت منها :

١- اعتبارهم أن الحياة الدنيا حلبة صراع بين المتناقضات بين الخير والشر ، بين الصالح والطالح ، بين البر والفاجر وكثيرا ما كان للشر الانتصار على الخير في الحياة الدنيا ، والباطل على الحق وهذا مخالف لناموس الحياة لذلك لا بد من حياة أخرى ينتصر فيها الخير على الشر والحق على الباطل والأبرار على الفجار انتصارا أبديا .

٢- اعتقادهم أن النفس الإنسانية تنفصل عن الجسم وأن هذه النفس ذات أربع شعب أحداها الروح، والثانية العقل والإرادة والثالثة صورة من الأثير أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تماما والرابعة هي الجوهر الخالد الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة وعندما يموت تظل الروح تتردد على الإنسان في قبره حتى يجتاز الحساب ويصل إلى مرحلة الثواب ثم تعود إليه مفعمة بالحياة من جديد .

معتقدات مصرية ساهمت في الزهد المصرى

العقيدة بكتاب الموتى (الخروج للنهار)

يشمل هذا الكتاب على آداب وفضائل وعلى ما

فكيف يتنبأ كتبة العهدة بكلّ هذه الأمور التي لم يعايشوها مطلقاً.

وقد تزامن هذا مع تراجع العقل الخلاق. وبهذا تحوّل المسلم من خليفة لله في الأرض يُعمّرها ويبدع فيها ويتمتّع بخيراتها ونتائج إبداعاته، الى ضيف كسول، وعابر سبيل يتوقف مكرهاً في محطة يمقتها، مما جعله يُراكم منظومته الاجترارية المبنية على كراهية هذه المحطة، مع إحاطة نفسه بأعداء حقيقيين ووهميين. ولكي يبرّر فشله واستقالة عقله، تحوّل كل شيء الى أسطورة، الأعداء، الماضي، تأليه السلف الذين أصبحوا صالحين مائة بالمائة، ولا مجال لدراسة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية لمعرفة أسباب نجاحاتهم وإخفاقاتهم. فهذه الدراسات تدخل ضمن دائرة الحلال والحرام، وكأنّ السلف لم يكونوا بشراً ومثل أي مجموعة بشرية نجد فيها نقاط ضعف وقوّة،

ومتناقضات ما من إنسان إلا ومرّ بها. هذه هي العهدة العمرية، «بصيغتها الواردة لدى ابن حزم وابن قيم الجوزية وابن عساكر، نتيجة حتمية لانغلاق دائرة الفقه الابداعية، وتحريم الفلسفة و"نقض المنطق". و أصبحت ابنة بارّة لسنابك خيول القبائل الرعوية التي أسلمت بسرعة وأصبحت تحمي الخليفة وتعيث فساداً في الأرض، وهي نفسها القبائل التي راحت تتلاعب به وتسمل عيونه إن شاءت، وصار الدين عبارة عن حلال وحرام وليس نهضة ثقافية نتيجة تلاقح ثقافات الشرق كله مع ثقافة الضفة الأخرى من المتوسط.

تلقنه الروح من عبادات لتحسن الإجابة أمام أوزير إله القيامة ويعد هذا الكتاب الأعلى عند قدماء مصر يتعبدون بتلاوته وهم أحياء ويوضع معهم فى قبورهم وهم أموات وهم يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده وقد جاء عن منزلة هذا الكتاب فى أحد أبوابه أن هذا الكتاب يعلى شأن الميت فى أحضان رع، ويجعله عظيما لدى أوزيرس ومرهوب الجانب لدى الآلهة .

وكل ميت وضع له هذا الكتاب تخرج روحه نهارا مع الأحياء وتقصد إلى الآلهة ولا يعترضها أحد وتدنيه الآلهة إليها وتلمسه لأنه شبهها ، كتاب الموتى معتقدا به والمصريون القدامى يرون به غذاء الميت فى عالم الدنيا وقوت روحه فى الأرض يجعله دائما لا يعلو عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو كتاب يشمل على جميع الكلمات السحرية التى تستعمل لعلاج الأمراض ويشمل على الصلوات والأدعية وعلى ما يجب للميت من تحنيط وطقوس دينية ويحكى ما يقوله الميت الذى أقيمت الطقوس الدينية التى يدعو إليها الكتاب .

الهرمسية

أصل اللفظ مشتق من الكلمة اليونانية القديمة " هرما "أي الدلائل الحجرية التي كانت تستخدم كعلامات للطريق وكانت تأخذ فى بعض الأحيان شكل عضو الذكورة المنتصب ومن هنا جاءت خاصية هرمس لمعرفة الطرق ولهذا كان إله حامى للتجار. هو إله ماهر وماكر ويقوم بدور

مرسـال الآلهـة، ومـن هنـا جـاء دوره فـى نقـل الرسائل للموتى، فى العصر الهليني أعتبر المقابل اليونانى للمعبود المصرى "تحوت" وبعد إعادة صياغة كتب تحوت انتشرت فى الشرق باسم متون هرمس.

هـى أقـدم المـدارس الغنوصـية علـى الإطـلاق، فأصولها ترجع للقرن الثالث قبل الميلاد (تقريبا)، وهـى التجسيد الأخير للديانـة المصـرية وكانـت بمثابة الجسر الذى علية عبرت الديانـة المصـرية لاختراق ديانات المنطقة وكذلك كانت بمثابة النبع الأول الـذى نهلـت منـه بـاقي فلسـفات وديانـات المنطقـة. نسبة إلـى هرمس(المعظـم ثلاثـا) وهـى شخصية حكيمـة أسطورية وعالميـة نسبت إليهـا عـدد هائـل مـن النصـوص سـاهمت فـى تـدوينها جماعات عدة من مصر. أصل الاسم " هرمس " وهو المقابل الإغريقي للإلـه المصـري "تحـوت " رب الحكمة والكتابة وتجسيد للنظام الكوني وكـان يطلق علية "تحوت مثلث العظمة" فنقل هذا اللقب لهرمس أيضاً.



هرمس

تقريباً كل الحضـارات ادعـت نسبة هـرمس لهـا وتجلى فى أسماء عدة، فهو " أنبجهد " فـى بـلاد فارس، وهو أخنوخ فى التوراة وهو النبى إدريس فـى القرآن الكريم كمـا أكدت علـى ذلـك عدد من المصادر. من الصـعب وصـف الهرمسية بالديانـة فهى أقرب للفلسفة منها للدين رغم اعتمادها فى نصوصها على السرد الاسطورى، وقد دون فيمـا يبدو أول النصوص الهرمسية قبل الميلاد بثلاث قـرون أى فـى نفس القـرن الـذى ترجمـت فيـه الإصـحاحات الخمسـة الأولـى من العهد القديم "

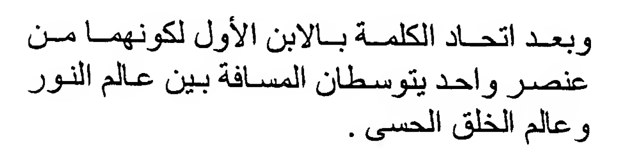
التوراة" لكنها بلغت قمة تطورها فى القرن الثانى والثالث الميلادى بسبب تفاعلها مع الأفلاطونية الحديثة التى تبلورت فى إسكندريا.

النص الهرمسى المؤسس (بومندريس)

هو من أقدم النصوص الغنوصية وهو النبع الأساسى لكل المدارس الغنوصية والاتجاهات العرفانية سواء فى العصر القديم أو فى العصور الوسطى، وفيه يسرد هرمس رؤياه وفيها يتجلى له العقل الكلى " بومندريس " ويعرض له بانوراما لمراحل الخلق الثلاث:


هرمس

الأول عالم النور وهو عالم العقل الكلي والأب ومبدأ كل شيء، العالم الثاني هو عالم الأمر من صنع الكلمة النورانية، أما العالم الثالث هو عالم الخلق (عالم الأفلاك) وهو العالم الحسى من صنع الابن الأول للعقل الأول.


وبعد اتحاد الكلمة بالابن الأول لكونهما من عنصر واحد يتوسطان المسافة بين عالم النور وعالم الخلق الحسى .

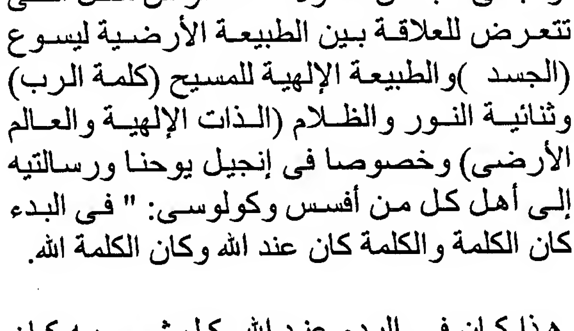
هذا عن الجزء الأول من الرؤيا، أما الجزء الثانى فيتعرض للعود أو المعراج عبر الأفلاك السبع. هذه الرؤيا بقسميها كانت اللبنة الأساسية لأغلب المدارس الغنوصية فى العصر القديم والوسيط مع بعض التغيرات لكى تتوافق مع الفكر الدينى السائد.

اتجاهات الغنوص الأساسية فى العصر القديم
الغنوص المسيحى

تبنى الغنوص المسيحى أغلب مقولات الغنوص الأساسية بالإضافة إلى ظهور المسيح كمخلص مرسل من الأب لتعريف البشر بأصلهم السماوى وانتقى الغنوصيون بعض من أقوال المسيح وأعادوا تأويلها لتتفق مع خطابهم وقد اعتبروا أنفسهم مسيحيون مخلصون وقد ساهموا بدور غير منكور فى نشر مبادئ السيد المسيح فى بلدان المتوسط فى القرنين الأولين بعد الميلاد، لكن التنافر بينهم وبين المؤسسة المسيحية أصبح حتميا فى القرن الرابع بعد أن أصبحت المؤسسة الدينية الوحيدة المعترف بها من قبل الإمبراطورية الرومانية.



تحوت (هرمس)



وعلى كل فهناك أثار اختراق غنوصى للمسيحية أو تبنى لبعض مقولات الغنوص مثل التى تتعرض للعلاقة بين الطبيعة الأرضية ليسوع (الجسد)والطبيعة الإلهية للمسيح (كلمة الرب) وثنائية النور والظلام (الذات الإلهية والعالم الأرضى) وخصوصا فى إنجيل يوحنا ورسالتيه إلى أهل كل من أفسس وكولوسى: " فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله.

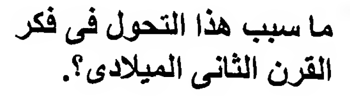
هذا كان فى البدء عند الله. كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضىء فى الظلمة والظلمة لا تدركه " (يوحنا، 1). "والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً" (يوحنا ١).

مقدمات العصور الوسطى

لم تصلنا حتى الآن أى معلومات عن الأوضاع الدينية فى مصر فى القرن الأول الميلادى، ولا عن كيفية ظهور المسيحية فى مصر لكن الثابت هو أن ظهور أول أثر للمسيحية فى مصر كان فى النصف الأول من القرن الثانى وما بين هذا التاريخ إلى أن تحقق لها النصر الحاسم والنهائى على الديانة المصرية فى القرن الخامس بإغلاق أخر معابد إيزيس فى جزيرة فيلة .



وهناك ثلاث قرون غير واضحة المعالم بالشكل الذى يجيب على الأسئلة المطروحة أمام علماء المصريات والقبطيات وتاريخ الأديان وحتى علماء اللاهوت، منها: كيف ظهرت المسيحية فى مصر وكيف انتشرت والطريق الذى سلكته المسيحية حتى تم لها النصر أمام الديانات القديمة والتيارات الغنوصية؟ لكن سيبقى السؤال الأهم:



ما سبب هذا التحول فى فكر القرن الثانى الميلادى؟.

هناك سببان لذلك الأول و الأساسى هو دوران مجتمعات الشرق و اليونان و حتى روما فى ذلك الوقت فى حلقة مفرغة من الأفكار الاستبدادية، وعدم قدرتها على فتح آفاق جديدة للفكر البشرى، لأن الأسس المادية لهذه المجتمعات كانت قد كشفت عن عدم مقدرتها على تحرير الإنسان من رق العبودية و التوسع الاستعمارى و الاستغلال. أما العامل الثانى فكان خضوع الأعمال الفكرية

الفلسفية اليونانية للاستدلال و الاستنباط دون أن تتمكن من اكتشاف طريق المنهج التجريبي المنظم، هذا المنهج الذى رسم خطوطه فلاسفة الغنوصية المصريون الذين سعوا إلى تحويل الصوفية إلى فلسفة غنوصية ومن جاء بعدهم من العلماء المحدثون من جاليليو إلى بسكال ونيوتن وحتى اليوم، و من قبلهم جابر بن حيان والخيام وابن رشد وابن الراوندى.

لماذا طور المصريون معتقداتهم بهذا الشكل السريع؟

بالطبع جزء من الإجابة يكمن فى طبيعة الشخصية المصرية آنذاك وطريقة تعاطيها للثقافات الوافدة وأيضا يكمن فى العلاقة بين الديانتين المصرية والمسيحية من حيث نقاط التقاطع والتنافر، بل فى الطريق الخاص الذى سلكته فى مصر لكن الجزء الأكبر من الإجابة يكمن فى التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها البلاد فى القرون العشرة التى سبقت تأسيس أول كنيسة فى مصر وما تركته فى الشخصية المصرية من تمزق بعد سنوات طويلة من الاحتلال الأشورى والفارسى واليونانى والرومانى، وتركز السلطة والثروة فى أيدى الغرباء وتحول المصرى لمواطن من الدرجة الثالثة وخواء دينى نتج عن اغتراب الكهنة عن الشعب ومعاناته بتحالفهم مع السلطة الأجنبية وخاصة فى العصر اليوناني الرومانى. فبدت المسيحية وكأنها تتبنى مصالح الشرائح الفقيرة والوسطى فى المجتمع إن لم يكن على الأرض فعلى أقل تقدير فى مملكة السماء.

الرهبنة المصرية

أسست الرهبنة المصرية، منذ نشأتها مع الديانة الأوزيرية وكتاب الخروج للنهار (الموت) ، أديرتها وحصونها فى واحاتها وبراريها، فكانت بذلك ملهمة للرهبنة القبطية كحركة عصيان مدنى سلمية للسلطات اليونانية والرومانية المحتلة. وكانت نظمها كذلك ملهمة لكل حركات الرهبنة والديرية فى العالم، فمن مصر دوما تأتى الأفكار الكبرى. وقد برز خلال مسيرة الرهبنة المصرية أهم الأفكار الغنوصية والصوفية التى ابدعها الكهنة الأوزوريين وهيرمس مرورا بأفلاطون وأفلوطين وفيثاغورث وكريوكراتس، وكليمندس السكندري وفالنتينوس من بعدهم، وما كشفت عنه مكتبة نجع حمادي الغنوصية من أناجيل وبشارات، وامتدادا إلى ذى النون المصرى والخيام والفارابى والحلاج وحتى نشأت علوم الهرمونيطيقا الحديثة.

نصوص نجع حمادى
بين الغنوصية والهرمسية

انتشرت الجماعات الغنوصية وعاشت فى مناطق متفرقة من مصر منذ القرن الثانى قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادى وكان هؤلاء الغنوصيين يعيشون فى مجموعات قليلة متفرقة من النساك ويرأسهم كاهن ويؤكد بعض المؤرخون أن الغنوصية هى خليط من حكمة مصر القديمه والفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى ذاع صيتها فى إسكندريا .

ويحدثنا فيلون السكندرى فى كتابه عن الحياة التأملية عند أتباع سرابيس (الأوزيريون = السرابيون) بأنهم مواطنو السماء الذين قبلهم الرب خالق العالم، وذكر أن السرابيين كانوا قد انتشروا فى شتى أرجاء العالم المتحضر إلا أنهم كانوا كثيرين فى موطنهم مصر خاصة حول إسكندريا، ويذكر يوسيبوس أسقف قيصرية فى تأريخه لتاريخ الكنيسة المسيحية، أن السرابيين كانوا يشكلون أقدم كنيسة مسيحية فى مصر.

ولعل أول من يصادفنا من الغنوصيين بعد ظهور المسيحية فى قرنها الأول هو "كرنثيوس" الذى ظهر باسكندريا حوالى عام ٧٣ م. فى حياة يوحنا الرسول، و الذى كانت تعاليمه تدور حول التعاليم المسيحية القديمة و مبادئ من تعاليم الغنوصيين، ومن أبرز كبار قادة الغنوصيين فى القرن الرابع باسكندريا هم باسيليدس وحربوكراتس وفالنتينوس. وقد حذر القديس أثناسيوس الرسولى من خطرهم على العقيدة المسيحية، فى الوقت

مكتبة نجع حمادى:

كان ذلك فى أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٩٤٥ قرب مدينة نجع حمادى بالصعيد عندما خرج أحد الفلاحين المصريين من قرية " القصر " يدعى محمد على للبحث عن سباخ مخصب لأرضه فى تل قريب من قريته يدعى جبل " تريف " حيث يوجد حوالى ١٥٠ كهف استخدمت كمدافن فرعونية منذ الأسرة السادسة فى المملكة القديمة ، فإذا به يجد أثناء حفره لجمع السباخ جرة فخارية كبيرة تحتوى على ثلاثة عشر كتابا غنوصيا من ورق البردى لكل منها غلاف من الجلد والكتابة عليها باللغة القبطية ولهجتها البحيرية . وقد تسربت هذه الكتب إلى القاهرة وظلت مخبأة لدى ابنة أحد تجار الآثار التى عرضت بيعها للمتحف القبطى ، وبدأت مفاوضات شرائها فى عهد العالم الأثرى الراحل طوجومينا ، وبعد وفاته استمرت المفاوضات مع الدكتور باهور لبيب الذى سعى فى

الذى قام فيه القديس اكليمندس السكندرى بوضع دراسات تحليلية لعقيدة فئات غنوصية متعددة، وحاول أن يؤسس "غنوصية مسيحية حقيقية" قامت على أساس الرهبنة التى تعتبر أهم نظام استحدثته مصر فى الديانة المسيحية بعد أن قام القديس باخوميوس أب الرهبنة سنة ٣٢٠ ب.م بإنشاء العديد من الأديرة خاصة فى الوجه القبلى ولقد حوت هذه الأديرة على الكثير من المخطوطات الدينية التى قام الرهبان بنقلها وشملت أنجيل توماس، وأنجيل فيلب وغيرها وهى نفس المخطوطات التى وضعت فى أوانى فخارية كبيرة وأغلق عليها وبقيت محفوظة لأكثر من ١٦٠٠ سنة حتى تم اكتشافها عام ١٩٤٥ فى مكتبة نجع حمادى.

وينطبق هذا أيضا على المؤلفات الهرمسية التى دلت دراستها فى القرن الرابع الميلادى على الحالة الفكرية التى سادت فى هذا القرن، فقد نظر إليها مؤلفى ذلك الوقت على أنها حاوية للاهوت المصرى وحكمة المصريين الأوائل و خاصة لاهوت منف وأن هذه المؤلفات قد تم ترجمتها من القبطية إلى اليونانية بفضل كهنة مصريين . فالهرمسية هى نوع من الصوفية ، هى "خروج" مستمر عن المألوف عندما تدخل القوة الإلهية قلب المريد وتملؤه و تحوله إلى فكر عقلى وعرفانى، أو على الأقل، إلى إرادة فكر و علم و عرفان، تقضى على كل إرادة أخرى عنده.

ولاشك أن كتابات المسيحية فى هذه الفترة كانت على دراية كبرى بالغنوصية و الهرمسية ليس فقط لجاذبيتها وروحانية محتواها وتركيزها على

نفس الوقت إلى إصدار قانون لحماية الآثار ، وقد صدر هذا القانون حوالى سنة ١٩٥١ من وزارة المعارف إبان وزارة الدكتور طه حسين . وبصدور القانون تم التحفظ على مخطوطات هذه الكتب فى المتحف القبطى بالقاهرة . وإلى هنا تبدو القصة قد انتهت ، ولكن تطورها بعد ذلك كان لا يصدقه عقل ، فقد سرقت من المتحف القبطى غالبية هذه المخطوطات ونقلت الى خارج مصر وعرضت للبيع فى الولايات المتحدة وغيرها . والغنوصية حركة فلسفية ازدهرت فى مصر وبخاصة فى مدينة اسكندريا فى أوائل القرن الأول الميلادى ، ومنها انتشرت الى باقى العواصم والمدن الكبرى الواقعة حول حوض البحر المتوسط . وبالرغم من تأثير الغنوصية فى اليهودية المسيحية والإسلام والهندوسية والتاوية والبوذية والمانوية وغيرهم من ديانات الشرق إلا أن الدراسات التى أقيمت حولها أثبتت إنها لا ترتبط بأى منها ، مما يعنى أنها ذات أصول أبعد منها

ضرورة العلم والعرفان لمعرفه الخالق ولكن ربما أيضا لكى تتسلح بنفس أسلحة معارضيها ولهذا نرى " ديديموس" الضرير، مدير المدرسة اللاهوتية المسيحية فى عهد البابا " اثناسيوس"، يكتب كتابا عن " الثالوث" مستشهدا فيه بكثير من آراء الفلاسفة و الغنوصيين و لعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ فى هذا المضمار هو كتاب " حياة انطونيوس" الذى وضعه البابا السكندرى " اثناسيوس" و الذى أشعل روح الرهبنة فى العالم المسيحى وقتها.

وقد رد معارضوا المسيحية على ذلك بكتاب "حياة فيثاغورث" الذى ألفه "فورفيرس" مما دفع الإمبراطور قسطنطين إلى إصدار مرسوماً يقضى بحرق كتاب فورفيرس، ودون انتظار مرسوم إمبراطورى كانت السلطات الرومانية المحلية فى الأقاليم والأساقفة، وحتى المؤمنين، يقومون دون رحمة بإحراق كل الكتب المخالفة وبخاصة الغنوسية والهرمسية ولم يقتصر الأمر على حرق الكتب، بل شمل أيضاً تدمير المعابد والتماثيل والمكتبات، فلم يعد الأمر يتعلق بكتاب واحد أو عدة كتب، بل شمل الأفكار ذاتها، والأماكن التى تحافظ على هذا النوع من الأفكار.

وتبارى الأباطرة فى إصدار مراسيم الحرق للمكتبات. بل تم كذلك القضاء على المدرسة اللاهوتية المسيحية التى كان يتزعمها علماء من أمثال كليمندس السكندرى واوريجانوس وحتى ديدموس الضرير وغيرهم.

و بحلول النصف الثانى من القرن الأول للميلاد،

هى فى الغالب المعتقدات المصرية وتطوراتها وتفاعلاتها ، ذلك أنه فى مصر كانت كل المعتقدات موجودة دون حظر أو اضطهاد . وكان أول من اهتم بدراسة هذه المخطوطات جان درويس - الحجة الفرنسى فى تاريخ الأديان ، الذى جاء إلى مصر واقتفى آثار هذا الكشف فى موطنه ووجد أن مكانه كان مغارات قديمة سكنها الرهبان فى القرن الرابع الميلادى ، وقد وجد منقوشا فى إحدى المغارات سلسلة من الميامر بالأرقام والسطور، وكانت المغارات كما تبين من دراستها قد تحولت إلى جبانات فى العصر الرومانى - وقام هذا العالم بنشر أحد هذه المخطوطات وهو " انجيل توما " الذى يحتوى على مجموعة أقوال منسوبة للسيد المسيح ويبلغ عددها ١١٤ قولا . واهتمت منظمة اليونسكو بدراسة هذه المخطوطات وعقدت مؤتمرا علميا خاصا بها فى القاهرة فى ١٥ / ١٢ / ١٩٧٠ واستمر لمدة ثلاثة أيام واشترك فيه علماء من الولايات المتحدة - انجلترا - فرنسا - النمسا - سويسرا

كان الأوزيريون = السرابيون (أتباع سرابيس) قد انتشروا في كافة أنحاء العالم، ويحدثنا فيلون السكندري في كتابه عن الحياة التأملية عند أتباع سرابيس بأنهم مواطنو السماء الذين قبلهم الرب خالق العالم، وذكر أن السرابيين كانوا قد انتشروا في شتى أرجاء العالم المتحضر إلا أنهم كانوا كثيرين في موطنهم مصر خاصة حول إسكندريا، وهكذا يذكر يوسيبوس أسقف قيصرية في تأريخه لتاريخ الكنيسة المسيحية، أن السرابيين كانوا يشكلون أقدم كنيسة مسيحية في مصر.

وظل معبد السرابيوم هو المركز العالمي للعبادة والحكمة والمعرفة بما إحتواه من نفائس وذخائر وبقايا مكتبة إسكندريا وجامعتها، إلى أن حطمه المسيحيون الرومان عام ٣٩١ ميلادياً.

لم يكن ما يدور في مصر وفي مدينة إسكندريا تحديداً، بعيداً عن أرض فلسطين، فمصر التي كان يعيش بها أعداد كبيرة من اليهود، كانت تربطهم بأرض فلسطين وبمدينة القدس روابط لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها، رغم أن اليهود المصريين قد أقاموا لهم هيكلاً خاصاً غير هيكل أورشليم للتعبد فيه وممارسة طقوسهم المختلفة.

ويبدو أن رياح التغيير والثورة اليهودية ضد الرومان كانت تهب من مصر في أغلب الأحيان، ناهيك عن الأسفار الغير معترف بها من العهد القديم التي كتبت كلها تقريباً في مصر، والتي تشكل في حد ذاتها ثورة فكرية على كثير من الأفكار اليهودية في هذا الوقت.

- هولندا - المانيا الغربية - بلجيكا - الدنمارك - السويد . وكان اليونسكو شكل لجنة علمية عام ١٩٦١ تعني بدراسة هذه المخطوطات برئاسة الدكتور جمال مختار ونائبه فيها الدكتور باهور لبيب وقد أمكن للجنة أن تسترد ٣٠ ورقة من ضمن ٥٢ ورقة من معهد العالم النفسي السويسري كارل يونج كانت قد تسربت إليه عام ١٩٥٢ - هذا وقد طلبت حكومة هولندا عرض ٣ برديات من هذه المخطوطات في أحد متاحفها على أن تؤمن عليها بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه . وقد نشرت صور هذه البرديات كاملة في عشرة مجلدات وذلك في الفترة بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٧ - وقد أصدر الدكتور باهور لبيب عدة كتب عنها منها : كتاب كان تعريفا بفلسفة العارفين بالله (صدر سنة ١٩٥٦) وكتابان باللغتين القبطية والألمانية (مع الدكتور مارتن كراوس) وكتابان بنفس اللغتين (مع الكسندر بوليش) . ومن الدراسات الأخرى التي أعدت عن مخطوطات نجع حمادي دراستان للمرحوم الدكتور

ويحدثنا التاريخ عن المصريين الذين قادوا ثورات ضد الرومان فى أرض فلسطين، فهاهو يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير يقول فى كتابه "حروب اليهود" فى الفقرة الخامسة من الجزء الثالث عشر من الكتاب الثانى:

" لكن كان هناك نبى مصرى كاذب، تسبب لليهود فى مآسى أكثر ممن سبقه، لأنه كان محتالاً، وادعى النبوة أيضاً، وجمع حوله ثلاثين ألف رجلاً مخدوعين به، وقد قادهم من البرية إلى ذلك الجبل الذى يعرف بجبل الزيتون، وكان مستعداً للانقضاض على أورشليم بالقوة من هذا المكان، ولو تمكن من هزيمة الحامية الرومانية والشعب، فإنه كان ينوى الاستبداد بهم بمساعدة رجاله الذين استعدوا للانقضاض على المدينة معه، لكن فيليكس (الحاكم الرومانى ٥٢-٦٠ م) أحبط محاولته، والتقى به مع جنوده، بينما عاون الكثير من أفراد الشعب ذلك المصرى فى هجومه على الرومان.

وجدير بالذكر أن هذا المصرى قد اختفى ولم يعد يعرف مصيره، وأظن أنه هو نفس المصرى الذى يذكره سفر أعمال الرسل: "أفلسْتَ أنْتَ المِصْرِيَ الّذِي صَنَعَ قَبْلَ هذِهِ الأيَامِ فِتْنَةً و أخْرَجَ إلَى البَرِّيَّةِ أرْبَعَةَ الآلافِ الرَجُلِ مِنَ القَتَلَةِ". أعمال الرسل(أصحاح ٢١آية٣٨). وربما يكون مصرى آخر، فعدد أتباع المصرى الذى يذكره يوسيفوس أكثر بكثير من أتباع مصرى أعمال الرسل، لكن ربما يكون المتحدث الرومانى يحقر من شأنه بتقليل عدد أتباعه، وربما يكون يوسيفوس هو الذى يبالغ فى شأنه، كما أن هناك

طوجو مينا هما : المخطوطات البردية الغنوصية الموجودة بالمتحف القبطى (بحث باللغة الفرنسية) نشر فى المجلة الهولندية - chris tiance vigitiate عدد يوليو ١٩٤٨ م عن نصوص غنوصية قبطية جديدة كشف عنها فى مصر الحديثة : وهو بحث قدمه لمؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى باريس فى يوليو ١٩٤٨ ونشر بكتاب المؤتمر عام ١٩٤٩ ، كما اهتم معهد الدراسات القبطية بالقاهرة بهذه الوثائق وكلف طلاب الدكتوراه بإعداد دراسات عن هذه الوثائق . ومن ألمانيا جاء إلى القاهرة بيتر ناجيل الأستاذ بقسم العلوم الشرقية بجامعة مارتن لوثر ليعد دراسات عن الكتاب الأبوكريفى المنسوب للقديس يوحنا . وقدمت بعض الدراسات عنها إلى جامعة هارفارد الأمريكية ، وقد بينت الدراسات التى تناولت هذه المخطوطات أنها تنسب إلى طائفة الغنوصيين التى ازدهر نشاطها فى مصر خلال القرون السابقة واللاحقة لميلاد المسيح والتى ذكر عنها

تقارب فى الفترة الزمنية بين الحادثين، فقد عاد بولس إلى أورشليم فى أواخر عهد فيليكس الحاكم الرومانى (يقال أنه عاد فى عام ٥٨م).

كان من أبرز كبار قادة الغنوصيين فى القرن الرابع بالإسكندرية هم باسيليدس وحربوكراتس وفالنتينوس. وقد حذر القديس أثناسيوس الرسولى من خطرهم على العقيدة المسيحية، فى الوقت الذى قام فيه القديس اكليمندس السكندرى بوضع دراسات تحليلية لعقيدة فئات غنوصية متعددة، وحاول أن يؤسس "غنوصية مسيحية حقيقية" قامت على أساس الرهبنة التى تعتبر أهم نظام استحدثته مصر فى الديانة المسيحية.

وقد تركت الغنوصيّة أدب دعاية غزيرًا انتشر فى الشرق الأوسط من اسكندريا التى ظلت مكان تخمير فكرىّ. ومن هناك انتقلت إلى المراكز المثقفة فى عالم البحر المتوسّط (رومة، أثينة) وفى العالم الفارسىّ حيث ستنفصل عنها المانويّة فى القرن الثالث الميلادى.

ولكن حين دخل النهج الغنوصىّ عناصر مسيحيّة. دخل فى عالم المعمّدين والواعظين. من جهة، كما اقتدى بالفنون الأدبيّة فى الكتابات الرسوليّة، فدوّنوا أناجيلَ ورؤىً (لا رسائل لأنّهم لا يقدرون أن يزيّفوها).

ومن جهة ثانية، تخفت المؤلّفات الغنوصية تحت اسم رسل المسيح: توما، يعقوب، فيلبّس، برتلماوس، متيّا... وهكذا عُرض تعليمُ المعلمين الغنوصيّين فى مؤلفاتهم. مثلاً: تفسير يوحنّا

هنري تشارلس بويس العالم الفرنسي في تاريخ الأديان بأنها : " تيار من الفكر الديني فرض نفسه على المسيحية وكذلك على ديانات البحر المتوسط والشرق الأوسط . أن الأجزاء المتبقية من مخطوطات نجع حمادي ألقت الضوء على كثير من تاريخ المسيحية الأولى بالإضافة إلى مجموعة من البشارات الأولى الغير معروفة ، فبجانب " بشارة توما " و" بشارة فيليب " وجدنا " بشارة الحقيقة " و" بشارة المصريين " التي عنونت " بالكتاب المقدس للروح " ، مع مجموعة أخرى من النصوص " البشارة السرية لجيمس " و"بشارة بول " ، ومراسلات " بيتر لفليب " . كانت مكتبة نجع حمادي جزءا من الفكر الجديد ، وامتداد للفكر الفرعوني، فقد طرحت المعتقدات الفرعونية نفسها في ثوب الغنوصية ذلك النوع من المعرفة المبني أساسا على العقل طريقا لتحقيق المعرفة وليس الإيمان التسليمي ، فالعقل عندها رقيب على الوحي وبإمكانه أن يرفض ما لا يقبله العقل ، وهي تمجد

العلم وتعتبره الطريق الوحيد إلى معرفة الله . وهكذا مثلت مكتبة نجع حمادى هذا الفكر الغنوصى ، فرأى المصرى الذى تسللت الى مخدعه المسيحية ، رأى أن المسيح المخلص شخصان : الإنسان يسوع ، والمسيح ابن الله ، هكذا رأى المصرى الإله الجديد فهو المؤمن بأبدية المادة وحيويتها وخلودها ، وهو الذى رفض فى فلسفته الفرعونية العميقة الجذور فى عقله فناء الجسد ، فامتطى جواد العلم من اجل أن يبقى الجسد خالدا لا يموت فحنطه وحفظه فى توابيت كبيرة وثقيلة ومحكمة القفل ووضعها فى عمق أعماق الأرض وجوف الجبال وفى داخل أعتى وأضخم بنايات لم يشهد مثلها بشر حتى اليوم (الأهرامات) ، فاعتقد المصرى بعد أن عرف المسيحية أن المسيح الإله دخل فى يسوع الإنسان حين اعتمد من يوحنا ، وتركه حين قبض عليه اليهود ، وهو ما يدلل على استمرار فهمهم الفلسفى حول الكا والبا والخا ، وان الروح لابد وان تسكن الجسد بعد أن تتعرف على

لهيراكليون. وانتقل التقليد الدينىّ لباسيلديس (بين ١٢٠ و١٥٠) و فلنتينس (بين ١٣٥ و١٦٠) من خلال الأدب الغنوصى، فانتشر فى أوساط واسعة تحت دعوى أنّ مسيح الإيمان المسيحى قد أعطى تعاليم سريّة لبعض تلاميذَ مختارين، قبل انطلاقه من هذا العالم أو بعد قيامته. واتّخذ مضمونُ هذا التعليم شكلَ "أقوال" انحرفت بها بعض الموادّ الإنجيليّة الأولى عن معناها، فأعيد تفسيرها وتأليفها، وصيغت صياغةً جديدةً وموسّعة. إنّ إنجيل توماس يعطينا أمثلة عن هذه العمليّات المختلفة.

وأخيراً فإن دراسة المؤلفات الهرمسية فى القرن الرابع الميلادى تعطينا شاهدا على الحالة الفكرية التى سادت فى هذا القرن، فقد نظر إليها مؤلفى ذلك الوقت على أنها حاوية للاهوت المصرى، وخاصة لاهوت منف، تم ترجمتها من القبطية إلى اليونانية بفضل كهنة مصريين. وأنها لا تحوى جديد عما سبق من إنجازات فى الفلسفة واللاهوت. فمفكرى االشرق واليونان وروما أصبحوا فى فترة الأنبياء والدين يعودون إلى الأفكار الدينية السابقة، وبخاصة اليهودية وبرزت المسيحية لتكمل هذا الدين، وأصبح مفكرى هذه الفترة متأثرين بطرق الأنبياء إلى المعرفة، وهو ليس طريق الاستنباط و الاستدلال، وليس طريق البحث الطويل الذى يعترضه التردد و الشك، ولكنه طريق التعاليم القاطعة والنهائية، فقد اختلطت الفلسفات السابقة بالدين والوحى، ثم اختلط الدين و الفلسفة معاً بالعلم.
وقد يبدو هذا أمراً غريباً بعدما تقدمت العلوم، ابتداء من إنشاء اسكندريا و مكتبتها، و استقلال

العلوم لا عن الدين وحده، بل عن الفلسفة أيضاً.

ولكننا نلاحظ أن هذه العلوم مثل علم الطبيعة قد دخلت منذ القرن الثانى قبل الميلاد تحت تأثير الفلسفة الرواقية التى أدت به إلى تفسير ظواهر كالمدّ والجذر بمبدأ "التعاطف" الكونى. أما الطب فبعدما ارتبط مدة فى مدينة اسكندريا بالتشريح العلمى و بعلم الأعضاء، أخذ يدخل تحت تأثير الفلسفة الشكية، فأصبح طباً تجريبيا، طب خبرة و"وصفات" من أمثال " تذكرة داوود". ثم اتخذ منذ أوائل القرن الميلادى الثانى، تحت تأثير "جالينوس" صبغة فلسفية برزت فيها آثار الرواقية ونظرياتها فى الغائية و العناية الربانية. وظل علم الرياضة يغرد منفرداً خارج هذا السياق مما جلب عليه السخط و اتهامه بالابتعاد بالناس عن الآلهة و الإيمان.

الإسلام والعقائد الزهدية المبكرة فى المجتمع المصرى القديم :

كان من الطبيعي أن تستيقظ هذه الرواسب الروحية فى مصر التى كانت فيها عقائد الفراعنة قبل أربعة آلاف سنة ونشطتها الديانة اليهودية والمسيحية على صورة الأنظمة الرهبانية التي لم تختلف فى جانبها الروحى وتطبيقاتها عن التقاليد الفرعونية القديمة وهذه التقوى العامة والنزعة الروحية الواضحة والتعلق بالعالم الروحى من الأمور التى مازالت واضحة فى المجتمع المصرى المعاصر أيضا ومن هنا لم يكن غريب أن تظهر طبقة من الزهاد ومن أصحاب النزعة الزهدية الإسلامية الذين وجدوا الإرث الروحى

جسدها المحنط ، وان الإنسان يتحول إلى إله اوزيرى بمجرد أن يموت وأن يخف قلبه عن ريشة الماعت فى يوم الحساب . وهناك مقطع من " بشارة توما " فى مكتبة نجع حمادى يؤكد هذا المعنى إذ يقول المسيح الحى : " يقول المسيح : أنا لست سيدك لأنك قد شربت ، لقد شربت من نهرى الفائر الذى دفقته ، والذى سوف يشرب من فمى سيكون مثلى أنا نفسى سوف أكون هو ، والأسرار الخفية سوف تظهر له " . ولعل قضية هذا النهر الفائر هو نهر المعرفة دائم التدفق ، الذى إن شرب منه أى إنسان يكون هو الله نفسه ، وقضية صورة الله أحادية أم مزدوجة هما القضيتين الأساسيتين اللتان فجرتا الصراع بين النظرية الأرثوذكسية وبين الغنوصية ، ففى كثير من مقاطع مكتبة نجع حمادى تؤكد الغنوصية على أن الله ليس له طبيعة مزدوجة فقط أنه أيضا ذو طبيعة خنثية ، أى وحدة بين الطبيعة الذكرية والأنثوية . يقول بروفيسور Pagels : أن الغنوصيين الأوائل أعلنوا أنهم تلقوا إشارات

القديم فى مد متصل وأثر واضح فى نظرة المجتمع المصرى فى عصر الإسلام .

فلم يكن هناك فراغ فى هذا الجانب فى رؤيتهم إلى الدنيا بل كانوا يرون فيها أنها غير خالدة والخلود للآلهة الذين كانوا يعتقدون بها وكانوا يعملون بهذه المرحلة التي آمنوا بنهايتها إلى عمل صالح يقودهم إلى آخرة رضى بها عليهم أوزير إله القيامة عندما يقفوا بحكمته الآخرية ويطلق أمره الإلهى الذى يرجح أعمالهم كفة الميزان الذين يرون فيه فيصلا عادلا لبيان النتائج والفوز العظيم نحو آخرة خالدين فيها سعداء بمرافقة أوزير فى خلوده .

ويظهر لنا جليا أهداف الإنسان فى مصر القديمة وحرصه على القناعة بعمل الصالح وقد أكدت ديانته القديمة على فضل القيم وما ينبغى أن تقوله الروح أمام المحكمة الإلهية فى اليوم الآخر: يا سادة الحقيقة أنني حامل الحقيقة ولم أغدر بأحد ولم أجعل من ذوى قرابتى فى ضنك ولم أمزج عملى بشر قط وجانبت الضر والأذى ولم أكن سببا فى خوف أحد ولا عوز معوز ولا ألم متألم ولا بؤس بائس ولم أقدم ما لا يليق بالآلهة ولم أبك أحد ولم أقتل نفسا وما حرضت أحدا على قتل أو خيانة ولم أكذب ولم أسلب المعابد ذخائرها ولا المومياء طعامها ولم أطفف الكيل والميزان ولم أسرق الماشية ولم أصد طير الآلهة ولم أدفع الماء فى عهد الفيضانات ولم أحول مجرى ترعة ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة ... فأنى نقى، نقى، نقى.

<u>سرية من المسيح من خلال جيمس ومن خلال مريم المجدلية (التى اعتبرها الغنوصيون الصورة المزدوجة للمسيح)،حتى أن أعضاء من هذه المجموعة كانت تصلى للأب الأبدي والأم الأبدية".</u>

هذا ما يقوله الميت أمام لجنة القضاء وهو يحاول أن يدافع عن نفسه فيما يمكن أن يرتكبه فى الحياة الدنيا طمعا فى رضا الآلهة ونيل البراءة ليعيش الحياة الآخرة مع الأبرار فى مملكة أوزيريس ، هذا ما كان يشكل الأهم فى عقائد المصريين القدامى فى النظر للدنيا وعندما تزكي المحكمة أعمال الميت تصدر المحكمة هذا القرار ليس فيه شر ولا فساد ولا دنس وليس عليه اتهام وليس فى أعماله ما يثير الاعتراض فقد عاش فى الحق وتغذى بالحق وإن أفعاله لتشرح الصدور وهي مما يطلبه الرجال ويسر الآلهة محبة وأعطى الخبز من كان خاويا والماء من كان صاديا واللباس من كان عاريا ،وأعار الزورق من كان ليس عنده . فذاكم حكم قاطع ببراءة الميت يخوله اجتياز الصراط المستقيم إلى مملكة الأبرار ويجنبه الملتهمة الجالسة تنتظر قرار الحكم من المحكمة بفارغ الصبر لتأخذه إلى الجحيم، هذا الاعتقاد لدى المصريين القدامى يؤكد على الآخرة وأظهر ما يلى:

١- النضج فى التفكير وأظهر هذا النضج تطورا فكريا مليئا بنظرة زاهدة للحياة الدنيا والمتوجهة إلى سعادة الآخرة والقربى للإله أوزيريس إله القيامة.

٢- صب جهود المجتمع المصرى القديم للعمل الصالح والصلاح للفوز بالآخرة كحد نهائى.

٣- الدنيا لديهم رحلة مؤقتة ومجهولة وكان جل ما لديهم هو الوصول إلى مملكة الأبرار بعد اجتياز الصراط المستقيم.

٤- وجوب الزهد فى الدنيا واحتقار ملذاتها

الكتابة / الكتاب / المكتبة

لم تنشأ الكتابة فى مصر فى إطار المعاملات التجارية والقيم التوسعية الاستعمارية للسوق كما حدث مثلاً فى بلاد الرافدين وفارس واليونان، وإنما نشأت وترعرعت فى ظل الثورة الزراعية التى قامت على أرضها والمنظمة السياسية (الدولة)، التى كانت تهدف فى مشروعها الأساسى إلى الانتقال بالمجتمع، من مرحلة قيام الثورة الأولى فى تاريخ البشرية، وهى الثورة الزراعية، وتوفير الغذاء الكافى والجيد للأنسان المصرى، إلى مرحلة الحياة الجديدة الخالدة.

من هنا كانت الكتابات المصرية الأولى بمثابة إعلانات عن هذه الثورة ولخدمة الدولة الناشئة، ومشروعها المستقبلى المتجدد، وهى بذلك تحقق غايتين: فمن جانب تحافظ على منجزات الثورة الزراعية وكذلك نتائج الأحداث السياسية التى تقوم بتسجيلها على الجدران الخالدة للمعابد والمقابر، والبرديات

وبهرجتها وعمل كل ما هو خير ونبذ الشر لكى تكون الحسنات مرجحة لكفة أعمال الزاهد وتحقيق الفوز الآخرى.

ومما يلاحظ فى هذا المجال أن الزهاد القدماء فهموا أن المعابد المصرية القديمة أنها خزائن أسرار روحية من هنا تاقوا إلى الإطلاع على الرسوم والكتابات والنقوش التي وجدوها منقوشة عليها ،وعدوا هذا الإطلاع غير قابل للتحقق إلا عن طريق طاقة روحية يختص بها بعض الأتقياء من الزهاد وبهذا ظهر العلم السرى أو العلم المزدوج عند الصوفية، وعدوه ثقافة ذات مظهرين، وكان على رأس هؤلاء الزهاد ذى النون المصرى و مدرسته الصوفية.

هذه الظاهرة فى العمل الإيجابى على يد الزهاد التقليديين فى مصر ،قد تطورت فى أواخر القرن الثانى الهجرى إلى طبقة متميزة أطلقوا على أنفسهم مصطلح الصوفية.

أن للفكر الغنوصى، فى شكل عام، تأثيرًا على الفكر الحديث، من خلال عدد من المفكرين والفلاسفة والشعراء الغربيين، أمثال ياكوب بوهمه (١٦٠٠)، الذى أسَّس للتيار الغنوصى فى الثقافة الأوروبية الحديثة، ووليم بليك وأشعاره، وعدد كبير من شعراء الحركة الرومانسية فى القرن التاسع عشر الذين أخذوا فى كتاباتهم بإعادة ابتكار أساطير غنوصية للتعبير عن موقفهم من العالم الذى قارب هاوية العدمية أحيانًا، أمثال

المحفوظة فى مكتباتها. ومن جانب آخر كان الهدف من هذه الآثار الكتابية خلق وسيلة للتراتب الزمنى المتنامى عبر الزمن الآتى، وذلك بأخذ الحدث الرئيسى فى عام ما وتسمية هذا العام باسم هذا الحدث.

هنا نجد أساس كتابة التاريخ المصرى، ونشأة الحوليات التاريخية للدولة من ناحية، وأيضاً أصل نشأة كل ما يتعلق بفنون العمارة، وفنون نقش الجداريات، والتى لم يكن لها هدف آخر سوى تصوير هذا الحدث الدائم والمفتوح دوما على عالم الآلهة ونظامها.

فالدولة بهذا المعنى ليست مجرد مؤسسة لضمان السلام والنظام والعدل، بل هى فى الوقت نفسه مؤسسة لمتابعة مشروعها الثقافى للتمكين من مبدأ الحياة فى الخلود، بمواصلة الحياة من فوق جدار الموت.

وعندما يقوم هذا الخطاب بتهيئة الاتصال مع العالم الآخر الموعود ، فإنه يفتح أمام الفرد فرصة التمتع بالخلود نفسه (الحياة الجديدة). يتبدى ذلك كمثال فى كتاب الخروج إلى النهار (كتاب الموتى)،

شيلى، بايرون، لامارتين، الخ. و هكذا جاء ابتداع علم الهرمونطيقا، فى عصرنا الحديث، أحد منجزات الهرمسية بعد تفعيلها على يد علماء من أمثال هيبرماس وغيره.

اضطهاد الحكام المسلمين لأفكار ذو النون المصرى كمثال على الاضطهاد الفكرى:-

لأن المسيح عند المصريين هو الإله الكامل بلا أى مسحة بشرية فقد ناضل المصريون الأقباط بقوة ضد من يجعل للمسيح جانبا بشريا مع الجانب الإلهي. ومن هنا فإن الحضارة المصرية - المترسخة بدينها فى العقلية المصرية بعد الفتح الإسلامى - قد اخترعت لها تصوفا تبدو فيه الأفكار الغنوصية من خلال ذو النون المصرى الذي احتل مكانة هامة فى الفكر الصوفى ولم تخل شخصيته من بصمات الغنوصية المصرية .

وهنا سوف نلاحظ التشابه بين ذو النون وانطونيوس السواح أكبر رهبان مصر فترة الاحتلال الرومانى وكيف أنه كان يطوف بالبرابي والمعابد والقصور الفرعونية ووصف بأنه مصري صميم لا يعرف إلا اللغة القبطية، ونجد تلك الصفات واضحة فى ذي النون المصري بعده بقرون، فقد كان مصريا صميما لم يحاول الانتساب للعرب أو الأشراف كعادة الصوفية، ووصف بأنه مع تأثيره علي الحركة الصوفية عامة فقد كان إماما للتصوف المصرى الصميم وذا تأثير قوى على المصريين الأقباط فى عهده.

فهو هكذا خطاب خاص بالخلود وبالانتماء السياسى للدولة ومشروعها فى آن.
لهذا كانت الكتابة (خاصة متون الأهرامات: "هرم ونيس" وهرم "الملك تيتي" و"بيبي الثاني". و"متون التوابيت". و"كتب الخروج للنهار") المنقوشة على الجدران الخالدة فى المعابد والمقابر، واختراع الورق والبرديات المحفوظة مدخلاً للمكتبة فى مصر. التى كان يذكر على بابها: " هنا بيت علاج النفس" و"هذا مكان إنعاش الروح".
ومصر هكذا كانت هى المكان الأحسن والأنسب لقيام المكتبات الأولى فى العالم، مثل مكتبة معبد رمسيس الثاني بالأقصر والتى ذكرها ديودور الصقلي، ومعبد الكرنك ومعبد إدفو ومعبد دندرة ومكتبة أون (عين شمس)، وذلك لأنها ملكت الكتابة والورق والتراث الثقافى الأطول تاريخيا إلى جانب المشروع الإنسانى العام ومؤسسات الدولة المنظمة لذلك.
كانت هذه المكتبات تقع فى المعابد والقصور والمؤسسات التعليمية والدينية فى العواصم الكبرى مثل منف وعين شمس، وفى عواصم الأقاليم مثل إدفو ونجع

وقد ذكر المؤرخون عنه أنه كان كثير التطواف بالبرابى والمعابد المصرية القديمة ويدعى العلم بها وفك رموزها ثم كان مشهورا بعلم الكيمياء أو السحر الفرعونى المأخوذ عن الكهنة المصريين القدماء، ثم كان يحيا حياة مستخفية بين المعابد والبرابى الفرعونية.

وقد سلك ذو النون فى الدين طريقة خاصة كما يقول المسعودى فاتهم بالزندقة وحمل للخليفة المتوكل فى بغداد، ولكن الصوفية من أشياعه هناك توسطوا له فأفرجوا عنه وكان أهل مصر – من المسلمين– يسمونه الزنديق.
ولسنا فى مجال تمحيص الآثار الفرعونية فى فكر ذي النون الصوفي ولكننا نقرر على عجل أنه أول من رتب الأحوال والمقامات ودرجات الولاية وفق الكهنوت المصري القديم ، وأول من أستحدث فكرة الاسم الأعظم فى تراث المسلمين الصوفية ، وحملت الكرامات التي نسبت إليه بصمات الحياة المصرية القديمة من تقديس النيل والحيوانات المقدسة وغيرها .

وقد احتفل الصوفية بذى النون واعتبروه رأس الطائفة وأن الكل أخذ عنه وانتسب إليه. وقد مات سنة ٢٤٥ هـ فيكون بذلك أول من تحدث فى التصوف بصورة متكاملة وفلسفية خصوصا وأن الحضارة المصرية القديمة التي أنجبت ذا النون كانت تعرف التصوف الغنوصى فى عصورها المتأخرة قبل المسيحية.

حمادي ... الخ.
كان من بين المكتبات المعروفة فى عصر الدولة الحديثة الفرعونية (التى امتدت خلال الفترة من عام ١٥٧٠ إلى ١٠٨٠ قبل الميلاد) دار كتب معبد الرامسيوم ، والتي شغلت قاعة ذات ثمانية أساطين تلي بهو الأعمدة ، وصور في سقفها مناظر فلكية وصور على جانبي مدخلها الآلهة سشات :" ربة الكتبة وراعية دار الكتب"، وتحوتي" رب المعرفة" ومعهما الملك رمسيس الثاني يحمل أدوات الكتابة . وورد في نقوشها آلهة السمع والبصر والفطنة والنطق الخالق . واستنتج كابار من نص للملك رمسيس الثاني يتناول هداياه لهذا المعبد أن باب هذه المكتبة كان موشى ، أو ذا تصوير موشاة بالذهب والأحجار الكريمة تقديرا له ، ويثبت ذلك أن الفجوات التي ثبتت فيها صفائح المعدن على مدخلها باقية في بنائها حتى الآن ، وعلى الرغم من عدم العثور على محتوياتها إلا انه يمكن أن يستدل مما كان مصورا في سقفها من المناظر الفلكية بأنها كانت تتضمن مخطوطات فى علم الفلك بالإضافة لكتبها الدينية والطقسية
ويضاف لهذا قاعة الكتب التي اكتشفت في معبد

التأثيرات الغنوصية المصرية فى الفكر الدينى:

دخل الإسلام بعد الفتوح فى مناطق كانت مسيحية ويهودية ، ثم ما لبث أن انتشر باعتناق أبناء اليهود و النصارى ذلك الدين الجديد لأغراض معظمها دنيوى، ولكن بعد أن تم تفسير جوهر الإسلام إلى الثوابت الأساسية التى سار عليها المصريون، ومن أجلها قاموا بتمصير اليهودية ثم المسيحية، وجاء الدور على الإسلام.

وقد شهدنا الدعوة الفاطمية تأخذ عن عقائد المصريين القدماء، وقد برز ذلك الاتجاه صراحة عند الصوفية مثل الحلاج وابن عربي الذين صرحوا بأن فرعون هو رب موسي وسيده وأنه إمامهم الذي يتبعونه، حتى لقد ألف الصوفية رسائل فى تبرئة فرعون من العذاب وقام ابن عربي بتأويل آيات القرآن التي تتحدث عن عذاب فرعون.

وحتى فى المصادر الصوفية المعتدلة نجد احتفالا بادعاء فرعون للألوهية فيقول الواسطي فى الرسالة القشيرية (ادعى فرعون الربوبية على الكشف) والكشف هو علم الغيب عند الصوفية ومعناه أن فرعون أوتي علم الغيب - شأن الصوفي الذي كشف عنه الحجاب – فادعي الألوهية وقال (أنا ربكم الأعلى) واتبعه الصوفية بقول شطحاتهم المشهورة المعروفة ،مثل : (أنا الله، ما فى الجبة إلا الله، أنا من أهوى ومن أهوى أنا ..) الخ .

والغزالى فى (إحياء علوم الدين) يذكر مقالة

الأقصر، والتى سُجل بين نصوص واجهتها سعى الملك رمسيس الثاني وان " قاعة الكتب حيث نشر مكتوبات دار الحياة وعرف منها خفايا السماء وكل أسرار الأرض "، ومن ثم فقد توقع الأستاذ الدكتور / عبد العزيز صالح أن تكون هذه القاعة خزانة كتب للمعبد رعاها هذا الفرعون وأبناؤه وكانوا يخصونها بالزيارة ، وإن بدت فى حالتها الراهنة خاوية معتمة متواضعة.
وتعددت دور الكتب فى عصر الرعامسة فى نصوص معابد أبيدوس والسلسلة بالإضافة لما تحدثت عنه برديات متأخرة عن متن نقل عن رق جلد كان بدار " كتب اوزير " فى ابيدوس منذ عهد أحد ملوك الدولة الوسطى ، وآخر يعود لعصر الملك امنحتب الثالث فى دار كتب اوزير ، هذا بالإضافة إلى احتفاظ كهنة منف حتى عهد الفرعون شاباكا بمتن مكتوب لمذهبهم يوحى بأنه كان مدونا على البردى أو على رق جلد بمكتبة معبدهم . واحتفظ معبد ادفو فى عصوره المتأخرة، بقاعة صغيرة سميت " دار الكتب والتى كانت تشبه أرشيف المحفوظات . وكذلك وجدت قاعة أخرى مماثلة

لمكتبة ادفو في معبد فيلة ، كما دونت قائمة بستة وثلاثين كتابا في معبد الطود كان منها ما يذكر : "حركة الشمس والقمر وعام المعبد ورقى الأعوام ..... وكانت مكتبات المعابد في العصر المتأخر تعوض ما عفى عليه كر الدهور من معابد مكتبات المعابد الفرعونية ، والتي اتصفت محتوياتها بشيء من التنوع على الرغم من غلبة الصبغة الدينية والسحرية على معارف أصحابها في عصور إنشائها ، إلا انه مما لاشك فيه انه كانت دليلا على تنوع أوسع وأوضح كانت تتصف به مكتبات العصور الفرعونية عصور الازدهار الفكري والثقافي ، وقد أضيف لمكتبة ادفو طابعها الدنيوى وحيث استهدفت علم الكاتب أو العلم بمعناه الواسع على الرغم من وضعها الديني الذي يفرضه عليها وجودها داخل المعبد . ودل متن نفر حوتب من الدولة الوسطى على اتخاذ دور الكتب لإطلاع الملوك فضلا عن الكهنة على اقل تقدير ، وأوضح متن من العصور المتأخرة على بقاء هذا المظهر الثقافى أو التثقيفى لها ففيه يدعو صاحبه :" من تفقهوا (فى) متون دار الكتب وفسروا رموز قدرات رع (أى) الكتب) "

الصوفية بأنه (ما من إنسان إلا وفى باطنه ما صرح به فرعون من قوله أنا ربكم الأعلى ولكن ليس يجد له مجالا) ومعناه أن فرعون لا لوم عليه طالما صرح بما هو فى باطن كل إنسان، وإذا كان الناس قد عجزوا عن التصريح بالألوهية فإن فرعون الحاكم وجد لنفسه مجالا فى ادعائه بالألوهية فلا تثريب عليه.

ولقد عرف الفراعنة فكرة الاتحاد بالله وحلول الله فى الأولياء وفق مراسيم معينة معتقدين أن القلب هو محل القبس الإلهي ويمكن تنمية القبس الإلهي فى الروح عن طريق ترديد آيات التزكية، وكان الذي يتولى عملية التزكية كاهن لقبه سخن آخ بمعني متعهد النورانية.
ويرتبط بالاتحاد والحلول معرفة الإنسان بالاسم الأعظم وإذا عرفه اكتسب مقدرة سحرية إلهية . كما فعلت إيزيس .

وفى العصر القبطى راجت الفلسفات الاتحادية مثل الغنوصية والأفلاطونية الحديثة، وكلها متأثرة بالعقيدة الفرعونية فى إمكان الاتحاد بالله عن طريق الأدعية والرياضيات وتنقية النفس. وأشهر فلاسفة المسيحيين المصريين كان اوريجانوس، وقد انتشرت آراؤه فى الشام والعراق، ووصلت للمسلمين بعد أن ترجمت للعربية ، ودارت عليها فلسفات الاتحاد عند الغزالي وابن عربي وابن سبعين وعبد الكريم الجيلى.

وانتشر مع بداية المسيحية مصطلح اللوجوس أو الاسم الأعظم، والذي به يمكن الاتحاد بالله أو حلول الله في الشخص.وردد بولس ذلك في أعمال الرسل. وكان بإمكانهم العلم بالغيب وشفاء المرضي طالما حل فيهم الروح القدس (راجع : أنجيل متى ٥/ ٩ , أعمال : ٤ / ٣١ , ٦ /٥ , ٥ / ٣٢ , ٧ / ٥٥ , ٤ / ٦ : ١٢ , ٣ / ٦ : ٩ , ٢ ٥ , ١٧) .

وفي عصور التصوف عند المسلمين راجت عقائد الاتحاد بنفس الصيغ المصرية، فالغنوصية تتحدث عن المعرفة وتسمي الولي (عارفا) فيتابع الصوفية نفس التعبير ويصير الصوفي عارفا يعلم الغيب، حتى أن صوفيا معتدلا مثل الجنيد يقول أن العارف هو من نطق عن سرك وأنت ساكت ويرجع علمه بالتصوف إلى وحى إلهى وهى نفس فكرة الهاتف التى تغلف كتابات الصوفية المصرية.

وانتشر فى عصور التصوف عند المسلمين ادعاء العلم بالاسم الأعظم، وأشهر من ادعاه الشاذلية. والشعرانى يزعم أن من منن الله عليه أنه يعرف الاسم الأعظم الذى إذا دعا به أجاب، ولكنه لا يعلمه لمن طلبه إلا بشروط مستحيلة التنفيذ، ولولا أن غيره سبقه إلى كتمانه لذكره، ثم يقول(وبالجملة فلا يطلع عليه أحد إلا من طريق الكشف) أى الغيب الذى يدعيه الصوفية .

وترتبط الكيمياء بالاسم الأعظم أو اللوجوس، والكيمياء مصطلح يعنى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق القوة النفسية، لذا تداخلت مع الكرامات

هكذا عُرفت المكتبات (البرمزات ويرن سشو) فى مصر القديمة منذ القرن ٢٥ق.م على اقل تقدير، وكانت تسمى "دور الكتب"، وهى لم تستخدم الكتب المعروفة الآن فى عصرنا ذات الدفتين ولكنها كانت تضم مخطوطات البردى والجلود والتى تسمى بمترادفات عدة مثل: عوتى، عرت، عرت زامع، مزات، مزده، سش، راع سش، شفدو، والتى كانت تحفظ فى جرار وصناديق ومشكاوات مناسبة هذا بالإضافة لبطاقات ولوحات من الخشب والعاج والأبنوس والشست واللخاف ... الخ وارتبطت مكتبات مصر القديمة أو دار الكتب فى العادة بدار الحياة، فعلى البردية رقم ٣٤٧ بليدن التى ترجع لعصر الرعامسة ورد: " الإله حورس فى شنوت، سيد الكلام، العظيم فى دار الحياة، الخالق فى دار الكتب . وكذلك ذُكر على غطاء التابوت رقم J. E. ٢٩٧١٣ بالمتحف المصرى بالقاهرة: " منحة يعطيها الملك للإله " السيد "، أخ الإله، ابن رع، سيد

وادعاء السحر، ووصف بها كثيرون من أعلام القبطية [٣٩]والتصوف [٤٠]. وجدير بالذكر أن الكيمياء بهذا المفهوم مشتقة من اسم (مصر) إذ اشتهر الكهنة فى مصر القديمة بمعرفة أسرارها السحرية.

واعتقد المصريون القدماء أن الإنسان إذا اتحد بالله أو حلت فيه روح الإله أصبح متمتعا بالتصريف في الكون , وقد عرف الفراعنة عبادة أنصاف الآلهة من البشر الواصلين للاتحاد بالله ممن اشتهروا بالحكمة مثل آمتونس بن حابوا وامحوتب بل تسمى الكهنة بأسماء إلهية مثل الذى يرى سر السماء ورئيس أسرار السماء [٤١].

وفي العصرين القبطي والصوفي كان الأقباط يعتقدون فى تصريف القديسين والمسلمون يؤمنون بكرامات الأولياء, ويكاد الاتفاق بين الفريقين يصل للتفصيلات, ولسنا فى مجال التفصيل, ولكن نذكر أمثلة سريعة. فالأقباط اعتقدوا بمقدرة القديسين على شفاء الأمراض, وأدخل بولس ذلك فى الإنجيل (أعمال الرسل ٤ / ٦ : ١٢ , ٣ / ٦ : ٩) وفى انجيل متى ٨ / ١٣ , ١٠ / ٢. وردته الروايات القبطية [٤٢], وتردد عند المسلمين الاعتقاد فى الشفاء على أيدى الأولياء ومن تراب القبور المقدسة حتى أصبح عادة اجتماعية فى العصر المملوكى [٤٣].

ومن يقرأ فى كتب المناقب الصوفية التي تتحدث عن كرامات الأولياء ويطالع كتب المسيحيين فى معجزات الآباء والقديسين يجد تشابها عجيبا فى الأفكار والأساطير والمعتقدات لأنها كلها نبعت

دار الحياة، إمام معبد الكتبة، الساكن فى دار الكتب ".

وكانت المكتبة تحتوى على بعض تماثيل لإيزيس وحاتحور وماعت وباستت وجحوتي وحور وأوزير وخنوم وغيرهم، وكانت جدران معبد إدفو، حيث كانت توجد إحدى المكتبات الكبرى، منقوش عليها مسرحية كاملة للصراع بين حورس وست.

كانت هذه المكتبات تفتح مبكرا فى الصباح وتظل مفتوحة حتى غروب الشمس. وكانت تدار من خلال مجموعة من الموظفين أهمهم:

١) الكاتب " سش": وهو المسئول عن متابعة نسخ الكتب ومراجعتها وحفظها. وفى أدب الحكمة يقول المدرس لتلميذه: " كن كاتبا ماهرا فى دار الكتب لتصبح أمينا للكتب". وكان يوصف بأنه: " الذى يعرف كل شئ، والذى يعرف كل لفائف البردى فى دار الكتب".

٢) مفتش الكتبة والنساخ " سحـ ج ـ سش": كان

من منبع واحد هو المعتقدات الغنوصية القديمة التي عاشت فى بؤرة الشعور المصري آلاف السنين .

وقد اهتم الفراعنة بالقبور إلى أن جعلوها أهرامات , وتبعهم الأقباط فأنشأوا الأديرة والكنائس على ذكرى القديسين والشهداء فى اعتقادهم . وقد يحتوي المكان على جثة المقبور أو رأسه وقد تقام له عدة أضرحة , وذلك ما كان متبعا فى مصر القديمة حيث أقيمت لجثة أوزيريس أربعين ضريحا. وترسب فى الاعتقاد المصري عدد (أربعين) حتى سمى به ولى أقيمت له أضرحة كثيرة هو شيخ الأربعين .

ومنذ العصر الفاطمي ارتفعت قباب كثيرة على قبور حقيقية أو وهمية، وكتبت عن القبور المشهورة فى القرافة مؤلفات ترشد الزائرين إلى طريق القرافة حين يزورون الأضرحة المشهور بها، مثل تحفة الأحباب والكواكب السيارة، وتخصص من الصوفية من عرف باسم مشايخ الزيارة وهم مثل المرشد السياحى فى عصرنا، أى أدلاء للزوار يرشدونهم للقبر الذى يقصدونه للتبرك والتوسل. وحفلت بالأضرحة كتب الخطط التي سجلت أهم القبور المقصودة بالزيارة من المسلمين والأقباط، وتخصص كل ضريح بنوع من الروايات [٤٤] والمزاعم التي تجعل صاحبه صاحب باع طويل فى التصريف فى ملك الله .

وإلى جانب الأضرحة شابهت أديرة النصارى معابد الفراعنة من حيث الكهنوت والنظم، ثم شابهت الخوانق والربط الصوفية مثيلتها الأديرة

يوصف بأنه الأكثر تعليماً ومهارة بين الكتبة، كان يراقب عمل الكتبة، ويهتم بتدريبهم على الكتابة النموذجية والتسجيل وحفظ الكتب.

٣) مفتش دار الكتب: " سحـ ج بر ـ مجات": وهو الذي يشرف على المكتبات، ويراجع التسجيل والتصنيف والحفظ والعمل اليومي للموظفين، وهو غالبا من كان يأمر بترميم الكتب القديمة وإعادة نسخها.

٤) كاهن دار الكتب: " حم ـ نثر بر ـ مجات": وهو الملم بكل الجوانب الدينية بالكتب ويشرف على النصوص الدينية.

٥) رئيس المكتبة" حرى ـ تب إم بر ـ مجات": أبرز شخصيات المكتبة، وكان يحمل ألقاباً أخرى هامة مثل كاهن فى معبد التحنيط، والكاتب الملكي، وحامل ختم الملك، ورئيس فريق العمل بالقصر الملكي.

٦) المشرف على الأسرار: " حرى ـ سشتا إم بر ـ مجات" وهو المعني بالنصوص الدينية، الطبية والعلمية فى المكتبة.

٧) أمين المكتبة: " إيرى ـ

مجات": وهو المسؤل عن تصنيف الكتب. والذي يملك قوائم فهرسة المكتبة. وغالبا ما كان هذا الموظف هو الذي يقترح على رئيس المكتبة إعداد الدراسات و الأبحاث الجديدة عن العلوم والفنون التى تنقص المكتبة وتكليف من يقوم بها.

٨) خادم دار الكتب: " سجم - عش إم بر - مجات": وهو المسؤل عن الاحتياجات المادية للمكتبة.

وفيما بعد حوت المكتبات عددا من المترجمين والمصورين والمرممين والمثالين، كما أشرفت على العديد من حظائر حيوانات التجارب من أجل تحسين أنسالها، والمزارع لعمل تجارب التهجين والتطعيم واستخراج السلالات الجديدة الجيدة من النباتات.

وكان من ضمن محتويات هذه المكتبات والمعابد، خاصة جامعة عين شمس، مدرسة للمساج والتمريض والعلاج النفسي المتقدم بالبخار والأعشاب. فالمكتبات كانت تسمى " بيت علاج النفس" و" بيت إنعاش الروح"، كما سبق القول.

أما عن دور هذه المكتبات

المسيحية، وتشابه الصوفية المنقطعون فى الخوانق بالرهبان والمعتزلين فى الأديرة، حتى فى الدقائق الصغيرة مثل تعبيرات الفقر والسياحة والعزلة والزى والحضرة الإلهية، بل إنه من الطريف أن باخومنيوس أبا الرهبنة فى العصر المسيحي القبطى كان ينهى أتباعه فى الأديرة عن الثرثرة فى الكلام ويأتى الشعراني بعده بقرون يعيب على الصوفية المنقطعين انشغالهم بالغيبة والنميمة والكلام عن الولاة، أى الكلام فى السياسة ،أو بتعبيره (جرّ قوافى الولاة) [٤٥].

بل كانت هناك أديرة خاصة للمسيحيات و(ربط) (جمع رباط) خاصة للنساء المسلمات وبنفس النسق [٤٦].

الاشتراك بعد التشابه :-

اتجاهات الاشتراك الدينى بين المصريين الأقباط والمسلمين:

التشابه فى المعتقدات والطقوس بين المصريين من أقباط ومسلمين أن يشترك الفريقان فى طقوس ومعتقدات مشتركة، طالما أن الدين فى حقيقته واحد فى جوهره وأساساته، وصدر من بيئة واحدة ومنبع مشترك.

ويمكن أن نحدد اتجاهات المشاركة الدينية بين المصريين الأقباط والمسلمين فى الآتى:

في الأماكن :-

حظي جبل المقطم بتقديس الأقباط والمسلمين إذ كان المكان المفضل لدفن القديسين والأولياء. ورويت أقاويل فى فضله وعن امتداده عبر البحار

والقارات. وحكى المقريزى الإجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها مقدسة فى جميع الكتب، وننقل عن المقريزى قوله (سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار فعجب عمرو من ذلك وقال: اكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين فكتب بذلك إلى عمر رضي الله عنه فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزدرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها. فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أنّ فيها غراس الجنة. فكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه فكتب إليه عمر إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء.

.. وعن ابن لهيعة أن المقوقس قال لعمرو: إنا لنجد فى كتابنا أن مابين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة.فكتب بقوله إلى عمر بن الخطاب فقال: صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين. فقبر فيها ممن عُرف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر عمرو بن العاص السهميّ وعبد الله بن حذافة السهمي وعبد الله بن جزء الزبيدىّ وأبوبصيرة الغفاري وعقبة بن عامر الجهنىّ.ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصارىّ انتهى.

..وروى أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر من حديث حرملة بن عمران قال: حدّثني عمير بن أبي مدرك الخولانيّ عن سفيان بن وهب الخولاني قال: بينما نحن نسير مع عمرو بن العاص فى سفح هذا الجبل ومعنا المقوقس فقال له عمرو: يا مقوقس ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات ولا شجر على نحو بلاد الشام فقال: لا أدري ولكن الله أغنى أهله بهذا

فكان كما يلى:

١) حفظ الكتب والوثائق وترميمها.

٢) ممارسة أنشطة ثقافية داخل المكتبة وخارجها للتواصل مع المجتمع المحيط بها.

٣) تعليم مواد دينية ودنيوية لبعض الطلاب الواعدين من معلمين متميزين لإعدادهم كباحثين وليتسلموا الرسالة التعليمية من بعدهم.

٤) مد الدارسين والمهتمين ببعض فروع العلم بالجديد فى هذا المجال.

من هنا كانت مكتبات مصر الكبري مثل مكتبتى عين شمس ومنف، معاهد عالمية للعلوم والفنون، تعلم فيهما فلاسفة وعلماء من الشرق واليونان (سولون، تاليس، بيتاجورس، أفلاطون). والأكثر من هذا كانت المصادر التى أخذت منها الكتب الأساسية التى زودت بها مكتبة اسكندريا.

النيل عن ذلك ولكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك.

قال: وما هو؟. قال: ليدفنن تحته أو ليقبرنّ تحته قوم يبعثهم الله يوم القيامة لا حساب عليهم. قال عمرو: اللهم اجعلني منهم.قال حرملة بن عمران: فرأيت قبر عمرو بن العاص وقبر أبى بصيرة وقبرعقبة بن عامر فيه.
وواضح أن المسلمين تأثروا بما كتب عن المقطم فى التراث القبطي وجعلوها روايات لأحاديث رفعوا بعضها ونسبوه حتى للنبى.

في الأعياد والموالد :-
وشارك المسلمون الأقباط فى أعيادهم حيث كانوا يقصدون الأديرة وهناك يتحول العيد إلى موسم للسرور والحبور مثل الأعياد الموسمية فى أديرة أخميم ونهيا وطمويه والسويس .يقول المقريزى عن دير مرحنا : (: دير مرحنا على شاطئ بركة الحبش وهوقريب من النيل وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور أنشأه الأمير تميم أيضًا وبقرب الدير بئر تُعرف ببئر مماتى عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليها ويشربون تحتها وهذا الموضع من مغاني اللعب ومواطن القصف والطرب وهو نزه فى أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة حسن المنظر فى أيام الزرع والنواوير لا يكاد حينئذٍ يخلو من المتنزهين والمتطربين وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه وهذا الدير يُعرف اليوم بدير الطين بالنون.)

ويقول عن دير ناهيا (دير نهيا: قال الشابشتى:

المراجع

[١] المقريزى الخطط: ١/ ١٣٨ ، ٣/ ٥٦١ ، ٥٨١ .
[٢] المقريزى الخطط: ٣ / ٥٣٦: ٥٣٨ .
[٣] المقريزى الخطط: ٣ / ٥٤٦: ٥٤٧ .
[٤] المقريزى الخطط: ٣ / ٢٩٣: ٢٩٨ ، ٣٠٣ .
[٥] المقريزى الخطط: ٣ / ٣٠٣ .
[٦] المقريزى الخطط: ٢ / ٢٧٨ .
[٧] محمد كامل حسين طائفة الإسماعيلية ١٥١: ١٥٣ ، ١٥٦: ١٥٧ .
[٨] محمد كامل حسين: طائفة الاسماعيلية ١٥٩ ، ١٦٠ .
[٩] عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله: ٧٤: ٧٥ .
[١٠] الخطط المقريزى ٣ / ٤٤٨: ٤٤٩ .
[١١] الخطط المقريزى ٢ / ١٦١: ١٦٢ .
[١٢] تكسير الأحجار: مخطوط بدار الكتاب ورقة ١٤٦ ، ١٤٧ رقم المخطوط ٤٠٤ مجاميع تيمورية رقم ٦ فى المجموعة .
[١٣] خطط المقريزى ٢

ونهيا بالجيزة وديرها هذا من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعًا عامر برهبانه وسكانه وله فى أيام النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته فإذا انصرف الماء وزرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب النواوير وأصناف الزهر وهو من المنتزهات الموصوفة والبقاع المستحسنة وله خليج يجتمع فيه سائر الطير فهو أيضًا متصيد ممتع وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيبه قلت وقد خرب هذا)

ويقول عن دير طمويه (دير طمويه: قال ياقوت: طمويه - بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو والهاء ساكنة- قريتان بمصر إحداهما فى كورة المرتاحية والأخرى بالجيزة قال الشابشتي: وطمويه في الغرب بإزاء حلوان والدير راكب البحر حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر وهو نزه عامر آهل وله فى النيل منظر حسن وحين تخضرّ الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع وهو أحد منتزهات أهل مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهَورة.)

وبعض الأعياد كان ذا صبغة مشتركة لقيامه على النيل مثل عيد الشهيد وكان أنزه الفرج فى مصر ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى .. ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل، يقول المقريزى عن (عيد الشهيد) الذى كان يشارك فيه المصريون جميعا : (ذكر عيد الشهيد:

٨٦: ٨٨ , ٢ ٤٨٢

[١٤] خطط المقريزى ٣ ١٧٠: ١٧٢ .

[١٥] خطط المقريزى ٢ ٢٠٤: ٢١٥ .

[١٦] خطط المقريزى ٢ ١٧٠: ١٧٤ , ٢٣٠: ٢٥٥ , ٢٧٤: ٢٨٢ , ٩١: ٩٥ , ١٦٨: ١٧٠

[١٧] مصطفى الشيبي: كتاب (الصلة بين التصوف والتشيع) دار المعارف

[١٨] أحمد صبحي منصور: السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة ٢٢: ٣٢ .

[١٩] محمد مصطفى حلمي: دائرة المعارف ٩ ٤١١: ٤١٢ .

[٢٠] خطط المقريزى ١/ ٥٦ , المسعودي . مروج الذهب ٢ / ٤٠١ نشر بارتييه ورمنياه

[٢١] دائرة المعارف ٩/ ٤٠٩ , نيكلسون (فى التصوف الإسلامى) ١٢،١٠ , ٩ , القفطي: إخبار الحكماء ١٢٧ .

[٢٢] المسعوي ٢ ٤٠١ , حسن المحاضرة للسيوطى ١ ٥١١: ٥١٢ .

[٢٣] الجامي: نفحات الإنس ٢٦ . الطبقات الكبرى

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فرج مصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يُلقي النصارى فيه تابوتًا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى.
ويكون ذلك اليوم عيدًا ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيها الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامّة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم.
ولم يزل الحال على ما ذكر من الاجتماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذٍ بديار مصر: الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الأمير: ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ أستادار السلطان والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام الأمير بيبرس فى إبطال ذلك قيامًا عظيمًا وكان إليه أمور ديار مصر هو والأمير سلار والناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما فتقدم أمر الأمير بيبرس أن لا يرمي إصبع فى النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرى على عادتهم وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه فى الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد فشق ذلك على أقباط مصر كلهم من أظهر الإسلام منهم وزعم أنه مسلم ومن هو باق على نصرانيته [٥١].

للمناوي مطبوع ١ ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

[٢٤] ماسون , أورسيل: الفلسفة في الشرق ٦٣ .

[٢٥] خطط المقريزي: ٢ / ٩٧: ١٠٤

[٢٦] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ١٧٤: ١٧٥ .

[٢٧] محمد البهي: في الفكر الاسلامي . الطبعة الرابعة ١٩٦٢ – ١٣٨١ . ص ١٦ .

[٢٨] خطط المقريزي: ٣ ١٨٨ , ٥٤١ , ٥٧٠ وما بعدها حسن المحاضرة ١ ٦٠١ .

[٢٩] [٢٩] تاريخ الكنيسة القبطية: ٤٥٥ , ٤٥٧ , ٤٦١ , ٤٧١ , ٤٧٥ , ٤٧٦ , ٤٨٢ , ٤٨٤ , ٥١٤: ٥٢٢: ٥٢٥ .

[٣٠] [٣٠] رسالة (إيمان فرعون) لجلال الدين الدواني وقد نشرها ابن الخطيب . وقد سجل ابن عربي آراءه عن فرعون في كتابه (فصوص الحكم) ٢٤٨: ٢٦٤ بتعليق القاشاني . مطبعة الحلبي .

[٣١] الرسالة القشرية ٨ . ط صبيح .

[٣٢] إحياء . علوم الدين ٣ ٢٤٣: ٢٤٤ . المطبعة

في التداوى :-

وكان بعض المسلمين يعتقد فى الشفاء على أيدي القديسين ولو كانت الوصفة تضم لحم الخنزير الذي يحرمه الإسلام ،يقول المقريزى عن دير سرياقوس : (دير سرياقوس: كان يُعرف بأبي هور وله عيد يجتمع فيه الناس وكان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتي وهو أن من كان به خنازير أخذه رئيس هذا الدير وأضجعه وجاءه بخنزير فلحس موضع الموجع ثم أكل الخنازير التي فيه فلا يتعدّى ذلك إلى الموضع الصحيح فإذا نظف الموضع ذرّ عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ودهنه بزيت قنديل البيعة فإنه يبرأ ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذي أكل خنازير العليل فيذبح ويحرق ويعدّ رماده لمثل هذه الحالة فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة وفيه خلق من النصارى.).

وتلك مجرد أمثلة للتشابه والتشارك فى تفاصيل الحياة الدينية لمصر بعد الفتح الإسلامي يبدو فيها واضحا تباعد الفجوة بين الإسلام الحقيقي الذي ينبغي أن يكون والإسلام المعلن الواقعي الذي تسجله وقائع التاريخ . والنصوص الدينية فى القرآن الكريم تقرر ما يجب أن يكون . والوقائع التاريخية تسجل ما هو كائن , ووظيفة البحث التاريخي أن ينبه للفجوة بين المفروض والواقع , بين المثل (بضم الميم والثاء) والتطبيق , ويهدف البحث التاريخي بذلك لان تضيق الفجوة بقدر الإمكان حتى يصبح اللاحقون خيرا من أسلافهم وحتى يتقدم الإنسان المصري ويتطهر من الخرافات.

العثمانية .

[٣٣] ديانة مصر القديمة: ٧٠ .

[٣٤] عبد العزيز صالح: حوليات القاهرة ٢٧ ١٥٩ , ١٩٥ , ١٩٦ .

[٣٥] استندروف: ديانة قدماء المصريين ٨٤: ٨٦

[٣٦] الرسالة القشيرية: ٣١ , ٣٢ .

[٣٧] عن الهاتف عند المسيحيين (إعمال ٨ / ٢٦ , ٣/٩) تاريخ الكنيسة القبطية:- ٤٢٢ , ٥٩٣ , ٥٩٤ , ٦٥٠ ,وعن الغيب: (أعمال ٥ / ١:١١ , ١١ / ٢٧) تاريخ الكنيسة القبطية: ١٤٢ , ١٦٧ , ١٩٦ , ١٩٨ , ٢٠١ , ٢٠٥ , ٣٠١ , ٣٦٩ , ٣٨٥ , ٤٠٠ , ٤٠١ , ٤٢٣ , ٤٦٦ وتلك مجرد أمثله ,أما الكشف أو الغيب عند الصوفية فهو أكثر من أن يحصى فى المراجع الصوفية .

[٣٨] لطائف المنن ٥٠٨ , طبقات الشاذلية للكوهن ٢٥٣ د . عبد الحليم محمود: الشاذلي: ٤٤ سلسلة اعلام العرب .

[٣٩] عن أعلام الأقباط فى ادعاء الكيمياء: تاريخ الكنيسة القبطية ٢٩٤ , ٣٩٥ , ٤٣٨ , ٥٠٩ وما بعدها .

خاتمة

فإذا كان كلُ يصدر فيما يفعل وفيما يقول عن تفسير خاص لمعتقده، ربما آمن به سماعاً دون فهم، وإشاعة دون علم، وكان يرى أن معتقده هو المطلق، أى الحق كل الحق، فإن الأمر سوف ينتهى به، لا محالة إلى عداوة شديدة، مع كل من لا يكون عضوا فى جماعته، فردا فى فريقه، حتى ولو كان يؤمن بذات المعتقد، ذلك بأن كثرة التفسيرات ووفرة التأويلات وتنوع التطبيقات وتفرع الاختلافات، أدى إلى انشقاقات كثيرة داخل المعتقد الواحد.

ففى اليهودية توجد فرق القرائين والفريسيين والحارديم، وصار يوجد من يقال إنهم علمانيون، وفى المسيحية توجد الكاثوليكية بفرق لها، والأرتودكسية بفرق كثيرة، والبروتستانتينية بمئات الفرق. وفى الإسلام توجد السنّة والشيعة، وداخل السنّة نشأت جماعات إسلامية متعددة فى الماضى وفى الحاضر، والشيعة تنقسم إلى أكثر من فرقة ... وهكذا.

وقد أدى مفهوم المطلق إلى رفض بعض الفرق التعاون مع غيرها من الفرق الأخرى داخل ذات المعتقد، و بهذا كرس هذا المفهوم دوام الحرب والعدوان باسم الدين. والدين من ذلك براء. ذلك لأن الدين يهدف إلى جمع البشرية كلها تحت لواء الجلالة، فى إيمان سليم وعمل مستقيم.
وقد اتجهت المعتقدات إلى تشكيل مؤسسات لترويضها أو احتوائها. ذلك أن عجز الناس عن حمل أمانة البحث عن الحقيقة، والوصول إلى الحق، وتمييزه عن الباطل، واختيار الصراط

[٤٠] عن الكيمياء عند الصوفية:- عن الشاذلية: التنوير لابن عطاء ٨٢، تعطير الأنفاس مخطوط ٤٨، ٣١ وعند باقي الصوفية: الطبقات الكبرى للشعراني: ٢ / ٧٣، ٥٨٦ لطائف المنن للشعراني ٧٥٠. مجرد أمثلة.

[٤١] استندروف: ديانة قدماء المصريين ٢٢، ٥٦: ٥٧ كورنيل: الحياة فى عهد الفراعنة: ١٣، أحمد زكي بدوي تاريخ مصر الاجتماعى ٢٨.

[٤٢] تاريخ الكنيسة القبطية: ٢٧، ١٢٦، ٢٢٩، ٣٥٦، ٣٨٨، ٣٩٣، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٤، ٦٤٧، ٦٥٠، ٤٢٥، ٤٧٣.

[٤٣] المنهل الصافي لأبي المحاسن: مخطوط ١ / ٩٣، ٢ / ٤٠٥. الكواكب السيارة: ١٤٤، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٩٤، ٢٣٣، ١٩٧، ١١٩، ١٨٤، ٢٩١.

[٤٤] خطط المقريزي: عن المسلمين: ٣ / ٤٤٨ وما بعدها، ٢ / ١٦١، ٣ ٤٧٨، ٤٨٥، ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٧٩ عن الأقباط: خطط ٣ / ٥٥٢: ٥٦٩، تاريخ الكنيسة القبطية: ٢٢٤، ٣٦١، ٣٧٦، ٤٤٤. مجرد أمثلة وعن الأساطير الخاصة بالأضرحة عند المسلمين: خطط ٣ /

المستقيم، هذا العجز أدى إلى تكوين مؤسسات تعفيهم من الحق الكونى والالتزام الإنسانى، فتقدم إليهم ما ترى أنه الحقيقة، وتضع لهم الفارق بين ما هو حق وما هو باطل، وتجعل من إتباع أوامرها هى إتباعا للصراط المستقيم، وسكن الناس إلى ذلك من فرط الجهل وضغط الكسل وإسقاط الإرادة وإهمال الاختيار، وبذلك تحولت المعتقدات من خلال المؤسسات، إلى فتاوى معلبة وشعائر مجهزة، فصارت تجارة تبعد عن صميم الدين وتنأى عن جوهره.

ومما ينتج عن تحيز المعتقدات فى مؤسسات أن تأخذ سمة السياسة وتسلك مسالكها، أو أن تتصادم مع السلطة السياسية حتى تكون هى السلطة العليا، أو أن تحاول السلطة السياسية احتواءها حتى تنفرد بالحكم، أو أن تتحول السلطة السياسية إلى سلطة دينية، فتجمع بين يديها حكم الدنيا والآخرة. و النتيجة فى أى من هذه الحالات أن تصبح العقيدة أيدولوجيا، أو جهازاً دعائيا يستغل المشاعر الدينية لتحقيق أغراض سياسية أو لتنفيذ أهداف حزبية. و بهذا تتخلى العقيدة عن أهم محتواها وأثمن مبتغاها، وهو النظام الأخلاقى، ما دام الأصل فى العمل السياسى هو التصويت على برامج مرحلية متطورة ومتغيرة يتم من خلالها تداول السلطة، على حين أن الأصل فى الأخلاق هو أن فضل الغاية من فضل الوسيلة ونبل الوسيلة من نبل الغاية، وهذا ما لا يمكن التصويت عليه ولا يتم تغيره من مرحلة لأخرى تحت ضغوط وتحولات الظروف السياسية أو الاجتماعية.

٤٢٦ , ٤٣٧ , ٤٤٦ , ٢ / ١٦١ . والأساطير الخاصة بالأضرحة المسيحية خطط ٣/ ٥٥٤ , ٥٥٨ , ٥٥٩ , ٥٦٠ , ٥٦٣ , ٥٦٤ , ٥٦٦ .. الخ.

[٤٥] تاريخ الكنيسة القبطية: ١٩٥ , لطائف المنن للشعرانى ٣١٦ , ٣٠٢ , ٣٤٠ .

[٤٦] تاريخ الكنيسة القبطية: ١٩٤ , ١٩٦ , خطط المقريزى ٣ / ٤٢٣: ٤٦٧ , ٣ / ٥٦٥ .

[٤٧] تاريخ الكنيسة القبطية: ١٤١، ١٧٥، ٢٠٠، ٢١٠، ٣٠٩ خطط المقريزى ٣ / ٥٥٩

[٤٨] خطط المقريزى ٣/ ٥٦٠: ٥٦١ .

[٤٩] خطط المقريزى ٣/ ٤٥٠: ٤٥٣، ٤٥٤ .

[٥٠] خطط المقريزى ٣/ ٥٦٨، ٥٦١، ٥٦٩، ٥٨١

[٥١] خطط المقريزى ١/ ١٢٥، ٣/ ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٧٩ .

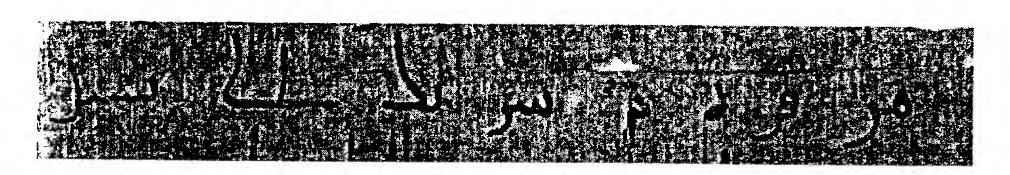
[٥٢] خطط المقريزى ٣/ ٥٦٢ ولطائف المنن للشعرانى ٢٧٢: ٢٧٤ ط. عالم الفكر.

(ملحق)

من برديات قرة بن شريك



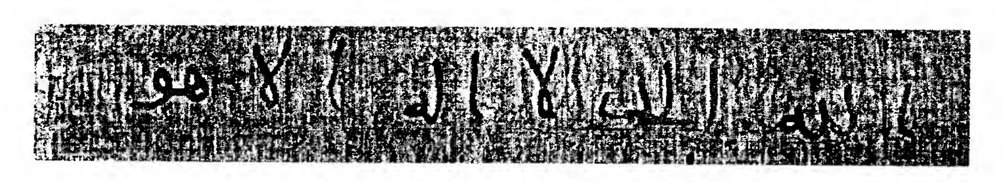
[بسم] «الله» «الرحمن» «الرحيم» -



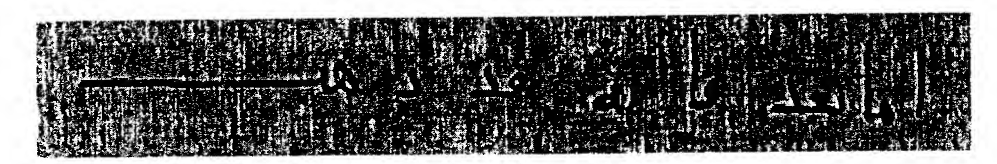
مِنْ قُرَّةَ بْن شَرِيكَ إلى بَسِيلَ



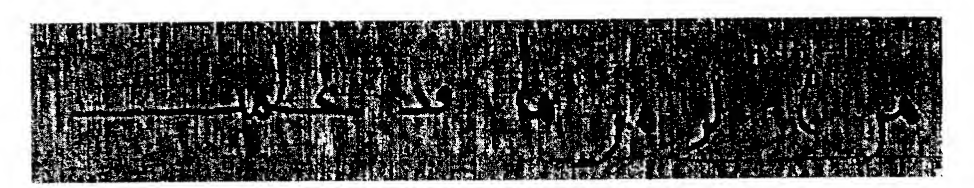
صَاحِبِ أشقُوهَ فإنّي أحْمَدُ



اللَّهَ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ



أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ



مِنَ الزَّمَن مَا قَدْ عَلِمْتَ



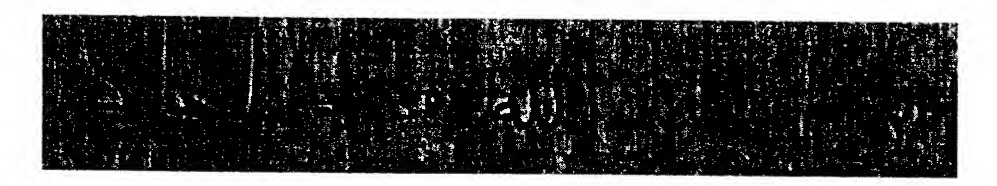
وَقَدِ استَأخَرْتَ الجِزْيَةَ



وَحَضَرَ عَطاءُ الجُنْدِ



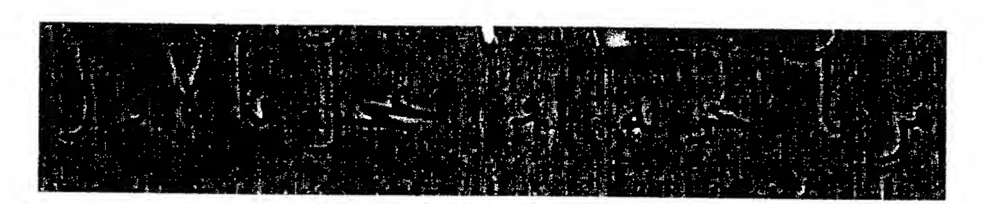
وَعَطاءُ عِيَالِهِمْ وَخُرُوجُ الجُيُوش



إنْ شَاءَ اللّهُ فإذَا جَاءَكَ



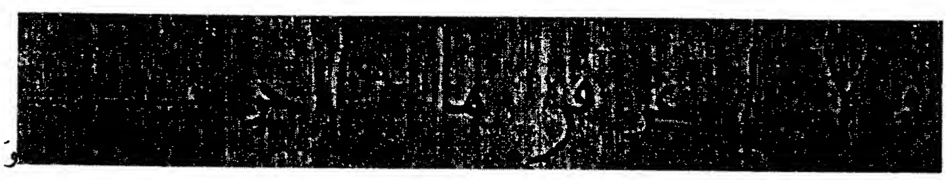
كِتَبي هذَا فَخُذْ فِيمَا عَلى أرْضِكَ



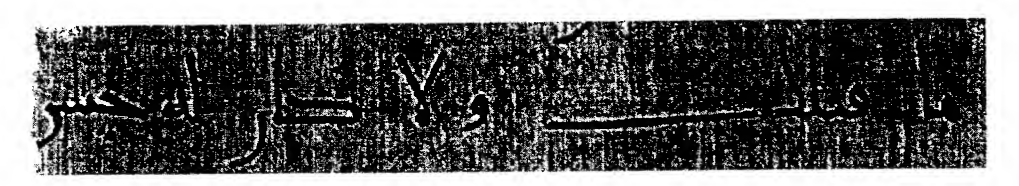
مِنَ الجِزْيَةِ وَعَجِّلْ بالأوَّل



فالأوَّلِ مِمَّا جَمَعْتَ



لا أعْرِفَنَّ مَا أخَّرْتَ



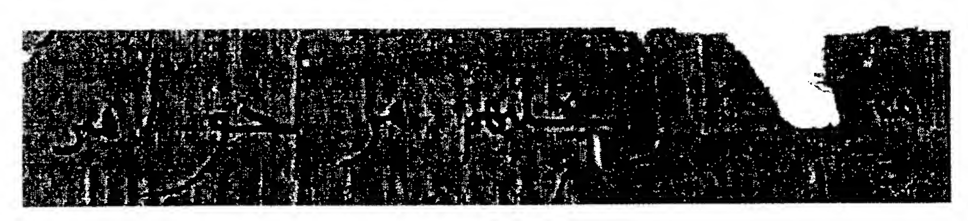
مَا قِبَلَكَ وَلاَ كَانَ لَهُ حَبْسٌ



قَدْ فَرَغُوا مِنْ زِرَاعِهِمْ



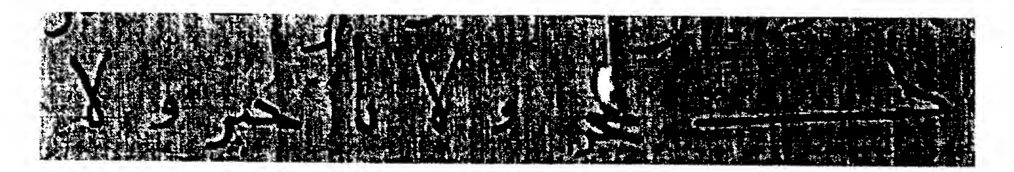
ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ مُعِينُهُمْ عَلَى



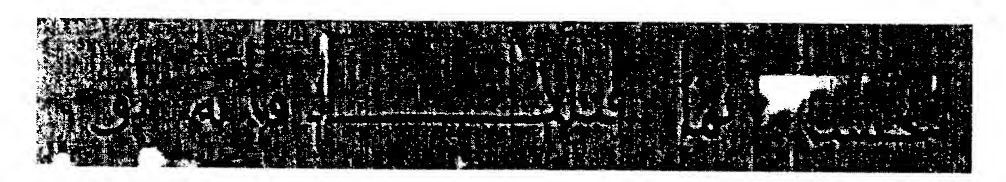
مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ أَمِيرِ



المُؤْمِنِينَ فَلاَ يَكُونَنَّ فِى أَمْرِ(ك)



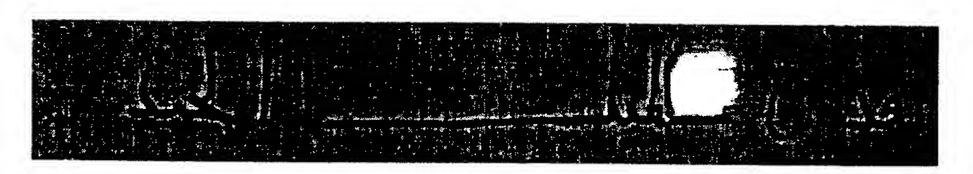
ك عَجْزٌ وَلاَ تَأخِيرٌ وَلاَ



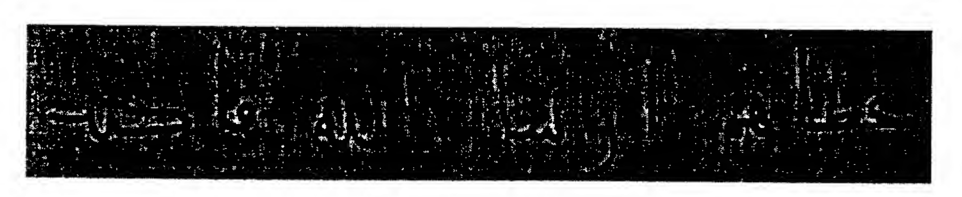
تَحَبُسًا بمَا قِبَلَكَ فَإِنَّهُ لوْ



قَدْ اجْتَمَعَ عِنْدِي مَالٌ



قَدْ أعْطَيْتُ الجُنْدَ



عَطَاءَهُمْ إنْ شَاءَ اللّهُ فَاكْتُبْ



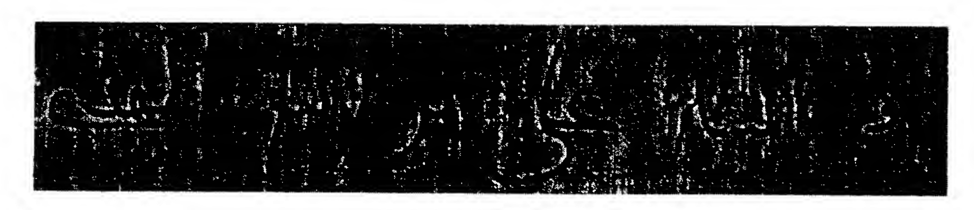
إليَّ بمَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ



مِمَّا جَبَيْتَ مِنَ الجِزْيَةِ



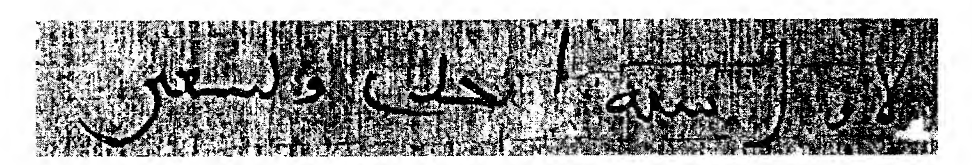
وَكَيْفَ فعَلتَ فِى ذلِكَ



وَالسَّلامُ عَلى مَن اتَّبَعَ الهُدَى



وَكَتَبَ جَرِيرُ فِي شَهْرِ رَبِيعَ



الأَوَّلِ سَنَة إِحْدَى وَتِسْعِينَ

المحتويات

أحدث الإصدارات

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف / المترجم	الصنف	السعر
١	رمال ناعمة	درية الكرداني	رواية	٢٥,٠٠
٢	ذات (الطبعة الخامسة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٣	يوحنا النقيوسي "أول من كتب عن دخول العرب مصر" (تاريخ مصر والعالم القديم)	تحرير وتدقيق/ عبد العزيز جمال الدين	تاريخ	٤٠,٠٠
٤	رءوف مسعد يحاور نصر أبو زيد	رءوف مسعد / نصر حامد أبو زيد	إسلاميات	٢٥,٠٠
٥	المسلمون والأقباط في التاريخ ط٣	فكري أندراوس	دراسة	٣٠,٠٠
٦	حرفوشيات (ديوان شعر)	د. فؤاد طيرة	شعر	١٥,٠٠
٧	الجلـــــــــــــيد	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٨	أحمد حسنين ودوره في السياسة المصرية ١٩٤٠-١٩٤٦	د. ماجدة محمد حمد	دراسة	٣٠,٠٠
٩	وثائق الحركة الشيوعية المصرية من ١٩٥٣-١٩٥٤	تصدير وتحرير: د عاصم الدسوقي / م سعد الطويل / حنان رمضان	وثائق	٤٥,٠٠
١٠	شـــــــــرف	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
١١	المسلمون والأقباط في التاريخ ط٢	فكري اندراوس تقديم المستشار/ محمود الخضيري	دراسة	٣٠,٠٠
١٢	أيقونة الجسد	جورج البهجوري	رواية	٢٠,٠٠
١٣	الرئيس البديل	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
١٤	لعبة الشيطان (كيف ساعدت الولايات المتحدة على إطلاق العنان للأصولية الإسلامية)	روبرت دريفوس ترجمة: أحمد مصطفى حسونة	سياسة	٣٥,٠٠
١٥	مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	٢٠,٠٠
١٦	جمهوركية آل مبارك	محمد طعيمة	سياسة	٢٥,٠٠
١٧	حدتو ذاكرة المقاومة في بورسعيد ١٩٥٦	د أحمد القصير	سياسة	١٠,٠٠
١٨	أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١١	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠

١٩	حوار مع اطروحات حزب التجمع (والبحث عن برنامج يعالج قضايا واقع جديد)	بهيج نصار	سياسة	٤,٠٠
٢٠	جماعات الإسلام السياسي واليسار المصري	بهيج نصار	سياسة	٤,٠٠
٢١	حركة التاريخ قضايا ومفاهيم	فوزي الإخناوي	تاريخ	١٥,٠٠
٢٢	بدائل التنمية العربية	مدحت أيوب	سياسة	٣٠,٠٠
٢٣	الثقافات المحلية والعولمة	د إيمان يوسف البسطويسي	سياسة	٢٥,٠٠
٢٤	كراكيب الصندرة	سمير عبد الباقي	أدبيات	٣٠,٠٠
٢٥	استراتيجية للثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٢٠,٠٠
٢٦	أحوال الصين (دراسات نقدية)	مجموعة من العلماء الصينيين	سياسة	٢٠,٠٠
٢٧	سياسية القوة البريطانية في مصر ١٩٢٤-١٩٤٢	د ماجدة محمد حمود	تاريخ	١٥,٠٠
٢٨	الثأر الرمزي (تماس الهوايات في واحات الجنوب التونسي)	محمد جويلي	اجتماع	٢٠,٠٠
٢٩	التفكير الناقد	د سهام الهويني	فلسفة	٢٠,٠٠
٣٠	حدتو ذاكرة وطن ط ٢	د أحمد القصير	سياسة	٢٥,٠٠
٣١	أفريقية عربية - مختارات العلوم الاجتماعية ١٠	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٣٢	الناس بين الكهنة والمؤسسات	حسني فرجاني سلامة	اجتماع	٢٠,٠٠
٣٣	التجربة الأنثوية (طبعة ثانية)	صنع الله إبراهيم	رواية	٢٥,٠٠
٣٤	المثقفون	حمزة قناوي	أدب	١٥,٠٠
٣٥	كارت أحمر للرئيس	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٣٦	أزمة مصر الحقيقية	عيداروس القصير	سياسة	١٠,٠٠
٣٧	رمسيس لبيب - الأعمال الكاملة (المجلد الأول)	رمسيس لبيب	روايات	٤٠,٠٠
٣٨	رمسيس لبيب - الأعمال الكاملة (المجلد الثاني)	رمسيس لبيب	روايات	٤٠,٠٠
٣٩	سِفر الحياة (رؤي وتأملات)	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٤٠	سِفر الحياة (وكان شتاءً دافئًا) شعر	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٤١	العراق بين صراعات في الداخل والخارج	حسين عبد الرازق	سياسة	٢٥,٠٠
٤٢	الأيام الأخيرة	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٤٣	ذكرى عاهراتي الحزانى	جابرييل جارثيا ماركيز ترجمة د أحمد يونس	رواية	٢٠,٠٠

٤٤	اشتراكية القرن	سمير أمين	سياسة	٣٠,٠٠
٤٥	ماركسية القرن الحادي والعشرين	عادل غنيم	سياسة	٣٠,٠٠
٤٦	أوروبا العثمانية ١٣٥٤-١٨٠٤ (في أصول الصراع العرقي في الصرب والوسنة)	بيتر شوجر ترجمة: د عاصم الدسوقي	تاريخ	٣٠,٠٠
٤٧	استراحة الشيخ نبيل	عبد الستار حتيتة	رواية	٢٠,٠٠
٤٨	العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين	إشراف: سمير أمين	سياسة	١٥,٠٠
٤٩	الطريق نحو عولمة بديلة	بهيج نصار	سياسة	٣,٠٠
٥٠	المرسى	نجوى شعبان	رواية	١٥,٠٠
٥٠	حوارات ساخنة بين اليسار العربي والأوروبي	سمير أمين وآخرون	سياسة	٢٠,٠٠